الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة البليدة 2 – لونيسي علي



كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

صورة الجزائر في أدب الرحلة الفرنسي خلال القرن التاسع عشر الميلادي

–دراسة نماذج–

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه LMD في اللغة والأدب العربي

تخصص أدب عالمي ومقارن

إعداد الطالب: **أحمد فعفاع**

إشراف الأستاذة الدكتورة: **رجاء بن منصور**

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
خليفة قرطي	أستاذ	جامعة البليدة 02	رئيسا
رجاء بن منصور	أستاذ	جامعة البليدة 02	مشرفا ومقررا
محمد بلعزوقي	أستاذ	جامعة البليدة 02	مناقشا
نعيمة سغيلاني	أستاذ محاضر أ	جامعة البليدة 02	مناقشا
نصيرة علاك	أستاذ محاضر أ	جامعة تيبازة	مناقشا
عائشة حمادو	أستاذ محاضر أ	جامعة تيبازة	مناقشا

السنة الجامعية: 2026/2025

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ ﴾

سُورَةُ البَقَرَةِ ٣٢

إهداء

إلى من أنجباني إلى هذه الدنيا والداي حفظهما الله وإلى كل عائلتي

إلى كلّ من علّمني حرفا وإلى أهل العلم عامة

إلى كلّ من يعرف شخصي



شكر وتقدير

قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

الحمد لله على فضله وكرمه، الحمد لله الذي أنعم علينا بالعقل وفضلنا على سائر خلقه والشكر له على ما حبانا به من معرفة، فلولاه ما كنا لنبلغ هذا المقام.

الشكر للوالدين وللعائلة على ما بذلوه وتكبدوه في سبيل أن أكون هنا اليوم.

كل الشكر وجميل التقدير والعرفان للأستاذة الدكتورة رجاء بن منصور التي رافقتنا في هذا الطريق الشاق ولم تبخل علينا يوما بالتوجيهات رغم المشاغل، حتى خرج هذا العمل من العدم إلى النور، فبارك الله فيك وعليك ونفع بك.

شكرا لأعضاء لجنة المناقشة لقبولهم وتكرمهم تقييم هذا البحث.

شكرا لكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل المتواضع وإلى كل عمال كلية الآداب واللغات بجامعة البليدة 2.

مقدمة

خلق الله الكون وهيأ له أسباب الاستمرار، فاستخلف فيه الإنسان، ولضمان حياته هداه إلى التنقل والترحال حتى يؤمن عيشه، وقد استطاع هذا الإنسان بفضل هذا الترحال والتعايش مع مختلف الظروف المحيطة به، أن يكوّن مجتمعات تمايزت من خلال تكوينها البشري وعاداتها وتقاليدها، وحينما ازداد وعيه وأتقن الكتابة والقراءة، عمل على تدوين ما شاهده من خلال تنقلاته، واصفا ما تقع عليه عينه، ليشكل هذا الإنتاج الذي أبدعه نوعا أدبيا جديدا أُصطلح عليه بأدب الرحلة.

وفي خضمّ التطورات التي عرفتها حياة هذا الانسان، انقسم العالم إلى قطبين أساسيين هما: الغرب الذي واكب التطور والحضارة، وانفتح على آفاق واسعة، مكنته من تحقيق الريادة في شتى الأصعدة، والشرق الذي انطوى على نفسه، ورفض مواكبة تلك التطورات، بيْد أن هذا التطور الذي عرفه الغرب عجّل بفتح بصيرته، على توسعات خارج دائرته الجغرافية، بعد أن بدأت موارده في النفاذ، فاتجهت أنظاره إلى بعض دول الشرق، والتي رأى فيها غنيمة يجب الظفر بها بشتى الوسائل، فقد كانت دول الشرق، وبالخصوص دول شمال افريقيا تمثل له من خلال السيطرة عليها بادرة انفراج لأزماته التي يتخبط فيها.

وقد كانت الجزائر احدى دول شمال افريقيا، التي وقعت عليها أطماع فرنسا الغربية خلال القرن التاسع عشر ميلادي، وذلك لما كانت تزخر به من خيرات وموارد طبيعية، فقد رأت فيها فرنسا فرجا لأزمتها الخانقة التي تعيشها، فأوعزت إلى رحالتها الذين قصدوا الجزائر لعدة أسباب، رصد

موقعها وواقعها المعيشي، وهذا خدمة لأجندة إدارية استعمارية بالدرجة الأولى، فقد شكلت هذه الرحلات أحد المصادر التي استعانت بها فرنسا لاحتلال الجزائر سنة 1830م والتوسع فيها، وبعد الاحتلال زاد إنزال الرحالة الفرنسيين بالجزائر خصوصا خلال بدايته، إذ جاب هؤلاء الرحالة كل ربوع الجزائر، من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها الذي كان عصيا على بعضهم، ذاكرين في رحلاتهم تفاصيل عن البيئة والمجتمع الجزائري كبيرة كانت أم صغيرة تلك التفاصيل.

ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث ليبرز مكانة الجزائر في الأدب. وخصوصا في أدب الرحلة الفرنسي، والصورة التي رسمت لها عند الرحالة الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر الميلادي والتي نقلوها إلى القراء.

وتبعا لما سبق ونظرا لدوافع عديدة تتراوح بين الذاتية والموضوعية، طرقت باب أدب الرحلة الفرنسي، في محاولة لكشف الرؤية الفرنسية للجزائر، ومن الدوافع الذاتية التي جعلتني أخوض غمار البحث في هذا المجال: حبي لأدب الرحلة، وشغفي بمطالعته، ومن الدوافع الموضوعية محاولة تسليط الضوء على واقع صورة الجزائر في الأدب الفرنسي، لأنني أرى أنه من أكثر الآداب الحافلة بصورة الجزائر، كما أنني أرى أن هذا النوع من الدراسات لا يحظى بالاهتمام الكافي من قبل الباحثين، حيث يبقى موضوع صورة الجزائر في أدب الآخر دوما محل بحث و تحر.

وقد جاء بحثي هذا الذي يحمل عنوان " صورة الجزائر في أدب الرحلة الفرنسي خلال القرن التاسع عشر الميلادي –دراسة نماذج–" ليجيب عن إشكالية رئيسية فحواها:

كيف صور الرحالة الفرنسيون الجزائر في رحلاتهم؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية الكبرى لابد من الإجابة عن بعض التساؤلات التي تسير بي نحو إماطة اللثام عن الإشكالية الرئيسية، ومن هذه التساؤلات:

- ما الصورة في الأدب المقارن؟ وما أساسياتها؟
- ما أدب الرحلة وما أساسياته؟
- كيف رأى الفرنسيون الجزائر ومدنها من خلال رحلاتهم التي كانت خلال القرن التاسع عشر ميلادي؟

وإجابة على الإشكالية الرئيسية وما تفرع عنها من تساؤلات ثانوية، سأخوض في هذا البحث معتمدا آلية الوصف والتحليل دون الاستغناء عن المقاربة التاريخية، وذلك حسب ما تتطلبه وتفرضه طبيعة البحث، فالمقاربة التاريخية ستكون حاضرة في تعريف الصورائية وتاريخها، وأدب الرحلة وتطوره، أما آلية الوصف والتحليل فستتجلى أكثر خلال عرضنا لما قام بتدوينه الرحالة الفرنسيون عن الجزائر خلال القرن التاسع عشر ميلادي.

وقد جاء هذا البحث مشكلا من مقدمة ومدخل وفصل نظري وفصلين تطبيقيين وخاتمة.

المقدمة حاولنا فيها الإحاطة بالموضوع من خلال تمهيد مناسب

المدخل وحمل عنوان "الصورائية مفاهيم وأساسيات"، تناولت فيه تعريف الصورة عموما من الناحية اللغوية والاصطلاحية مع التركيز على مفهومها في الأدب المقارن، ثم عرجت على بدايات

ظهور الصورائية في الأدب المقارن وتطورها، إلى أن أصبحت مبحثا قائما بذاته في مجال الأدب المقارن، ثم فصّلت في أنواع الصورة في الأدب المقارن، والتي هي في غالب الأحيان إما سلبية أو ايجابية، ثم ختمت هذا المدخل بوسائط تشكل الصورة في الأدب المقارن من خلال التركيز على أهم الوسائط التي تتجلى فيها الصورائية وتساعدنا في كشف نظرة الأنا للآخر أو العكس.

الفصل الأول وحمل عنوان " أدب الرحلة مفاهيم وأبجديات" وكان تقسيمه إلى مبحثين وسم المبحث الأول بأدب الرحلة المفهوم والتاريخ أما المبحث الثاني فوسم بأدب الرحلة المرتكزات وجدلية الذات والغير، كان استهلال هذا الفصل بتقديم تعريف لغوي لمصطلح أدب الرحلة من خلال ذكر ما تداولته بعض المعاجم العربية بشأن هذا المصطلح دون إغفال ما ورد حول الرحلة في بعض مواضع القرآن الكريم، وكذا التعريف الاصطلاحي بذكر ما أدرجه بعض الباحثين في هذا الموضوع، ثم تناولت تاريخ أدب الرحلة الغربي والعربي من خلال استجلاء جملة من الرحلات الغربية والعربية التي كانت في أزمنة مختلفة، بعدها ذكرت فيه بعض دوافع أدب الرحلة، ثم سلطت الضوء على أقسام الرحلة في الأدب العربي وهي قسمان إما نثرية أو شعرية وإما واقعية أو خيالية أو أسطورية، لأشير بعد ذلك إلى قيمة وأهمية أدب الرحلة، كما عرجت بالحديث عن ثنائية الأنا والآخر بين العرب والغرب في أدب الرحلة وحاولت الكشف فيه عن الرؤى المختلفة التي تتجسد بعد استكشاف الآخر ومعاشرته.

الفصل الثاني وكان عنوانه " تيوفيل غوتييه في أحضان الجزائر" وقسّمته كذلك إلى مبحثين جاء المبحث الأول بعنوان بين تداعيات احتلال الجزائر والرؤية الفرنسية للعاصمة الجزائرية، وتلاه المبحث الثاني الذي حمل عنوان البليدة وقسنطينة في مرآة تيوفيل غوتييه تناولت في هذا الفصل

أسباب احتلال الجزائر وظروف هذا الاحتلال بعيون فرنسية، كما تطرقت فيه إلى الرحلة التي قام بها الرحالة الفرنسي تيوفيل غوتييه إلى مدن الجزائر (الجزائر العاصمة والبليدة وقسنطينة)، والتي كانت سنة 1845م وحملت في النسخة المترجمة عنوان "رحلة إلى الجزائر"، فحاولت الكشف عمّا أورده في ثنايا رحلته سواء عن طبيعة وعمران هذه المدن الثلاث، أوعن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والديني، الذي كانت تعيشه هذه المدن إبان الاحتلال الفرنسي الغاشم، معرجا على الصورة التي رسمها هذا الرحالة للجزائر والمجتمع الجزائري، في ظل هذا الاحتلال الذي ادّعى نشر التقدم والحضارة.

الفصل الثالث وحمل عنوان " صورة الجزائر في أدب رحالة فرنسيين " وقسّمته بدوره إلى مبحثين عُنون أولهما بثنائية باتنة وتقرت عند زاكون ولارقو، أما ثانيهما فعُنون بتمثلات غليزان ووهران عند الآخر الرحالة الفرنسي ، وشكّل هذا الفصل زيادة إيضاح لما ورد قبله حول صورة الجزائر، من خلال مدن أخرى قمت بالوقوف عليها، ومن هذه المدن باتنة التي زارها الرحالة جوزيف زاكون خلال رحلته إلى الجزائر والتي كانت سنة 1865م، والتي حملت عنوان " De Batna à Tuggurt et au Sauf"، حيث وقفت على ما أورده حول طبيعة وعمران هذه المدينة وواقعها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ثم تناولت مدينة تقرت بجنوبنا الكبير من خلال الرحالة فيكتور لارقو الذي زار الجزائر سنة 1874م، وكانت رحلته تحمل عنوان "Le Sahara Algerien les déserts de l'erg"، وفصلت فيما أورده حول الموقع والعمران، والواقع الاجتماعي والصحي والاقتصادي، كما استجليت ما كتبه الرحالة فليكس لاباتو عن مدينة غليزان من خلال الرحلة التي قادته إلى الجزائر العام 1881م، والتي كانت بعنوان "Notes sur l'Algérie Relizane"، حيث أشار هذا الرحالة

إلى موقعها وتاريخها وعمرانها، كما وصف واقعها الاجتماعي والديني والصحي والاقتصادي، وكمحطة أخيرة وقفت عند رحلة جورج روبرت بين عامي 1886م و1887م والتي جاب فيها كل مقاطعات الجزائر والتي حملت عنوان "Voyage à travers l'Algérie notes et croquis" فاستجليت ما أورده الرحالة عن مقاطعة وهران طبيعيا واجتماعيا ودينيا.

الخاتمة حاولت الوقوف فيها على أبرز ما توصلت إليه من نتائج.

وما كان لعملي هذا أن ينجز ويخرج إلى الوجود، إلا من خلال اعتمادي على مجموعة من المصادر والمراجع، حيث كانت عونا لي لإتمامه وأذكر منها: الأدب العام والمقارن لدانييل هنري باجو، إشكالية التيارات والتأثيرات في الوطن العربي دراسة مقارنة لسعيد علوش، صورة الآخر في التراث العربي لماجدة حمود، إشكالية الترجمة في الأدب المقارن لياسمين فيدوح، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي لأحمد أبو سعد، رحلة إلى الجزائر لتيوفيل غوتييه، ومن المصادر الأجنبية:

L'Abbé Edmond Lambert A travers l'Algérie histoire mœurs et légendes des arabes, Julien Charles André histoire de l'Algérie contemporaine, Claude Bontemps manuel des institutions algériennes de la domination turque à l'indépendance, Félix Labatut Notes sur l'Algérie Relizane, J. Zaccone De Batna a Tuggurt et au Souf, V. Largeau Le Sahara algérien Les déserts de l'erg.

وتأتي دراستي هذه كإضافة لما سبقها من دراسات والتي أذكر منها:

- صورة الجزائر في روايات ألبير كامو، مذكرة ماجستير، اعداد رعاش مبخوتة، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2008/2007.

- صورة الجزائر في أعمال ألفونس دودي، مذكرة ماجستير، اعداد سالم حفاصي، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 1430ه/2009م.

- النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين 7 و8ه، مذكرة ماجستير، اعداد لبنى لونانسة، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة، 2014/2013

- صورة الجزائر في مخيال الآخر لدى الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، أطروحة دكتوراه إعداد أغامير محمد، كلية الآداب واللغات، جامعة وهران، 2014/2013.

- أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه علوم، اعداد جميلة روباشن، كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، 2015/2014

- الأنا والآخر في أدب الرحلة –دراسة نقدية مقارنة–، اعداد مكي سعد الله، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، جامعة باتنة 1، 2017/2016.

- صورة الجزائر في عيون الرحالة، أطروحة دكتوراه اعداد يامنة جبور، كلية الآداب واللغات، جامعة تلمسان، 2018/2017.

- الآخر في كتابات جي دي موباسان، أطروحة دكتوراه، اعداد سامية دهيمي، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة 1، 2019/2018.

- الأنا الكولونيالي وصورة الجزائر في أعمال جي دي موباسان، أطروحة دكتوراه، اعداد أحمد العارف، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة الجلفة، 2020/2019.
- صورة الجزائر في كتاب "الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830م-1855م" لأبي العيد دودو، أطروحة دكتوراه، اعداد نجاة موس، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي مغنية، 2024/2023.

وككل بحث لابد من مواجهة بعض الصعوبات حتى يكتمل العمل، ومن الصعوبات التي واجهتني في طريقي خلال إعداد هذا البحث: قلة المراجع خصوصا ما تعلق بتاريخ الصورائية وأدب الرحلة، كذلك وقوفي على كم هائل من الرحلات الفرنسية، التي تناولت الجزائر خلال القرن التاسع عشر ميلادي، مما شكل صعوبة في اختيار عدد من الرحلات التي تتجلى فيها صورة الجزائر بشكل أدق، يضاف إلى ذلك عدم توفر المصادر البحثية بشكل مخطوط فجلها بحثت عنها في شبكة الأنترنيت.

رغم هذه الصعوبات التي واجهتني، إلا أنني تمكنت من اخراج هذا البحث في صورته النهائية التي هي بين أيديكم اليوم، على أمل أن يكون بحثا يغني مجال الصورائية وحقل الأدب المقارن في الجزائر، مع رجاء تعميق البحث لاستجلاء صورة الجزائر في رحلات فرنسية وغربية أخرى.

وما كان هذا كلّه ليتحقق، لولا فضل الله سبحانه وتعالى وتوجيهات الأستاذة الدكتورة رجاء بن منصور، التي شدّت عضدنا، وتوجيهات جملة من الدكاترة، فكل الشكر لمن كان سندا لي في هذا

الطريق، والشكر موصول لأعضاء لجنة المناقشة التي قبلت مناقشة وتحكيم وإثراء هذا العمل المتواضع

مدخل الصورائية مفاهيم وأساسيات

1. تعريف الصورة
   - 1.1 لغة
   - 2.1 اصطلاحا
2. ظهور الصورائية في الأدب المقارن وتطورها
3. أنواع الصورة في الأدب المقارن
   - 1.3 الصورة السلبية
   - 2.3 الصورة الإيجابية
4. وسائط تشكل الصورة في الأدب المقارن
   - 1.4 أدب الرحلة
   - 2.4 الاستشراق والاستغراب
   - 3.4 الترجمة
   - 4.4 وسائط أخرى

1.تعريف الصورة:

يعدّ علم دراسة الصورة الأدبية أحد المجالات الأساسية في مجال الأدب، التي لاقت اهتماما متزايدا من قبل الباحثين والدارسين خلال السنوات الأخيرة، ما أدى إلى تنوع تعاريف الصورة، وذلك تبعا لمجال البحث والدراسة، فقد تداخل مصطلح الصورة خلال سيرورته مع عديد العلوم، وهذا ما يكشف لنا عن صعوبة ضبط هذا المصطلح بتعريف واحد.

1.1. لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (ص، و، ر): " المصوّر هو الذي جمع جميع الموجودات ورتّبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة متفردة يتميز بها عن اختلافها وكثرتها. ابن سيده: الصورة في الشكل ... والجمع صُوَرٌ وصِوَرٌ وصُوْرٌ، وتصوّرت الشيء: توهمت صورته فتصوّر لي والتصاوير التماثيل، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته"[1]، فالصورة بهذا التعريف ارتبطت عند ابن منظور بالشكل أساسا، فهي تهتم بالظاهر المادي فقط دون غيره.

[1]– ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل، لسان العرب، م4، مادة (ص.و.ر)، دار صادر، بيروت لبنان، د.ط، محرم 1405هـ، ص473.

وأما التصوّر فهو: "مرور الفكر بالصورة الطبيعية التي سبق أن شاهدها وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته، مروره بها يتصفحها"[1]، وعليه فالتصوّر ما ارتبط بالعقل، أما التصوير هو ما عمل على اخراج الصورة في جانبها الفني، والتصوّر هو العلاقة الجامعة بين الصورة والتصوير.

ويقول الفيروز آبادي عن الصورة: "الصورة بالضم: الشكل، ج: صُوَرٌ وصِوَرٌ، كعنب، وصُورٌ...، قد صوّره فتصوّر، وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة"[2]، فمعنى الصورة عند الفيروز أبادي يرتبط بالنوع والصفة بدل الشكل والهيئة.

ويذهب الجوهري عند تناوله لمادة (ص. و. ر) إلى القول: "الصُورُ: القرن، ...، وتصوّرت الشيء: توهمت صورته فتصوّر لي، والتصاوير التماثيل"[3]، وهو هنا يذهب نفس منحى ابن منظور في تعريفه للصورة ذلك أنه ربطها بالشكل.

وفي المعجم الوسيط ورد في مادة (ص. ا. ر): " صوّره جعل له صورة مجسّمة، والشيء أو الشخص: رسمه على الورق أو الحائط ونحوهما بالقلم أو الفرجون أو آلة التصوير، والأمر وصفه وصفا يكشف عن جزئياته، تصوّر: تكونت له صورة وشكل، والشيء تخيله واستحضره في ذهنه"[4]، فالصورة هنا ما تمثلت سواء في مخيلة الإنسان أو واقعه.

---

[1] – صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ط، 1989، ص74.

[2] – الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة (ص. و. ر)، دار الحديث، القاهرة مصر، د.ط، 1429هـ/2008م، ص955-956.

[3]– الجوهري إسماعيل بن عماد، تاج اللغة وصحاح العربية ج2، مادة (ص. و. ر)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط4، 1990، ص717.

[4]– إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ج1، مادة (ص. ا. ر) ، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط2، 1960، ص528.

وورد في محيط المحيط أنّ "صوّره تصويرا: جعل له صورة وشكلا ونقشه، ...، وتصوّر الشيء تصورا توهم صورته فتصوّر له أي صارت له صورة، وشكل الصورة الشكل كل ما يصور مشبها بخلق الله من ذوات الأرواح وغيرها، فالصورة مائلة إلى شبه هيئة"[1]، فبطرس البستاني جعل الصورة مقصورة على الشكل وخصوصا كل ما فيه روح.

والصورة عند صاحب تاج العروس: " الصّورة بالضم: الشكل، والهيئة والحقيقة والصفة، (ج، صور)، ...، وقد صوّره صورة حسنة فتشكّل، وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة"[2]، وهنا جمع الزبيدي في معنى الصورة بين الشكل والنوع والصفة، وربط دلالة المصطلح بسياق توظيفه، فمن خلال السياق يتضح معنى الصورة.

ويعرّف إيميل بديع يعقوب الصورة الأدبية بقوله: "صورة الشيء هي رسمه نقلا وتقريرا، أو شبهه ومثاله تقريبا، ومحاكاة، والصورة إما مادية حسية، وإما معنوية تدرك بالعقل والتمثل الخيالي"[3]، وقد أضاف إميل بديع يعقوب شيئا بسيطا في تعريفه ميّزه عن البقية، إذ نجده ميّز بين نوعين من الصورة، فهي إما حسيّة أو عقلية.

إذن إنّ أهم ما يلاحظ من خلال التعريفات اللغوية الواردة عن الصورة أنها اتفقت على حصر المفهوم اللغوي لها بين الشكل والنوع والهيئة والصفة.

---

[1]– بطرس البستاني، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية، مادة (ص. و. ر) مكتبة لبنان، بيروت لبنان، د.ط، 1987، ص524.

[2]– الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس ج12، مادة (ص. و. ر)، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة، الكويت، د.ط، 1973، ص357–358.

[3] – إميل بديع يعقوب، ميشال عاصمي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، م1، (باب الصاد)، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1987م، 774.

2.1. اصطلاحا:

يعدّ مصطلح الصورة من المصطلحات الخصبة، التي لقيت اهتمام عديد الباحثين على اختلاف تخصصاتهم، ذلك أننا نجد لها حضورا في عديد ميادين الأدب العربي، فهي تارة في النقد، وتارة في البلاغة، وأخرى في الأدب المقارن، وهي تشكّل أحد حقول البحث الرئيسة فيه.

ومن النقاد الذين كان لهم اهتمام بهذا الموضوع أبوهلال العسكري إذ يقول في هذا الشأن: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، وإنّما جعلنا المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغا، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى"[1]، فالبلاغة لا تتحقق عند أبي هلال العسكري إلا إذا تحققت الصورة.

ويذهب الجاحظ عند تعريفه للشعر، إلى ضرورة الحرص على السبك، وحسن اختيار اللفظ وإقامة الوزن، ذلك ما يحقق صناعة الشعر، وحسن التصوير فيه[2]، أما عبد القاهر الجرجاني فتناول مصطلح الصورة بشيء من التفصيل، فقد ربط الصورة بالدوافع النفسية، يضاف إليها الخصائص الذوقية والحسية التي تزيد من عمق الصورة[3]، ثم أفاض حول الصورة بقوله: "واعلم أن قولنا الصورة

[1] –أبو الهلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، حلب سوريا، د.ط، د.ت، ص19.

[2] – ينظر: الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، كتاب الحيوان ج3، تح عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط2، 1358هـ/1965م، ص131.

[3] – ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: هـ ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول تركيا، د.ط، 1954، ص41.

إنّما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا"[1]، فالصورة حسب عبد القاهر هنا لا تقوم على أحد العنصرين وحده لفظ أو معنى، وإنما يشترط تكاملهما لتتكون الصورة ويتحقق المراد.

كما تناول المحدثون العرب كذلك مصطلح الصورة بشيء من الاهتمام، وفي هذا الشأن يقول علي صبح: "إن الوصول لمعنى الصورة ليس بالسير الهيّن، ولا السهل الليّن، ومن قال ذلك فقد احتجبت عنه أسرار اللغة وجمالها المكنون المستتر، وروحها المتجددة النامية، وليس لها–كما عند المناطقة– حدود جامعة ولا قيود مانعة"[2]. فالباحث يشير إلى صعوبة الاتفاق على مفهوم واحد للصورة، وما زاد الصعوبة هو كثرة التعاريف الواردة في هذا الموضوع رغم الاختلاف اليسير بينها.

ويذهب علي البطل إلى القول: "الصورة تشكيل لغوي يكوّنها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس، إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية، وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية"[3]، فهو يعد العالم المحسوس أهم مكون للصورة، ثم يساعده في ذلك الإطار النفسي والعقلي على تحقيق التكامل المنشود لهذه الصورة حتى تؤدي المعنى المراد.

ويذهب جابر عصفور إلى أن الصورة احدى طرق التعبير أو الدلالة، وتكتسي أهميتها من خلال المعنى الذي تؤديه، لكنها في مقابل ذلك لا تغير المعنى ذاته وإنما المراد والمتغير هو طريقة

---

[1] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط2، 1989، ص320.

[2] – علي صبح، الصورة الأدبية تاريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة مصر، د.ط، د.ت، ص05.

[3] – علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط1، 1980، ص30.

العرض والتقديم[1]، كما نجد الباحثة بشرى موسى صالح تربط الصورة بالجانب الشعوري لا العقلي، فهي ترى أن الأفكار تتولد من خلال الصور، ومردها إلى الحالة الشعورية للمؤلف، فكلما كان التأثير كانت الكتابة بشكل أكثر تعبيرا[2]. وقد حاول المنظرون لهذا المصطلح التركيز على المعنى وربطه بالسياق.

أما الصورة في الأدب المقارن فإنها تكتسي معنى مختلفا، ذلك أنها تعتبر ميدانا قائما بذاته له أصوله وقواعده الأساسية، وتتعدد تسميات هذا العلم لكنّ المدلول واحد فنجد علم دراسة الصورة الأدبية أو الصورائية أو الصورية أو الصوريات أو الصورولوجيا، وهذه الكلمة الأخيرة هي ما ورد إلينا في الأصل من الوسط الغربي، وهي ذات شقين الصورة وسبق لنا تناول معناها، أما لوجيا فأصلها اللاتيني (logia) ، وفي نهاية القرن الثامن عشر أدخلت هذه اللاحقة إلى اللغة الإنجليزية (logy) والتي تعني علم[3]، وأصبحت توضع في نهاية التسميات، فصار لدينا مصطلح Imagology ومعناه علم دراسة الصورة أو علم دراسة صورة الشعوب.

وفي هذا الشأن يرى باجو Pageaux أن الصورائية هي: "التعبير الأدبي أو غيره عن فجوة كبيرة بين نظامي الواقع الثقافي، وهكذا فالصورة الأدبية هي مجموع الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي،

[1] – ينظر: جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط3، 1992، ص392.

[2] – ينظر: بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 1994، ص 44

[3]– أديبة فرح وآخرون، القاموس إنكليزي – عربي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م، ص455

التي تتخذ في خضم التكوينين الأدبي والاجتماعي"[1]، ويعتبر هذا الباحث الصورائية: " فعل ثقافة، وممارسة إناسية (متعلقة بالإنسان) للتعبير عن الهوية والغيرية في الوقت نفسه (اللباس والمطبخ لغات رمزية أخرى) ضمن هذا المجال، وللصورة مكانتها ضمن العالم الرمزي، الذي نسميه خيالا والذي يسمى خيالا اجتماعيا، لأنه لا ينفصل عن تنظيم اجتماعي وثقافي"[2]، فهي ترتبط بالمجتمع في أساسها.

ويعتبر روني ويليك René Wellek الصورائية "ضربا من السوسيولوجيا أو التاريخ العام، سيكولوجيا قومية، سيكولوجيا قومية مقارنة، ودراسة في الرأي العام، واحياء للدراسات المادية القديمة وسيكولوجيا اجتماعية، وتاريخا ثقافيا ودراسة مقنعة للموضوعات"[3]، ويرى ويليك أنها ترتبط بالجانب النفسي والاجتماعي والتاريخي، فمن خلال الاستعانة بهذه العلوم يمكن للباحث في هذا المجال أن يقدم صورة متكاملة الجوانب عن الشعوب التي يقوم بدراستها.

وقد تختلف الصورة ذاتها حول الشعب الواحد، وذلك نظرا لما يوجد في هذا المجتمع من فوارق طبقية، "فالصورة التي يحملها الأرستقراطي الفرنسي مثلا عن الألماني غير الصورة التي يحملها ابن

[1] – دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر غسان السيّد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، د.ط، 1977، ص84.

[2] – المرجع نفسه، ص89.

[3] – عبد النبي ذاكر، الصورة، الأنا، الآخر، سلسلة شرفات ع43، منشورات الزمن، الرباط المغرب، 2014، ص26.

الريف، غير الصورة التي يحملها ابن المدينة، وذلك لاختلاف الثقافة والتربية، والإرث من الصور والأنماط التي توارثتها كل طبقة[1]، فنجد أن البيئة تلعب دورا أساسيا في تحديد النظرة للآخر.

ويرى إيف شوفريل Yves Chevrel:

"Le terme imagologie a été forgé dans la moitié du XIX siècle, pour regrouper les études portant sur les représentations de l'autre, de l'étranger. Récits de voyage œuvres de fiction, mais également discours critique sur les recherches, sur l'imaginaire d'une société dans la représentation de l'étranger hésitation et rejet d'autre part. L'imaginaire d'une part de l'exclusion et de rejet d'autre"[2].

فهو يرى أن العمل بهذا المصطلح كان خلال القرن التاسع عشر الميلادي، واستهدفت هذه الدراسة الآخر الأجنبي، من خلال الرحلات والأعمال الروائية، يضاف إلى ذلك الخطاب النقدي حول الأعمال الأجنبية، وبحسب ما أورده الباحث هناك مصادر تساهم في البحث في مجال الخيال، وقد حاول الباحث من خلال هذا التعريف، الإشارة إلى أهم المصادر التي تمكننا من معرفة الآخر عن كثب ثم دراسته.

ويتحدث إيف كلافيون Yves Clavaronعن الصورة فيقول:

[1]– Alain Montandon, Les caractères Nationaux dans la littérature Française, problème de méthode université Blaise pascal,2001, p29.

[2] – Yves Chevrel, La Littérature comparée, Presses Universitaires de France, p28.

"Yves Claverons répond de manière plus radicale ces deux aspects propres à l'image: la première est sa réflexivité : étudier l'image de l'autre revient aussi à étudier son écriture. Son histoire son espace. Ainsi cette réflexivité fait apparaitre dans quelle mesure la création littéraire, à travers l'étude imago logique, se voit inscrite dans un contexte littéraire et culturel. Mais le second aspect est le rapport ambivalent de l'image avec un référent"[1].

فيرى إيف كلافيون أن دراسات صورة الآخر يشمل كذلك دراسة أسلوب الكتابة لديه، كذلك تاريخه وفضائه، يتم ذلك بمراعات السياق الأدبي والثقافي، هذا ودون إغفال للعلاقة بين الصورة ومرجعها.

ويتناول جان مارك مورا Jean-Marc Mouraالصورة بالتعريف من خلال قوله: "مجموعة دراسات الأدب المقارن المخصصة لدراسة تمثلات الأجنبي، ولها موضوعان متميزان للدراسة: سرود الأسفار (الكتابات الرحلية) والأعمال الروائية التي تتناول الأجنبي"[2]، من خلال هذا التعريف نجد أن الباحث يحصر مجال دراسة الصورة، إما في أدب الرحلة أو الأعمال الروائية، فهو ذو نظرة فرنسية تجعله ينفي مجالات الإبداع الأخرى التي يمكن أن تتجسد من خلالها الصورة.

---

[1] – Bernard Franco, La littérature comparée. Histoire, domaine, méthode, Armand Colin, 2016, p181.

[2] –عبد الرحمن بوعلي، الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، مجلة دراسات وأبحاث، المجلد 12، ع2، جامعة الجلفة الجزائر، أفريل2020، ص80

يتناول سعيد علوش الصورة، فيذكر أنها ذات علاقة وثيقة بالأدب المقارن، تهتم في المقام الأول بالكشف عن صورة الشعوب في نظر شعوب أخرى، تستلهم محتواها من أدب الرحلات كما أنها لا تنفك عن العلوم الإنسانية إذ لها ارتباط وثيق بعلم النفس وعلم الاجتماع[1]، ويضيف قائلا عن الصورة: "تمثيلية فردية أو جماعية، حيث تدخل عناصر ثقافية وعاطفية، موضوعية وذاتية، فلا أحد من الأجانب يرى شعبا كما يرى به هذا الشعب نفسه، أي أن العناصر العاطفية تتغلب على العناصر الموضوعية، بحيث تنتقل الأخطاء بسرعة وبأحسن ما تنتقل به الحقائق"[2]. فتصور الشعب لشعب آخر مهما بلغ في الإلمام بثقافته ومعارفه، إلا أنه يظل قاصرا عن إدراكه، ذلك أنه عند دراسة الشعوب الأخرى قد يحضر الجانب الموضوعي فقط، أما عند دراسة الشعب لنفسه نجد مزيجا بين الموضوعية والعاطفة والإحساس.

ودراسة الصورة عند علوش يكون بعد رؤية سلبية أو مزيفة عن أمة ما، والغرض منها تصحيحها وإعادة بعثها بما يتناسب والحقيقة، ويُعنى حقل الصورولوجيا أساسا بالصور الخاطئة في شهادات أدب الرحلة، وفيها تتداخل العلوم الإنسانية ممثلة في الدرس السيكولوجي والسوسيولوجي مع الأدب[3]، فالصورة تستعين بالدرس السيكولوجي لتكشف عن الجوانب النفسية المحيطة بعينة الدراسة، وتستعين بالدرس السوسيولوجي لدراسة أوضاع شعب ما قبل إصدار الحكم عليه، مع الاستعانة بالتاريخ وبعض المناهج البحثية.

---

[1] – سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1، 1405هـ/1985م، ص373.

[2] – سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات في الوطن العربي، دراسة مقارنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1986، ص147.

[3] –ينظر: سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص137.

فالصورائية أسلوب لدراسة صورة البلدان الأخرى والشخصيات الأخرى، في أدب أديب ما أو عصر ما أو مكان ما، ويهتم بصورة الآخر في ثقافة الأنا كما يهتم بصورة الأنا في صورة الآخر. وهي تعني دراسة الصورة بين الثقافات[1]، كما أنها تعمل على كشف واقع الشعوب خلال مرحلة ما، اعتمادا على الرؤية الذاتية للباحث. فهي إذن ليست نظرية أو مدرسة أدبية جديدة، وإنّما طريقة لقراءة النصوص، وبعبارة أخرى مجموعة من الإرشادات لقراءة صورة الآخر في النصوص، وترتبط الصورائية بالعلوم الأخرى خاصة علم الاجتماع والتاريخ ارتباطا وثيقا، لأن دراسة الصورة المطروحة في النصوص تحتاج إلى إدراك الظروف التاريخية والاجتماعية لفترة كتابة النصوص[2]. فهي منهج يمكن للباحث أن يسير عليه وفق خطوات معينة، مع الأخذ بعين الاعتبار الإطار الاجتماعي والتاريخي للعينة المراد دراستها، فالصورة لا يمكن أن ترتسم بشكل واضح بمعزل عن بعض العلوم الأخرى.

ودراسة الصورائية في الأدب المقارن، تتخذ شكلين هما: دراسة صورة الشعوب في آداب الأمم الأخرى أو دراسة صورة بلد في أدب كاتب بلد آخر.

وبالنظر لما سبق نقول: إن الصورائية Imagologie أحد فروع الأدب المقارن، لقيت رواجا في فرنسا باعتبارها نقطة الانطلاق، ثم توسعت إلى بقية مناطق العالم، وهي تعتمد على كتب الرحلات والمسرحيات والقصص والروايات من منظور فرنسي، يضاف إليها كل وسائل التعبير البشري الحديثة، التي يمكن أن تحيلنا إلى اكتشاف صورة الآخر التي تجسدت في ابداعاتها، نذكر من ذلك

[1] – مسعود شكري، صورة الآخر الإسرائيلي في رواية المتشائل لإميل حبيبي، مجلة إضاءات نقدية بين الأدبين العربي والفارسي، م7، ع26، جامعة آزاد الإسلامية إيران، حزيران 2017، ص89.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص90.

اللوحات التشكيلية، الأفلام...الخ، فبعد دراسة هذه العينات من جميع النواحي يتم تقديم صورة تكون إما سلبية أو إيجابية.

2. ظهور الصورائية في الأدب المقارن وتطورها:

تعود البدايات الأولى لنشأة الصورائية إلى القرن التاسع عشر ميلادي، وتعتبر الأديبة مدام دي ستال Madame de Staël النواة الأولى لبعث الحياة في هذا المجال، فبعد زيارتها ألمانيا خلال رحلتين الأولى كانت ما بين (1803م-1804م) والثانية كانت ما بين (1807م-1808م) كتبت مؤلفا بعنوان عن ألمانيا "De l'Allemagne"، حاولت إصداره في بلدها الأصلي لكنّه لقي معارضة نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte، وأمر بإتلافه عام 1810م، ليصدر بعد ذلك في لندن عام 1813م، ثم في فرنسا عام 1814م[1]، وقد حاولت مدام دي ستال من خلال كتابها هذا نقل صورة مغايرة عن تلك الصورة التي عهدها الفرنسيون، خصوصا بعد مخالطتها هذا الشعب الذي كان في نظر المجتمع الفرنسي شعب فض غير متحضر، كما حاولت في هذا الكتاب رسم جزء من طبيعة هذا البلد، فتحدثت عن نهر الراين والغابة السوداء، كما وصفت أخلاق المجتمع الألماني، من ذلك الطيبة والصدق لتعرج على الجانب الفكري والأدبي.

ومن خلال هذا الكتاب قامت " بتصحيح ما في أذهان الفرنسيين من صورة مشوهة عن الألمان وبلادهم وثقافتهم، لهذا بإمكاننا أن نعدّ هذا الكتاب بداية لما أصبح يعرف بالدراسة الأدبية

[1]- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2010، ص09.

للآخر"[1]. فبفضلها رسمت الصورة الحقيقة المتعددة الجوانب لدى الشعب الفرنسي عن نظيره الألماني، مما أفضى إلى ضرورة الانفتاح على الآخر ومعايشته قبل اصدار الحكم عليه.

وقد شكلت فرنسا مهد دراسة الصورائية، فنجد جون ماري كاريه Jean-Marie Carré في 1947 قد أخرج كتابا يحمل عنوان "Les écrivains Française et le mirage Allemand"، ثم نجد ماريوس فرانسوا غويار Marius-Fraçcois Guyard قدّم ضمن سلسلة ماذا أعرف سنة 1951م دراسة بعنوان "الأجنبي كما نراه"، حاول من خلالها الإلمام بعديد المواضيع ذات العلاقة بالصورائية، بالاستناد إلى عديد الدراسات، ومشخصا أوجه القصور في بعضها لارتباطها بالتاريخي والسياسية[2].

وخلال الفترة الاستعمارية برزت الصورائية بشكل ملفت، فقد اعتمدت بشكل أساسي على أدب الرحلة ممثلا في بعض الرحلات التي قام بها الفرنسيون إلى البلدان المستعمرة في إفريقيا، فهناك وجدوا عالما مختلفا عن عالمهم، سواء من ناحية الطبيعة أو العلاقات الاجتماعية والثقافية، فأسهبوا في وصفه، مما أدى إلى رسم صورة عن هذه الشعوب وفق النظرة الفرنسية التاريخية، التي ترى في نفسها مصدر القوة والسلطة، ونجد رونيه ويلك قد أعاب دراسة جان ماري كاري حول الكتاب الفرنسيين

[1] –ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، د.ط، 2000، ص109

[2] – ينظر: شهرة بلغول، صورة اليهودي في الرواية المغاربية المعاصرة، دار الخيال للنشر والترجمة، الجزائر، د.ط، 2021، ص12.

والسراب الألماني، ذلك أنها جاورت تخصصي علم النفس وعلم الاجتماع، فقد كان لهما بالغ الأثر على هذه الدراسة[1]، فهو يرى أنها لم تتنصل بعد من الدراسة التاريخية.

وبعد ظهور المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، والتي أحدثت قطيعة مع أسس سابقتها المدرسة الفرنسية توسع مفهوم الأدب المقارن ومجال بحثه "فتجاوز الحدود الوطنية واللغوية، وهو يستند في ذلك على حقول مثل الأنثروبولوجيا المقارنة، ونظرية الخطاب، ونظرية التلقي والدراسات الترجمية"[2]، وبعد توسع مفهوم الأدب المقارن وفق النظرة الأمريكية، لقيت الدراسات الصورائية بعض الانتقاد فقد رأى بعضهم أنها حادت عن طريقها، ذلك أنها أوغلت في التاريخ الأدبي وعلم النفس أكثر من اهتمامها بأدبية النص الأدبي.

3. أنواع الصورة في الأدب المقارن:

إن المهمة الأساسية للصورة هي الكشف عن الآخر وعالمه، هذا الكشف الذي يكون وفق رؤية فردية ذاتية، تجعل الأنا تفسر ما تلاحظه وتعايشه مع الآخر وفق معتقداتها الذاتية، فهي أحيانا إما أن تجاور هذا الأنا وإما أن تستعلي عليه، لذلك كثيرا ما تتباين الصور حول الموضوع الواحد، فقد نجد كاتبا تناول بلدا ما فأحاط بكل جوانبه ورسم صورة متكاملة عنه، أدت إلى استقباله بشكل إيجابي، وقد نجد أديبا آخر رسم صورة لنفس البلد، لكنه أغفل بعض زوايا الدراسة فتكونت صورة

[1] – ينظر: محمد أنقار، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية صورة المغرب في الرواية الاسبانية، مكتبة الإدريسي للنشر والتوزيع، تطوان المغرب، ط1، 1994، ص50.

[2] – مايكل باين وآخرون، قاموس النظرية الثقافية والنقدية ج1، تر هيثم غالب الناهي وآخرون، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2020، ص232

سلبية عن هذا البلد، ووفق هذا الأمر يمكننا التمييز بين نوعين أو نمطين للصورة في الأدب المقارن هما على التوالي:

1.3. الصورة السلبية:

إن الصورة السلبية تحكمها نظرتا التعالي و الدونية، ومن دوافع تكوّن الصورة السلبية حالات العداء التي تميز شعوب العالم منذ الأزل، ففي "حالة العداء للآخر تؤدي العلاقات العدائية بين الشعوب إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر (المعادي)، فنظرا للمشاعر العدائية وسوء الفهم لن يسمح بسماع صوت آخر، فيبرز الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى من الثقافة المحلية"[1]، ونتيجة لهذا العداء الذي يكون في غالب الأحيان مصدره الحالات الاستعمارية التي عانت منها البلدان الضعيفة، ترتسم صورة سلبية عند كلا الطرفين، وكحتمية لهذا الوضع تسعى الأمة لتبرير هذه الصورة السلبية، والإحاطة بها من عناصر شتى بغرض كسرها، مما يؤدي بها إلى اختزال العدو في صورة نمطية يجري التعبير عنها بكثافة ودقة[2]، ونتيجة لحالة العداء يحاول المصور المقارن زعزعة مكانة الآخر من خلال تصويره في مرتبة أدنى من الأنا مما يزيد من مشاعر الحقد والكراهية بين الأنا المصورة والآخر المصوّر.

كذلك غياب الموضوعية في معالجة الظواهر المصورة يعد من أبرز أسباب الصور السلبية عن الآخر، وهذا ما ميز كثيرا من كتابات المستشرقين والرحالة خصوصا إلى البلاد العربية، وفي

---

[1] – الشيخ شبر الزهيري، الصورة الأدبية في صراع الأنا والآخر الخصم في فكر علي بن أبي طالب، ص10–11 https://almohsinlibrary.com/، أطلع عليه بتاريخ: 2022/11/15 على الساعة: 10.00

[2] – ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ، الأدب المقارن، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان الأردن، ط1، 1996م، ص210.

هذا الشأن يقول رائد الاستشراق إدوارد سعيد: "إن الشرق الذي يتحدث عنه المستشرقون غير موجود، فهو شرق من صنع المخيلة الغربية، وإذا كان الحديث عن سلبية هذه الصورة معتذرا فإن حديثا عن الرحلات التي قام بها الغربيون إلى الوطن العربي سيفضي إلى بناء ذلك التصور ولو بشكل جزئي"[1]، فالمستشرق أو الرحالة الغربي ينظر إلى العالم العربي وفق قناعاته وفكره، فهو غالبا لا يعتبر الشرق مكانا للحضارة، وإنما يراه ذلك المجتمع الهمجي البربري الذي يحاول أن ينقل إليه حضارته المتقدمة حتى يجعلها مزية يذكّره بها كلما سنحت له فرصة.

وقد بزرت عديد الرحلات التي ساهمت في تكريس هذه الصورة السلبية من ذلك: كتاب "The Real Algeria" من تأليف الانجليزية M. D. Stott، نُشر عام 1914، ترجمه عبد الله الركيبي إلى "رحلة الجزائر على حقيقتها"، وقد حاولت الرحالة في كتابها هذا تناول البعد الاثنوجرافي والتاريخي للجزائر في أوائل القرن العشرين، فنجدها من خلال المقدمة قد حددت طبيعة الاستعمار الفرنسي الذي رأت أنه يختلف عن البريطاني في جوهره، فالأول استيطاني أما الثاني فانتدابي، كما تناولت موضوعات تخص الثقافة والمجتمع والعادات في تلك الفترة، ورصدت مختلف المظاهر التي عانى منها المجتمع الجزائري في تلك الفترة، ولكن ليس كمخلفات للاستعمار وإنما كمظاهر سلبية متجذرة في العرب[2]، ويتضمن الكتاب 26 لوحة فوتوغرافية التقطتها بنفسها، وكأنها حاولت أن تجعل هذه الصور شاهدا على ما قامت برصده.

[1] – يوسف بكار وخليل الشيخ، الأدب المقارن، ص211.

[2]– Open Library, The Real Algeria par M. D. Stott, https://openlibrary.org/, consulté le: 30/10/2022 à 17:30

نجد كذلك رحلة "الجزائر اليوم " للمؤلف غوردون كاسيرلي Gordon Casserly .نُشر هذا الكتاب عام 1923، ويقدم وصفًا مفصلاً للجزائر في تلك الفترة، فذكر تاريخها وشعبها وثقافتها، مع خرائط وصور فوتوغرافية توضح الحياة في الجزائر آنذاك[1]، ركز فيه كذلك على ذكر تفاصيل دقيقة عن الصحراء الجزائرية، بغية ايضاح مدى معاناة أهل الصحراء، ومدى قساوة الطبيعة هناك، فتتشكل تلك الصورة السلبية عن المنطقة وأهلها.

ونجد غي دي موباسان Guy de Maupassant من خلال بعض أعماله الأدبية، يحاول التقليل من قيمة كل ما هو جزائري، لا لشيء سوى تكريسا لتلك النظرة الاستعلائية التي يعتقدها العرق الغربي بالنظر لبقية الأجناس الأخرى، ومن الشواهد على ذلك يقول خلال حديثه عن الشيخ بوعمامة: "إنّه ذلك المهرج الشيخ الذي أفزع جيشنا في إفريقيا، ثم اختفى تماما حتى رحنا نشك في وجوده، على أي حال لم يكن هذا الجوال سوى رئيس عصبة قليلة العدد دفعتها المجاعة للثورة، لم يقاتل هؤلاء إلا لسلب صوامع القمح أو نهب القوافل"[2]، فمن خلال هذا التعبير يحاول احتقار أحد الرموز الثورية الجزائرية التي شكلت شوكة في حلق فرنسا المستعمرة، كما يحاول التقليل من دوره وجهده في مقاومة الاحتلال، فيذكر أن دافعه إلى الثورة التي قام بها هو الجوع لا الرغبة في تحرير الوطن وإن زواله يؤدي إلى زوال تمرده.

---

[1]– Abe Books, Algeria To-Day Gordon Casserly, https://www.abebooks.com/, consulté le: 30/10/2022 à 18:15.

[2] – غي دي موبسان، رحلة إلى بلاد الشمس، تر نادية عمر صبري، دار ورد للنشر، دمشق سوريا، ط1، 2007، ص23

كما أن تعليقاته على سلوكيات المرأة الجزائرية وطريقة تفكيرها كان من خلال استعمال عبارات ترمز لدونيتها، يقول موباسان: "يتربع المزابي في دكانه الصغير وسط بضاعته المصفوفة حوله بعناية فائقة، يبدو وكأنه لا يرى لا يعلم ولا يفهم على يمينه سيدات اسبانيات يتناجين مثل الحمائم، وإلى اليسار منه سيدات عربيات يخرجن أصواتا كمواء القطط"[1]، فبهذه العبارة يعلي موباسان من قيمة المرأة الأجنبية ذات الأصل الأوربي، بينما يحتقر ويحط من قيمة المرأة العربية والجزائرية خصوصا، إذ شبه اللهجة الجزائرية ولأنه لم يفهمها بمواء القطط، فهذا تجسيد للنظرة الدونية للآخر .

وبعض المستشرقين كذلك تتجسد لديهم الصور السلبية، من ذلك ما تبناه كرومر Cromer إذ يقول: "يظهر الشرقيون والعرب سذجا، غافلين، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة، مجبولين على حب الإطراء الباذخ، والدسيسة والدهاء، والقسوة على الحيوانات، والشرقيون لا يستطيعون السير على الطريق أو الرصيف (فعقولهم الفوضوية تعجز عن فهم ما يدركه الأوربي البارع بصورة فورية، والشرقيون عريقون في الكذب، وهم كسالى وسيئوا الظن، وهم في كل شيء على طرف نقيض من العرق الأنجلو- ساكسوني في وضوحه، ومباشرته ونبله"[2]، فبعض المستشرقين رأوا في هذا الشرق كيانا مظلما لا يفقه شيئا من متطلبات التحضر، وما زاد الأمر سوء تلك النظرة الاستعلائية الملازمة لهم، إذ يرون في أنفسهم القدوة والمثل الأعلى، فهذه الصورة السلبية التي تم رصدها، تساهم في تأييد فكرة فرنسا الاستعمارية التي ادّعت نشر الرقي والحضارة وتحسين الجانب المعيشي في الجزائر، وهوما تحقق عكسه بالنظر للسياسة التي انتهجتها في الجزائر.

[1] – غي دي موباسان، المصدر السابق، ص 105

[2] – إدوارد سعيد، الاستشراق المعرفة. السلطة. الانشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان، ط2، 1984م، ص 70.

ويقول موباسان عن الجزائريين: "من جهة أخرى يقضون حياتهم في سرقة وغش وإطلاق النار على بعضهم بعضا، غير أنهم يخفون ما أمكن من الأشياء التي فعل البارود بها فعله"، فصورة الجزائري تتسم في نظر الكاتب بالهمجية والدونية"[1]، فالرحالة كان دائما يحاول الحط من قيمة كل ما هو جزائري، من جهة أخرى نجد أن المستعمر قد عمد إلى رسم صورة فولكلورية ومقيتة عن الجزائري بصفته إنسانا بدائيا متوحشا تحكمه الغرائز والنزوات، وهي صورة تعكس تفكير المحتل ونظراته العنصرية، هذه النظرة أفرغت الإنسان الجزائري من كينونته، بحيث لا نلمس فرقا بينه وبين الأحجار والأشجار والحيوانات[2]، هذا كله أدى إلى زيادة التعتيم عن القضية الجزائرية كونها قضية تصفية استعمار.

كما نجد أن صورة العرب قد تجلت في كثير من الأعمال التلفزيونية، وغالبا ما كانت تتسم بالسلبية، فيظهر العرب كأوغاد وتجار رقيق وغدّارين ومتعصبين ومتعطشين للدماء في فيلم الريشات الأربع عام 1939م، كما حاول فيلم الخرطوم 1966م أن يقدم الإنجليز في صورة إنسانية بينما صور قساوة وعدم إنسانية العرب، وقد حاولت البرامج التلفزيونية الغربية إظهار العرب في أسوء الصور من ذلك: البدوي، الآخذ بالثأر، القاسي، الجبان، المنحط، المهووس، المبتز، وفي المسلسل

[1] – أحمد العارف، الأنا الكولونيالي وصورة الجزائر في أعمال جي دي موباسون، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة الجلفة الجزائر، 2019–2020، ص 200.

[2] – الطيب بودربالة، صورة الجزائر في الرواية الفرنسية الحديثة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م2، ع2، جامعة الوادي الجزائر، مارس 2010، ص8

التلفزيوني "فيغاس" يظهر العرب كشيوخ أشرار جبناء، ويظهر الفيلم كذلك مدى قبح أحد الشيوخ العرب وخموله[1].

إذن يمكن القول أنّ الصورة السلبية تتشكل عموما نتيجة احتقار الأنا للآخر، ورؤيتها المتعالية التي تجعل من الآخر دائما في حالة اللا أمن واللا تحضر واللا استقرار، وتجعل نفسها النموذج الواجب الاقتداء به، فهي ترى في نفسها درجة الكمال.

2.3. الصورة الإيجابية:

إن التعرض للآخر بالدراسة كثيرا ما يكون من باب الإعجاب، وهذا ما يساهم في تشكيل صورة إيجابية عنه، ونجد أن هذا النوع من الصورة قد تجسد بشكل كبير في كتابات العرب بعد رحيلهم إلى بلاد الغرب، أو من خلال تناولهم هذه البلاد في أعمالهم الأدبية الأخرى على غرار الرواية والقصة، فهذا ادجار جلاد يقول: "في مدينة باريس وحدها يتحرر الفكر الإنساني، ويتجرد عن الأشكال والصبغات التي تفرغها عليه الخصومات القومية، والعداوات الدينية ...، هناك يشعر المرء أنه قد تسامى على مستوى الخلافات، فلا شيء غير أفراد من البشر قد خلقوا من طينة واحدة، ولهم عقل واحد، تجمعهم غاية واحدة قد ملكت عليهم مشاعرهم، وقامت عندهم مقام العبادة، هي الولع بالعلم والفن، والآداب ...، لقد بلغ التسامح والحرية في باريس أقصى حدودهما، ذلك أنه ليس ثمة غير عالم واحد، هو عالم الفكر المجرد عن القيود، فيه يلتقي الناس جميعا أصدقاء متآخين"[2]، فباريس

[1] – ينظر: إدريس بولكعيبات، نادية بولكعيبات، الصورة النمطية السلبية عن المسلمين لدى الغرب، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، م1، ع1، جامعة باتنة 1 الجزائر، ديسمبر 2016، ص18-19

[2] – أبو المعاطي أبو النجا وآخرون، الغرب بعيون عربية ج1، دار الكتاب العربي، الكويت، د.ط، 2005، ص58.

حسبه تشكل مبدأ الحضارة والرقي، وعلى كل من أراد أن يواكب التقدم أن يعايش أهلها، فهناك تتوفر مقومات الحياة العصرية التي يحلم بها أي عربي.

ومعظم الرحالة العرب خلال العصر الحديث الذين كتبوا عن مدينة باريس تجلت في كتاباتهم الصورة الإيجابية[1]، ونجد: رحلة رفاعة رافع الطهطاوي إلى فرنسا، فقد أقام بباريس في الفترة 1831-1836 إذ تم إرساله في رحلة علمية، وبعد عودته ألف كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز، حيث قدم فيه صورة إيجابية عن مدينة باريس، وقد كان الربط عنده بين باريس وفكرة التقدم ذا أبعاد عميقة، ونجد من الذين تناولوا هذه المدينة كذلك طه حسين من خلال "الأيام" وفي "من بعيد"، كما تجلت عند توفيق الحكيم في عمله "زهرة العمر"، وزكي مبارك في ذكرياته، وبدت باريس في هذه الكتب نقطة انطلاق نحو مشروع حضاري يمثل التقدم وتشكل فيه باريس بما تجسده من مبادئ فكرية نموذجا يحتذى به، كما نجد من الرحلات العربية إلى البلاد الغربية وتحديدا باريس: رحلة فرانسيس مراش، والذي سافر إلى باريس سنة 1866م، وأقام بها لمدة سنتين، وسجل رحلته في كتابه "رحلة باريس"، كما كتب محمد كرد علي "غرائب الغرب" بعد رحلة قادته إلى الضفة الأخرى للمتوسط سنة 1910م[2].

ويرى طه حسين عميد الأدب العربي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحَب منها وما يكره، وما

[1] – يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، ص 213.

[2] – المرجع نفسه، ص 213.

يحمد منها وما يعاب[1]، فطه حسين يرى أن التخلف عن الركب الغربي يجعلك تلازم تلك الظلمة التي كنت تعيش فيها، ولا خلاص للعربي إلا من خلال احتكاكه بالغربي.

كذلك نجد ممن تكونت الصورة الإيجابية في أعمالهم عن الغرب أحمد فارس الشدياق من خلال كتابيه " الساق على الساق في ما هو الفارياق وكشف المخبأ عن فنون أوربا"، ذلك أنه خلال "حديثه عن مالطة أو فرنسا أو إنجلترا يقابل بين الثقافتين الغربية والشرقية، ويضع بين السطور خطته الإصلاحية، ودعوته إلى الحرية، ووجهته في التثقيف، والتنوير والإرشاد الرامية إلى توعية الرأي العام"[2]، كما وصف خلال تقديم كتابه، فمن خلال حديثه عن تنقلاته إلى بلاد الغرب المختلفة، يحاول أن يرسم منهجا للعرب يسيرون عليه حتى يتكمنوا من اللحاق بذاتهم وإدراكها قبل أن تغرق في ظلام أكثر.

ويذهب حسين فوزي من خلال كتابه سندباد إلى الغرب بقوله: "الثورة الفرنسية، وإمبراطورية نابوليون، والجمهورية الثالثة، والرابعة، عظيمة في حبها للعلم والتعليم، لا أعرف في تاريخ العالم ثورة كانت ثورة العلم والمعرفة، ومنشآتها كانت جلها للعلم والتعليم، مثل الثورة الفرنسية، ولم يكن نابوليون في صميمه إلا ابنا لتلك الثورة"[3]، إذن ففوزي يرى أن وجه الحضارة المكتمل قد تجسد في فرنسا دون غيرها، وعلينا أن نجعل هذه الثورة وما يتبعها طريقا نسلكه إذا أردنا أن نواكب عالم اليوم، نظرا لما فيه من تغيرات فلولا احتكاكنا بفرنسا ما تمكنا من ادراكها.

[1] ينظر: طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة مصر، ط3، د.ت، ص173.

[2] أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوروبا، تق: عصمت نصار، دار الكتاب المصري، القاهرة مصر، د.ط، 2012، ص 53.

[3] –حسين فوزي، سندباد إلى الغرب، دار المعارف، القاهرة مصر، ط3، د.ت، ص176.

وفي رواية تركي في باريس لأحمد مدحت أفندي نجده يقدم وصفا دقيقا لبعض الأماكن، كالقصور والمكتبات وحتى وسائل النقل كالباخرة، مما يدل على إعجابه بها، وقد أسهب في وصفها بشكل تفصيلي، من ذلك حديثه عن أحد المكتبات "تقع هذه المكتبة شمال حديقة روايال بالاس على الضفة الأخرى لنهر السين عند منزل رقم 58 بمدخل شارع ريتشلو، تحدها عدة أماكن من الجهات الأربعة وهي: بوتيت شامب، شوارع فيفينا، ريتسليو وكولبرت. تضم بداخلها جزيرة كبيرة عند الدخول إلى الصحن، يتم الصعود بواسطة درج على يمين المكتبة، تحوي هذه المكتبة قرابة خمسة ملايين كتاب مطبوع، مائتي ألف كتاب، ثلاثمائة ألف أداة جغرافية ما بين خرائط ومخططات، لذا قعدت مكتبة فريدة ليس في باريس وحدها إنما على وجه الكرة الأرضية"[1]، فهذا الوصف جعل من منشآت باريس على اختلافها مكانا يستحق الزيارة، خصوصا حينما يتم ربط هذه الأماكن بمبادئ شريفة كالحرية والتعلم ومناهضة الجهل.

كما نجد أن الرحلات إلى البلاد العربية قد جسدت في بعض محطاتها ذلك الذهول والاعجاب الذي بدا على محيا أصحابها عندما جابوا طبيعتها الخلابة، من ذلك حديث الرحالة الألماني هابنسترايت Habenstreit عن الجزائر بعد زيارتها إذ يقول عن المنازل: " أما منازل المدينة فهي منتظمة وبناؤها جيد بالنسبة لنوعيتها، ويحرص في بنائها على أن يكون كل جزء من المنزل منفصلا عن الأجزاء الأخرى ولاسيما الأجنحة الداخلية، حتى تظل النساء في معزل، بحيث لا يمكن أن يراهن

[1] ينظر: منى حسين السيسي، البناء الفني من خلال روايتي "تركي في باريس" (Paris'te Bir Türk) للكاتب التركي "أحمد مدحت أفندي" و"الحي اللاتيني" للأديب اللبناني "سهيل إدريس" (دراسة مقارنة)، مجلة المعهد العالي للدراسات النوعية، م4، ع 10، مصر، يوليو2024، ص63.

أحد"[1] هذا الوصف يوحي بأن الجزائري عرف العمارة وفن البناء قبل زيارة الغربي له، وقد كان لعمارته طابع خاص يراعي من خلالها الحفاظ على العرض والشرف عكس ما روّجه بعض الرحالة الآخرين.

وخلال رحلة تحمل عنوان "بسكرة الزيبان" للرحالين ماركايو داميريكو Marcayu d'Americo وجورج هارتز George Hartz، حاولا الوقوف على جمال منطقة طولقة فيقولان: "طولقة عاصمة الزيبان تظهر أحيانا وكأنها جزيرة طويلة خضراء في وسط حوض أشقر، هنا البساتين أعمق وأغنى والأشجار أكثر قوة وبهجة وأكثر صلابة أيضا، بين أصابعها الحادة الخضراء موهبة من السماء، تبدو كأنها تنزل إلى قلبها لنزع الحلقة الذهبية من فواكها الناضجة التمرة الطيبة الأحسن عالميا (دقلة نور) السميكة الشقراء، اللذيذة الذوق جدا ومن نوعية نادرة"[2]، ملامح الإعجاب عند الرحالين واضحة من خلال الوصف الدقيق، وإضافة إلى عقد التشبيهات حتى يزيدا من دقة الوصف، ويبينا جمال الموصوف وما أحدثه في نفسيهما من أثر.

إن الصورة الإيجابية للآخر في الأدب المقارن تجلت في مؤلفات الأنا العربية، إذ كانت إعجابا وانبهارا بكل ما يشكل الآخر الغربي، سواء من طبيعة أو ثقافة أو حضارة، وذلك بغية مواكبته ومجاراته أحيانا، بمقابل ذلك تقتصر في كثير من الأحيان هذه الصورة الإيجابية لتشمل الجانب الطبيعي فقط، إذا كانت من الأنا الغربي نحو الآخر العربي هذا ما كان سائدا في عصور سابقة، غير أن هذه الصورة توسعت في الآونة الأخيرة لتشمل اعجابا ببعض المظاهر الأخرى كذلك.

[1] – ج، أو، هابنسترايت، رحلة العالم الألماني: ج، أو، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/ 1732م)، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، د.ط، د.ت، ص37.

[2] – عبد القادر بومعزة، بسكرة في عيون الرحالة الغربيين ج1، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة الجزائر، ط1، 2016، ص41.

4. وسائط تشكل الصورة في الأدب المقارن:

تبرز الصورائية في الأعمال الأدبية المختلفة بمساهمة عديد الوسائط، حيث تشير بندكت زوث إلى أن الصورة تتولد في غالب الأحيان من أحكام جاهزة، تحمل في طياتها تشويها للقيم من خلال الرحلات والشفوي والجرائد والإذاعة والتلفزة والأفلام السينمائية والرسوم المتحركة، إنها تلعب دورا جوهريا[1]، إذن فوسائط تشكيل الصورائية انطلقت من الرحلة التي تعتبر المنبع الأول لهذا المبحث الهام في الأدب المقارن، ثم توسعت المصادر وازدادت كثافة بتقدم العصر، فالاختلاف التاريخي والاجتماعي والثقافي والعقائدي ساهم في بروز ثنائية الأنا والآخر، حيث ساهم كل منهما في رسم صورة الآخر وفق رؤيته الخاصة، وبمساعدة جملة من الوسائط التي أبانت عن إيديولوجيات الآخر ومن هذه الوسائط نذكر:

1.4. أدب الرحلة:

يعتبر أدب الرحلة أحد الروافد الأساسية التي تبنى عليها صورة الآخر، وهو جنس أدبي قديم يجمع فيه الرحالة مشاهداته وانطباعاته عن الآخر، "فالرحلة تمثل انتقالا حقيقيا من موطن إلى آخر، تحمل في طياتها إضافة إلى المغامرة والمخاطرة، كثيرا من التجارب والمشاهدات"[2]، هذه المشاهدات يسعى الرحالة إلى ترجمتها في مؤلف، يساعد الآخر في تكوين صورة عمّا تم رصده فيه، ويعتمد الرحالة في هذا الجنس الأدبي على الوصف، فيحاول الإلمام بكل ما تقع عليه عينه، سواء وقع هذا

[1] – بليفة ميلود، صورة الغرب في المخيال الثقافي والاجتماعي للشباب الجزائري، طلبة جامعة تلمسان نموذجا، أطروحة دكتوراه، تخصص أنثروبولوجيا، شعبة الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان الجزائر، 2013–2014، ص90. نقلا عن بندكت زوث، ألوان من ثقافات الشعوب.

[2] – يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، ص210.

الموصوف في دائرة المؤتلف أو المختلف، وخلال هذا الوصف فهو إما أن يكون ذاتيا فيعطي أحكام وآراء حول ما تم مشاهدته وفقا لأهوائه، وإما أن يكون موضوعيا فيعتمد الأمانة في نقل تلك الصور التي شاهدها، مغيبا بذلك الجانب الذاتي وما يتصل به من أحكام وانتقادات.

كما يلجأ الرحالة خلال عملية التصوير إلى اعتماد السرد، فالرحلة "كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، وإنجاز الرحلة – كتابتها– يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة"[1]، وخلال سرد الرحالة لهذه الرحلة فإن له حرية اختيار ما يساعده من مناهج التدوين المختلفة المتعارف عليها في أدب الرحلة وذلك بالنظر إلى ظروف الرحلة وخصوصياتها، فمنها ما يكون التدوين فيها آنيا ومنها ما يعتمد فيه الرحالة الاستذكار، كما قد يلجأ إلى اختيار موضوعات فيسهب في الحديث عنها دون أخرى. ويعتبر الأدب المقارن المجال الأنسب والأرحب لدراسة أدب الرحلات فهو يشكل المنبع الأساس الذي يغترف منه أهل الأمة معلوماتهم عن الأمم الأخرى صحيحة كانت تلك الصور أو مشوّهة، وكيف تفيدنا هذه الدراسة في فهم الآخر[2]، فالرحلة وما يتبعها من تدوين لها تعدّ ممارسة مفيدة لما يتبع ذلك من تعرف على الشعوب وتواصل بينها.

2.4. الاستشراق والاستغراب:

[1] – جميلة روباشن، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري القديم، كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة الجزائر، 2015/2014، ص08.

[2] – ينظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط9، أكتوبر 2008، ص111.

حظي الشرق بعديد الدراسات من طرف الغربيين الذين أوغلوا في "دراسة الحياة الحضرية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة"[1]، ودراسة الشرقي وكل ما يتعلق به يسمى الاستشراق، ومن خلال الدراسات الاستشراقية التي قادها المستشرقون "أسهم أولئك المستشرقون في كتابة دراسات عن التراث العربي الإسلامي، فأخرجوا عشرات المخطوطات، واهتموا بالبرديات العربية، ودرسوا ظهور الإسلام وانتشاره، وفلسفته وترجموا القرآن الكريم، واهتموا بقراءته واهتموا بالحديث النبوي، ودرسوا شخصية الرسول، كما قدموا دراسات عن بلاد العرب منذ الجاهلية"[2]، وهذا الاهتمام بالقرآن والحياة الإسلامية كان المراد منه تشويه صورة الإسلام والمسلمين أحيانا، من خلال السعي إلى رسم صورة عن البلاد الإسلامية وما تعلق بيها تاريخيا واجتماعيا وحضاريا اتسمت في معظمها بالسلب.

ومما رسمه هؤلاء المستشرقون عن الإسلام والمسلمين، ما يوضحه المستشرق أرنست رينان Ernest Renan حول الإسلام بقوله: "إن الإسلام يخلق صعوبات كبيرة للعلم، ولسوء الحظ نجح منذ خمسمائة أو ستمائة عام، في إلغاء العلم تقريبا في البلدان التي يسيطر عليها، وهو ما يشكل موطن ضعف كبير في هذه البلدان"[3]، فهو يرى أن ما تتخبط فيه الأمة الإسلامية من قلة علم إنما سببه الإسلام الذي يتميز حسبه بالانغلاق وعدم الانفتاح على العلوم ومواكبة تطورها، فهو يحاول أن يقدم صورة سلبية عن الإسلام.

---

[1] – عدنان محمد وزان، الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، مطبعة رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة السعودية، د.ط، 1974، ص15.

[2] – يوسف بكار وخليل الشيخ، الأدب المقارن، ص21.

[3] – مجموعة مؤلفين، الإسلام والعلم (مناظرة رينان والأفغاني)، تر: مجدي عبد الحافظ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة مصر، ط1، 2005، ص 66.

إنّ هذه الصور والآراء السلبية حول العرب والإسلام هي ما حاول إدوارد سعيد أن يكشفه من خلال تناوله لموضوع الاستشراق، فيرى أن الاستشراق عنصري في مقاربته للإسلام إمبريالي ويطبعه التعالي الإثني. والكتابات الاستشراقية تعتبر الشرقيين (إشارة الى العرب والإسلام)، متخلفين ذهنيا، وغير متحضرين، وخاملين تتحكم بهم عيوب فطرية تمنعهم من التطلع وتجعل من حركيتهم مراوحة في المكان نفسه. ويخلص الكاتب الى أن الاستشراق ليس فقط فشل علمي ولكنه أيضا فشل إنساني[1]، فمن خلال هذه الدراسات الاستشراقية اتضحت معالم الشرق والعالم الإسلامي عند الغربيين، وتراوحت بين الإيجاب من خلال الاعجاب بعوالم الشرق، وبين السلب من خلال النظرة المتعالية للأنا الغربي بمقابل الآخر العربي الإسلامي.

ومقابل الاستشراق الذي يعنى بدراسة الشرق وما يتعلق به، نجد الاستغراب وهو حركة يقوم بها أبناء الشرق نحو الغرب، حتى يستفيدوا من علومهم ويحققوا أهدافهم، ويقتفوا آثارهم عن إرادة وقصد، باعتبار أن الغرب هو المعبّر عن الحضارة الإنسانية، بل هو الذي يدفعها إلى الأمام[2]. إذن فالاستغراب هو الإقبال على الغرب من أجل دراسته والبحث في خلفياته، ويمكن القول إنه نزعة عاطفية نحو الغرب ثقافة وحضارة يتمثل فيها البعد النفسي المتدني، والشعور بالنقص، والحاجة إلى التقليد[3]، فالمستغرب يرى في هذا الغرب قدوته ووسيلته للّحاق بركب الحضارة، ويعمل الاستغراب على تحويل الآخر الغربي إلى ذات مدروسة، وتحويل الأنا العربي إلى ذات دارسة، بمعنى جعل

[1] – مجموعة مؤلفين، المرجع السابق، ص102.

[2] –ينظر: فاضل حسن فاضل، الاستعمار الغربي والخلفية الثقافية، مكتبة العلي، لبنان، ط1، 2005، ص174.

[3] –ينظر: طه عبد الله شعبان، التبشير والاستشراق في الميزان، مكتبة طنطاوي، القاهرة مصر، ط1، 2004، ص134.

الآخر موضوعاً خاضعاً للدرس والمعالجة بالنقد والنقض والتحليل، أي أن الاستغراب هو دراسة الحضارة الغربية من حيث معطياتها وإنجازاتها ونتاجاتها وروادها ... إلخ[1]، وبالتالي فإن تحويل الآخر إلى ذات مدروسة يساهم في كشف صورته للأنا، وفي كثير من الأحيان تساهم هذه الدراسة في تجريده من تلك النظرة المثالية التي حاول الترويج لها وجعلها لصيقة بذاته، كما يعمل الاستغراب على إنهاء أسطورة كون الغرب ممثلاً للإنسانية جمعاء، وأن أوروبا مركز الثقل فيه، وأن تاريخ العالم هو تاريخ الغرب[2]، وفي ضوء هذا الأمر يمكن القول أن المستغربين الذين أقبلوا على دراسة الغرب قد انقسموا بين ناقمين عليه اجتهدوا من خلال دراستهم في رسم صور سلبية له وبين معجبين به وبحضارته وقد حدا بهم هذا الأمر إلى تسويق صور إيجابية عنه.

3.4. الترجمة:

تعتبر الترجمة أحد القنوات المهمة المساعدة في نقل صورة الآخر والتعريف به، فقد لعبت الترجمة دورا محوريا في عملية نقل النصوص الأدبية، والمعارف الثقافية، والعلوم وما يتصل بها، مما يبدعه الآخر المختلف لغويا عن الأنا، فمن خلال هذه الواسطة يكتشف الأنا تفكير ونمط عيش الآخر، وهي: "أن تنقل نصا من ثقافة إلى أخرى، ومن منظومة أدبية معينة إلى أخرى...إنها إدخال نص في سياق آخر"[3]، فالمترجم يكون الحافظ خلال عملية سفر النصوص مع مراعاة المعنى

[1] – محمد سالم سعد الله، نظرية الاستغراب في الفكر العربي المعاصر، مجلة فتوحات، م1، ع1، جامعة خنشلة الجزائر، جانفي 2015، ص52.

[2] – حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، د.ط، 1411هـ/1991م، ص42.

[3] – دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص95.

والأسلوب بين اللغة الأصل واللغة المنقول إليها النص، والترجمة بنقلها لنص ما فإنها تسهم في انتقال الأذواق الأدبية وكذا التيارات والأجناس الأدبية والمذاهب.

ونجد أن مسألة الترجمة "قد أثيرت منذ وقت مبكر في الحضارة العربية الإسلامية، وأدرك العرب أهميتها، ووضعوا شرائط لها، فالجاحظ يقول: ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيها سواء"[1]، فالجاحظ يشير إلى الضوابط التي تحكم عملية الترجمة، والتي تجعل العمل المترجم أهلا ليتناوله الباحثون بالدراسة، ليكشفوا من خلاله عن عديد صور الآخر التي يكتنزها، ومن هذا المنطلق يمكن القول أنّ الترجمة المقارنة ذات أهمية.

وفي هذا الصدد ترى الدكتورة ياسمين فيدوح أن " من دواعي التأثير والتأثر وضرورة الإفادة من الآخر، هو القيام بترجمة الأعمال الفنية، من لغتها إلى اللغة المنقول إليها، بوصفها وسيلة لأهم تيارات التأثير والتأثر، ويتجلى ذلك باحتكاك الثقافات بعضها ببعض، ومن خلال الرحلات ذات الطابع الفكري أو الفنّي، وهذا من صميم الدّراسات الترجمية المقارنة التي غالبا ما تهتم بالمصطلحات ذات الصلة بعمليتي التأثير والتأثر"[2]، فالترجمة هي عامل من عوامل التواصل الذي من خلاله يتحقق عامل التأثر بالآخر بعد رسم صورة عنه، وهي "بعد تواصلي ومعرفي له أهمية عظمى في تقارب الأمم والشعوب... إذ نحسب أن الترجمة مظهر حضاري جعل النصوص المترجمة معابر من أجل

[1] – يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، ص 203.

[2]– ياسمين فيدوح، إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، صفحات للدراسات والنشر، سورية، ط1، 2009، ص88.

التقاء الأمم والاطلاع على خاصية التفكير وطرق فهم الحياة"[1]، فهي من الوسائل التي يخوض فيها الباحث في مجال الصورائية ليكشف عن تصورات وآراء الآخر مبدع النص الأصلي، وبناء على ما قدمته هذه الترجمة من آراء يحكم هذا الباحث على نوع الصورة المتكونة إما بالسلب أو الإيجاب.

إن من النماذج الدالة على أثر الترجمة ما يتجسد من خلال مؤلفي كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة، فنجد أن ترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة إلى العربية ومدى التفاعل والرواج الذي حظي به في العالم العربي لدليل واضح على أهمية الترجمة الأدبية، خصوصا أن كتاب كليلة ودمنة يحوي في مجمله على حكايات ذات دلالة مرتبطة بالقيم الإنسانية والاجتماعية، وكانت هذه الترجمة دافعا كذلك لإبداع الكتاب العرب نصوصا على هذا المنوال، ونفس الأمر نجده من خلال الترجمة الشهيرة (الليالي) التي كان لها نصيب في الترجمة الثقافية المقارنة. إذ نجد أنطوان غالان Antoine Galland أبهره وأدهشه سحرها وطابعها السردي الغرائبي، لتظهر ترجمة ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية بين (1704-1717)[2]، يضاف إلى هذين العملين كذلك أعمال أخرى كرواية دون كيخوته، رواية مائة عام من العزلة، رواية الإخوة كارامازوف، مسرحيات شكسبير، آلام فيرنر، فوست، وغيرها، فالترجمة إذن هي وسيلة للانفتاح على الآخر وتحقيق التلاقح الفكري، الذي يؤدي إلى تطور حضاري وثقافي في كثير من الأحيان.

4.4. وسائط أخرى:

[1] – عبد القادر عميش، الخطاب من فعل التثبيت وآليات القراءة مركزية البنية وإمبريالية الدلالة، دار الأمل، الجزائر، د.ط، 2012، ص140.

[2] – ينظر: ياسمين فيدوح، إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، ص212.

من الوسائط الأخرى المساهمة في تشكيل الصورة نجد الكتب، إذ يمكن الكشف من خلالها على عديد الصور المتعلقة بالآخر، كفكره وثقافته، وهي من الوسائط التي يتم من خلالها التعرف على المعارف اللغوية للآخر المختلفة عن لغة الأنا، فهي "تبين مدى التواصل بين الأفكار والشعوب وثقافاتها ...، ويدخل في هذا الإطار ما أدلى به الكاتب من تصريحات عن نوع ثقافته وتأثره بكاتب أو ثقافة بلد ما "[1]، وعلى الباحث في مجال الصورائية أن يكون على إطلاع واسع بلغة الكتاب الأصلية، حتى يتمكن من استنباط الصور المختلفة للآخر التي يحملها هذا الكتاب، يضاف إلى الكتب الصالونات الأدبية والتي كثيرا ما أسهمت في انتقال التيارات الأدبية من موطن إلى موطن، كذلك الوسائط الحديثة كالسينما والجرائد والفنون التشكيلية، فلكل منها حظ في تعريف الآخر على الأنا التي يكتنزها داخله.

[1] – داود سلوم، الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م، ص 325.

الفصل الأول أدب الرحلة مفاهيم وأبجديات

I. أدب الرحلة المفهوم والتاريخ

1. تعريف أدب الرحلة
   1.1 لغة
   2.1 اصطلاحا
2. تاريخ أدب الرحلة الغربي والعربي

II. أدب الرحلة المرتكزات وجدلية الذات والغير

3. دوافع الرحلة
   1.3 الدافع الديني
   2.3 الدافع العلمي
   3.3 الدافع السياسي
   4.3 الدافع الاقتصادي
   5.3 الدافع الصحي
   6.3 دوافع أخرى
4. أقسام أدب الرحلة.
   1.4 الرحلات النثرية والشعرية
   2.4 الرحلات الواقعية والخيالية
5. قيمة وأهمية أدب الرحلة
6. ثنائية الأنا والآخر بين العرب والغرب في أدب الرحلة

I. أدب الرحلة المفهوم والتاريخ

1.تعريف أدب الرحلة:

1.1 لغة:

يتضمن مصطلح أدب الرحلة من الناحية اللغوية شقين، ألا وهما أدب ورحلة، يمكن القول إنهما متكاملان، ولفظة الأدب لها من المعاني الشيء الكثير، غير أننا نورد هنا معناها بما يتناسب والمعنى العام للمصطلح ككل، ومن ذلك ما ذكره بابن منظور في معجمه بقوله: "الأدب الذي يتأدّب به الأديب من النّاس، سُمي أدبا لأنه يؤدّب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، والأدب الظرف وحسن التناول، وأدّبه فتأدّب علّمه"[1].

أما في معجم الوسيط فالأدب رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي، وجملة ما ينبغي لدى الصناعة أو الفن أن يتمسك به، كأدب القاضي، وأدب الكاتب. والجميل من النظم والنثر. وكل ما

[1] – ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل، لسان العرب، م1، مادة (أ.د.ب)، ص 206.

أنتجه العقل الإنساني من ضروب المعرفة. وتطلق الآداب حديثا على الأدب بالمعنى الخاص، والتاريخ والجغرافيا ...[1].

أما مصطلح "رحلة" فتكاد معاجم اللغة العربية لا تخلوا من ذكر جذرها، وتحديد معناها وما ارتبط بها من دلالات، وقد أورد ابن منظور قوله: " رحل: الرّحل مركب البعير وجمعه أرحل ورحال، والرَّحالة فهي أكبر من السرج، وتغشى بالجلود، ورحل الرجل إذا سار، ورجل رحول وقوم رحّل أي يرتحلون كثيرا، التّرحل والارتحال: الانتقال"[2].

وجاء في القاموس المحيط قوله: " ارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، الارتحال: الوجه الذي تقصده والرحلة السفرة الواحدة، ورحّلته ترحيلا فهو راحل من رحل"[3]، ويقول أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: " الراء والحاء واللام أصل واحد يدلّ على: مضيّ في السفر، يقال رحل، يرحل، رحلة، وجمل رحيل: ذو رحلة إذا كان قويا على الرحلة، والرحلة الارتحال، فأما الرحل في قولك: هذا رحل الرجل، منزله ومأواه، فهو من هذا، لأنّ ذلك يقال في السفر لأسبابه، إذا سافر كانت معه، يرتحل بها وإليها عند النزول"[4].

---

[1] – مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة (أ.د.ب)، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ/ 2004م، ص 9-10.

[2] – ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم أبي الفضل، لسان العرب، م3، مادة (ر.ح.ل)، ص 20-51.

[3] – الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة (ر.ح.ل) ، ص 626.

[4] – أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، ج2، مادة (ر.ح.ل) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، 1399هـ/ 1979م، ص 497.

لو تأملنا معنى مصـــطلح " الرحلة" من خلال ما ورد في معاجم اللغة القديمة والحديثة منها، نجدها تصب كلها في مضمون التنقل والسفر، وبكل ما يوحي بمفارقة المحل وتغييره، وإذا حاولنا الجمع بين الدلالة اللغوية لمصـطلحي " أدب، رحلة" نجد أن الانتقال والسـفر يواكبه محامد الأخلاق وحسـن التعلم.

كما أن الرحلة في القرآن الكريم وردت باللفظ الصـريح " رحلة" في كثير المواقع، بالإضـافة إلى مشـــتقات هذا اللفظ، وكل ما يحمل في معناه الرحلة والانتقال من مكان إلى مكان آخر، من هذه الألفاظ: الهجرة، السـير، الإسـراء، المعراج، السـفر، التوجه، السـياحة، الخروج، الاعتزال، الذهاب، الجلاء، التجاوز، الهبوط، المجيء، الانطلاق، الفصـــل، النفر، الإتيان، والرحلة في القرآن هي على شقين إما روحية أو واقعية، وقد أبدع الله سبحانه وتعالى في رسم الرحلة الروحية للإنسان في بطن أمه، فذكر أدق التفاصـيل مذ تلقيح النطفة للبويضـة إلى أن يرى الإنسـان النور في هذه الحياة، وهو ما أكده العلم الحديث فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون: 12-14) *

أما الرحلات الواقعية في القرآن فقد تعددت دوافعها وأنواعها، فنجد منها الرحلات الدينية ومنها رحلة الإسـراء والمعراج، وهي إحدى المعجزات التي أيد بها الله نبيه ﷺ، والإسـراء هو تلك الرحلة التي

* – المصحف الشريف، رواية حفص عن عاصم، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1، 1425هـ

تشـــكل مســـارها من المســـجد الحرام إلى بيت المقدس، أما المعراج فهو رحلة من بيت المقدس إلى الســموات العلى، وهناك رحلة الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وكانت ســنة 622م بوحي من الله تعالى إلى نبيه ﷺ يقول تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة: 40)، كذلك نجد حجة الوداع وهي عبارة عن رحلة قصد بها الرسول ﷺ مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وقد تضمنت هذه الرحلة قيما وإرشادات هامة للمسلمين سواء في الجانب الديني، إذ بين فيها الرسول ﷺ حينما وقف خطيبا أن الله تعالى قد أتم للمسلمين أحكام شريعتهم، كما ألحّ على إلتزام أخلاق واجتناب أخرى وغيرها من الأمور ذات العلاقة بحياة المسلم عامة.

يضاف إلى الأنواع السابقة من الرحلات الدينية، رحلات الأنبياء والرسل والتي شكلت محطات هامة في القرآن لما فيها من تعريف بحياة الرسل والأنبياء السابقين وأممهم، وما فيها من مواعظ وحكم لأمة المسلمين، ومن رحلات الرسل والأنبياء الواردة في القرآن نجد: رحلة آدم عليه السلام منذ خلقه إلى أن استخلفه الله في أرضه رفقة أمنا حواء، وهناك رحلة سيدنا نوح في دعوة قومه، وكذلك رحلته بعد ركوبه الســفينة، ومن رحلات الأنبياء التي خلدها القرآن كذلك رحلة ســيدنا إبراهيم عليه الســلام مع زوجته سارة فقد خرج إبراهيم من أرض الشام قاصدا مصر التي استقر بها بعد أن استقبله الملك طوطيس، وكذلك هجرته رفقة زوجته ســـارة وجاريتها هاجر التي أهدتها لها حوريا ابنة طوطيس إلى

الشـــام[1]، وبعد أن تزوج هاجر وأنجب ابنهما إســماعيل عليهما الســلام، كانت رحلتهما إلى مكة والتي جسّدها القرآن الكريم،

ومن الرحلات الدينية كذلك رحلة موسى عليه السلام إذ يقول الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (القصص: 21-22)، كما قص القرآن رحلته بعد أن وصل ماء مدين، وزواجه من ابنة النبي شعيب عليه السلام، وزاد عليها رحلته بعد أن خرج رفقة أهله، ومن الرحلات الدينية ما يكون لأجل المحافظة على الدين إذا كان هناك تضييق في العبادة في الموطن الأم، وفي هذا الشأن يقول تعالى: ﴿ * وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ (النساء: 100)، ومن ذلك هجرة الصحابة إلى بلاد الحبشة بعد أن اشتد بهم العذاب في مكة، وأحيانا تكون الرحلات لأجل الاعتبار وأخذ الدروس، من خلال ما يتم التبصّر فيه من أحوال البلاد والعباد ومختلف ما خلق الله قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (العنكبوت: 20).

[1] – خالد علي نبهان، النبي إبراهيم كان عربيا !!، مكتبة النافذة، مصر، ط1، 2008، ص32– 33

وقد تخرج الرحلة في القرآن عن الغرض الديني إلى أغراض أخرى، فتكون لأجل التعليم أو التعلم ومن أمثلتها في القرآن رحلة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ (لكهف: 65-66)، وقد أحالت هذه الرحلة إلى الصبر، الذي يعتبر مفتاح طالب العلم في سفره لأجل بلوغ غايته، كما كشفت أن السؤال مفتاح كل معرفة، بالإضافة إلى ذلك بيّنت قدرة الله تعالى، وتجسد العلم في هذه الرحلة قولا وعملا.

وقد تكون الرحلة تجارية وهوما تجسده رحلتي قريش قال تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾ (قريش: 1-2)، والمراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله[1]، كذلك نجد في القرآن نموذجا عن الرحلة السياسية تجسد عند بلقيس ملكة سبأ حين اتجهت إلى نبي الله سليمان عليه السلام يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (النمل: 42)، وهناك نوع آخر مثلته رحلة ذي القرنين، ألا وهو الرحلة الاستكشافية إذ نجد أن ذا القرنين قد طاف مشارق الأرض ومغاربها، ورأى من آيات الله ما قدّر له أن يرى، وقد تمثلت هذه الرحلة بوصفها العام في سورة الكهف.

[1] – ابن كثير اسماعيل بن عمر أبو الفداء القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع لبنان، ط1، 1420هـ/ 2000م، ص2034

2.1 اصطلاحا:

إن الحديث عن الصورة الأدبية وكيفية تشكلها، يحيلنا بالضرورة إلى الكشف عن أهم الروافد التي ساعدت على تشكل هذا الحقل وتطوره ومن هاته الروافد أدب الرحلة إذ يعتبر أول ما تجسدت الصورة من خلاله وأدب الرحلة يتكون من شـــقين أدب ورحلة، فأما الأدب فهو ذلك التعبير الذي يترجم أفكارا ذات علاقة بالمؤلف، أما الرحلة فهي مجمل ما قام به الرحالة من تنقلات حقيقية حيث كان على اتصال بالواقع، فشاهد وأخذ جملة انطباعات على بلد أو مجموعة بلدان قام بزيارتها.

وذكر ناصر الموافي بأن أدب الرحلة هو: " ذلك النثر الذي يصف رحلة –رحلات– واقعية، قام بها رحال متميز، موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه"[1]، من خلال التعريف نجد أن الموافي قصر جنس أدب الرحلة على النثر واستثنى من ذلك ما ورد شعرا، كما ركز على الواقعية، وأخرج تلك الرحلات الخيالية من دائرة أدب الرحلة، غير أنّه اشترط في هذا النوع من الأدب غياب الذاتية المفرطة، فلا بد أن يكون الرحالة موضوعيا في طرحه لا يجانب الصـــواب، فلا يجب أن ينقل ما يوافق مزاجه، ويترفع عمّا يخالفه، حتى وإن كان في ذلك تحقيق فائدة لقارئ رحلته أو تحقيق لشيء من العجائبية من وراء الموقف، ولابد من بساطة المتن، فلا يكثر الرحالة عن اســتعمال كثير الزخارف اللفظية التي تنفر بعض القراء، كما عليه أن يرنو إلى اللغة

[1] – ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية القاهرة مصر، ط1، 1995، ص41.

البسيطة السهلة، مما يجعل رحلته ذات مقروئية حتى عند أبسط فئات المجتمع ذات الرصيد اللغوي المتوسط، كل ذلك لأجل الوصول إلى الغاية التي ينشدها الرحالة من وراء تدوينه لهذه الرحلة.

ويذهب سعيد بن سعيد العلوي إلى اعتبار أدب الرحلة جنسا أدبيا مستقلا بذاته، له خصائص ومكونات ترتقي به إلى مصف الخطاب، إذ نجده يجمع بين الإفادة حين نقل الرحالة ما يراه من جهة، والإمتاع عند رصد كل عجيب من جهة أخرى، كل ذلك يتم بأسلوب سردي قصصي[1]، فلا بد أن تكون أخبار الرحلة ذات مبتغى يرمي إليه الرحالة، كما يجب تحقق الإمتاع، وإلا فإن التنفير يكون محله فتضيع جهود الرحالة ولا تتحقق الإفادة المرجوة، كما حصر الكاتب الأسلوب بين السرد والقص، لما في ذلك من امتاع للقارئ وشد لانتباهه، وتشويقه لمواصلة الاطلاع على الرحلة واكتشافها.

وتسعى أسماء أبوبكر لتحديد إطار مفاهيمي لأدب الرحلة فتقول:" فن من فنون القول العربي، يصف مجالات الحياة عند الرحالة الذي سجل رحلته، أو حكاها لغيره ثم سجلها"[2]، فأدب الرحلة إخبار وسرد ووصف لمجموع ما اطلع عليه الرحالة، وما كان له نصيب في التفاعل معه، سواء كان هذا التفاعل حسيا أو وجدانيا، وحينذاك قد يميل الرحالة إلى جانب معين دون غيره، فيجعل رحلته مثلا رصدا للواقع السياسي أو الاجتماعي للبلد المرتحل إليه، وخلال ذلك إما أن يكون التدوين رفيقه وإما أن يعتمد على ذاكرته وينقل ما عاشه إلى غيره مشافهة.

[1] – ينظر: سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1995، ص14.

[2] – أسماء أبوبكر، ابن بطوطة الرجل والرحلة، در الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1992، ص 14.

وتذهب عواطف محمد يوسف نواب في حديثها عن أدب الرحلة والرحالة إلى القول أن: "الشخص الذي قام بالرحلة، قد ترك موطنه وانتقل إلى مكان آخر، وسافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها، لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر، فالرّحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة"[1]، فالشرط الأساسي في الرحلة هو حدوث عملية الانتقال حقيقة لا افتراضا، وهذا الانتقال يكون على العموم لا تعلم له وجهة محددة غالبا، وأحيانا يباشر الرحالة رحلته مع تحديد الوجهة، لكن ذلك لا يكون تقييدا فكثيرا ما يحيد الرحالة عن مسار رحلته إلى مسارات فرعية أخرى لأسباب وأحوال يفرضها الزمان والمكان، فلذلك كان كل من انتقل من محله وقصد وجهة أخرى يسمى رحّالا، وما سلكه من مسار وما تعرف عليه خلال ذلك يسمى رحلة، مهما كانت دوافعها وأغراضها، وهي ها هنا تذهب إلى تقديم تعريف للرحلة عامة، وليس تعريفا لأدب الرحلة، فلم تخصص للرحلة جنسا ولا نوعا أدبيا، ولم تشر إلى الأسلوب أو نمط الكتابة.

ويصنف الدكتور إنعام غازي أدب الرحلة ضمن الأجناس الأدبية ذات التنوع الكبير، نظير ما تزخر بيه من موضوعات وما تحمله من مشاهد، وترجع أصوله إلى العصور القديمة، وقد تحقق هذا النوع من الأدب بفعل اسهامات الكتاب، الرحالة والدبلوماسيين والعلماء والدعاة والأطباء وأصحاب الجيش والبحريين، وهذا النوع من الأدب يدون الاستكشافات والمغامرات، كما أنه يشتمل ملاحظات

[1]- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض السعودية، د.ط، 1996، ص 41.

دوّنها الرحالة الأجانب عن مختلف الأراضـــي[1]، حاول إنعام من خلال هذا التعريف التأريخ لبداية أدب الرحلات، كما ذكر العناصر الفاعلة وصاحبة الفضل في إيجاد هذا الجنس الأدبي، وفي ذلك اشارة إلى تعدد دوافع تدوين الرحلة، وتعدد الأطراف المســـاهمة في تدوين الرحلة، غير أنه قصـــر ما يتم تدوينه على كل جديد، وأهمل الإشـارة إلى الخصـائص المشـتركة بين بلد الرحالة وبلد الرحلة، فكثيرا ما تكون هناك جوامع بين البلدين مع بعض الفوارق البسـيطة، كما نجده يقصـر صـورة الأنا على رؤية الآخر الأجنبي المختلف، وينفي صورة البلد في فكر الأنا المحلي.

ويذهب نبيل راغب وهو أحد الرواد المهتمين بفن الرحلة إلى رصد جذور أدب الرحلة، فيرى أنها تعود إلى مرحلة الأدب الشـفوي، ويرى أن هذا الأدب يتشـكل من جملة الانطباعات والملاحظات التي تدوّن حول مختلف الرحلات، وكثيرا ما تكون هاته الملاحظات على شـــكل مواقف أو أحاديث، تنقل مشافهة من لسان إلى آخر، دون مسؤولية محددة عن السرد[2].

ويرى شـوقي ضـيف أن الرحلة تعد من أهم الفنون في الأدب العربي، تتضـمن أحداثا ومغامرات عدة تصـاغ في أسلوب قصـصـي بديع، يؤكد الواقع أحيانا وينشـئ لنا عوالم خيالية[3]، وبهذا يكون شوقي ضـــيف قد مزج من خلال هذا التعريف بين نوعي الرحلات الواقعية والخيالية ، كما أعطى أهمية

[1] – حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات والبحوث المتقدمة المتكاملة، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد باكستان، 2013، ص14، نقلا عن إنعام الحق غازي، صورة شبه القارة الهندية– الباكستانية عند العرب.

[2] –نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، ع88، مركز الملف فيصل للبحوث، الرياض المملكة العربية السعودية، تموز" يوليو" 1984ص 17.

[3]– شوقي ضيف ، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت، ص5

للأســـلوب، فالأســـلوب المعتمَد عليه يجب أن تكون له القدرة على التكيف مع الواقع والخيال في آن واحد، فلا يحس المتلقي بنوع من الفراغ والنفور أثناء اطلاعه على الرحلة، خصـــوصـــا إذا كانت تزاوج بين الواقع والخيال، كما أن هذا التعريف فيه إحالة إلى ارتباط الرحلة بالأسطورة والخرافة.

ويعرض معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب إلى تعريف لهذا الفن الأدبي فيقول: " هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلات في بلاد مختلفة، وقد يعرض فيها ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[1]، ويمكن القول أن هذا التعريف ألمّ بكل ما يتعرض له هذا الفن من موضـوعات كما يعطي أولوية للأحكام والسـلطة الموضـوعية في حضـور الذاتية، كما أشـار إلى طريقة التدوين المعتمدة لنقل الرحلة، فلا يسـتثني الرحالة شـيئا مما وقعت عليه عينه، لكنه أغفل الإشارة إلى أسلوب التدوين وضوابطه.

وهناك من اعتبر أن الرحلات التي تغيب فيها الواقعية" أي تلك التي لم تتحقق فيها بنية الســـفر الفعلية والتي لم يقم بها مؤلفها فعلا، لا تدخل في مجال أدب الرحلات مهما اســتند مؤلفوها إلى حقائق ووقائع نقلت إليه، ومن أمثلة تلك الرحلات " التوابع والزوابع لابن شـــهيد ورســـالة الغفران لأبي العلاء المعري[2]، ويقول ســـيد أحمد النســـاج عن أدب الرحلة : " هو ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة

[1] – مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، ط2، 1984، ص 17.

[2] – ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص 41.

موضوعا، أو بمعنى آخر الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي متميز في لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة"[1]، من خلال هذا التعريف تم تجنيس أدب الرحلة وتحديد موضوعه العام بدقة بحيث لا يتجاوز وصف الرحلة ومجرياتها، كما قصر أسلوب الكتابة ليكون أسلوبا أدبيا دون غيره، أما عبارة البناء الفني فتوحي بغلبة نمط الوصف على هذا النوع من الأدب.

ويمكن اعتبار تعريف أنجيل بطرس لأدب الرحلة أقرب التعريفات، من حيث الإحاطة والشمول بهذا الجنس الأدبي حيث يقول: " أدب الرحلات إذن هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدوّن وصفا له، يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة، والصدق وجمال الأسلوب، والقدرة على التغيير"[2].

من خلال ما سبق من تعريفات يمكن القول أنّ أدب الرحلة هو: ذلك الجنس الأدبي الذي يجمع فيه مؤلفه _الرحّالة_ وصفا لما رآه وعايشه من طبيعة وأخلاق وعادات وتقاليد، وما استكشفه من عجيب وغريب في بلد من البلدان التي انتقل إليها حقيقة، مستعملا في ذلك أسلوبا أدبيا ماتعا مبتعدا عن الخيال.

ولابد من توفر جملة من الأساسيات في الرحلة حتى تدخل في دائرة أدب الرحلات، وهذه الأساسيات هي:

[1] – سيد أحمد النساج، أدب الرحلات في حياتنا الثقافية، مجلة العربي، ع 338، وزارة الإعلام بدولة الكويت، يناير 1987، ص 113.

[2]– انجيل بطرس، الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، ع7، دار الهلال مصر، يوليو1975، ص52.

1) الرّحالة:

وهو الشخص الذي يقوم بالرحلة وهو عنصر فعّال لا يمكن الاستغناء عنه، ولابد أن يكون محبا للسفر يتحمل مشاقه ويستلذ مجرياته. إذ لا يتوانى عن تسجيل كل ما يلاحظه ويشاهده، وإضافة كل ما يبعث الإعجاب في النفس والاستغراب في العقل.

2) الرحلة:

يشترط فيها أن تكون واقعية قام بها الرحالة حقيقة، فقصد قطرا من الأقطار خلال زمن معين.

3) الوصف:

حيث يصف الرحالة كل ما تقع عليه عينه ويشد انتباهه، والوصف أساس الرحلة.

وذكر الدكتور أنور سديد العناصر المهمة لأدب الرحلة ويمكن إدراجها فيما يلي[1]:

* الرحلة: هي تلك الكتابة الأدبية التي تتميز بالسـرد، والتي يجمع الرحالة مادتها خلال مشـاهداته في الأراضي الأجنبية.

*تتضمن الرحلة الأحوال والانطباعات والمعلومات التي تتراكم لدى الرحالة خلال سفره.

[1] – حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، ص15.

*كلما تمتع الرحالة بدقة النظر وعمق التفكر كثرت تفاصـيله، فالناظر العادي يذوب في تحديد المنظر الجغرافي وبيان سـماته الخارجية، والحديث عن أهل البلد مركزا على الإحصـائيات، وما شـابه ذلك من معلومات.

*تتكون الرحلة من الأفكار والعواطف والآثار السـلبية والإيجابية. ويضـم الرحالة عواطفه العميقة إلى الأوضـاع الخارجية، وبذلك يعبّر عما يدور في قلبه، ومن هنا يتميز أسلوب الرحلة حيث يصـبح أسلوبا أدبيا مؤثرا.

ولم يظهر هذا الفن في بدايته تحت اسـم أدب الرحلة، وإنما كان تحت باب التاريخ أو الجغرافيا أو السـيرة الذاتية، أما تسـمية أدب الرحلات فهي حديثة تولدت بعد التقسـيمات التي عرفتها الفنون الأدبية، ولما كان هذا الأدب _ أدب الرحلات_ أقرب إلى الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافي سنحاول الوقوف عند هذين المصطلحين لإزالة بعض الغموض.

1. الجغرافيا الوصفية:

تصـنف ضـمن العلوم الدقيقة تُعنى بدراسـة الظواهر الطبيعية، وكل ما يوجد على سـطح الأرض ويتعلق بالطبيعة، وهي على النقيض من أدب الرحلات، ذلك أنها تهدف إلى الوصـف الجغرافي العلمي أساسا، مستخدمة منهج العلم وأسلوبه، دون أن يكون لهذا الأسلوب خصـائص أدبية، مع التركيز على توصـيل المعلومات توصـيلا مباشـرا، لا تراعى فيه النواحي الجمالية والذاتية[1]، وكانت بدايتها في نهاية

[1] – ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص 36.

القرن الثامن ميلادي (2هـ) حيث أولى العرب أهمية للجغرافيا الوصفية، ونجد من السباقين إلى الكتابة فيها الرازي (ق4هـ-10م) فقد وضع قواعد علمي التاريخ والجغرافيا، وقد أسهم في تطورها العديد من العلماء والكتاب وحتى الأدباء، فنجد الجاحظ قد وضع كتابا في الجغرافيا الإقليمية أسماه كتاب البلدان[1].

2. الأدب الجغرافي:

هو أكثر المصطلحات ارتباطا بفن الرحلة، والأدب الجغرافي يتبع المنهج العلمي ولكن بأسلوب أدبي بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، وبحيث تطل شخصية الرحال بين آن وآخر لتقيم نوعا من التوازن بين الموضوع والذات، بحيث يتعلم القارئ ويستمتع في آن واحد، إنها ازدواجية تهدف إلى التقديم المباشر للمعلومة[2]، ويذكر عبد الرحيم مودّن أنّ " الأدب الجغرافي هو المهاد الطبيعي للرحلة، إذ تتداخل فيه علوم الفلك وأدب المسالك والممالك وفضلا عن معاجم البلدان ومصادر الحضارة وخرائط الحواضر"[3]، إذن فالأدب الجغرافي هو مزيج من عدة علوم، والملاحظ لمصطلح الأدب الجغرافي يجد أنه يمزج بين كلمتين: أدب وجغرافيا والربط بين الكلمتين له دوافعه إذ أن الأدب الجغرافي " هو من

[1]- ينظر: عبد الفتاح محمد وهيبة، مكانة الجغرافيا في الثقافة الإسلامية، دار الأحد، بيروت لبنان، د.ط، 1979، ص 8-9.

[2] -ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص 37.

[3] -عبد الرحيم مودّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مستويات السرد، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006، ص51.

ناحة يولي وجهه شطر العلوم، ومن ناحية أخرى فهو يولي وجهه شطر الأدب الفني، بالغا ببعض آثاره في هذا المجال ذروة الإبداع"[1]

ويمكن القول أنّ الأدب الجغرافي هو ذلك الأدب الذي يتناول الجغرافيا والمعلومات الجغرافية، سواء كان ذلك في شكل نصوص أدبية أو دراسات علمية، ويمكن أن يشمل هذا الأدب مجموعة متنوعة من الموضوعات، مثل البيئة والتضاريس والمناخ والتغيرات المناخية والموارد الطبيعية والحضارات والتاريخ وغيرها، ويتميز الأدب الجغرافي بأنه يقدم معلومات دقيقة وشاملة عن العالم وبيئته وثقافته وتاريخه ويساعد على فهم العلاقة بين الإنسان والبيئة.

2. تاريخ أدب الرحلة الغربي والعربي:

إن فن الرحلة كباقي الفنون الأدبية بدأ مرتبطا بالتاريخ والجغرافيا أول أمره، ثم صار إلى ما هو عليه الآن أدبا قائما بذاته، ومن هذا المنطلق يمكننا الجزم أن جذور أدب الرحلة وبداياته كانت بسيطة، فلا تعدو أن تكون ملاحظات عادية وانطباعات ذاتية، سجلها الرحالة الأوائل في رحلاتهم ومغامراتهم المختلفة[2]، والرحلة في الأدب الغربي لا يمكن الحديث عن ظهورها ونشأتها واعطائها اطارا زمنيا، إلا مع تلقف كتب هؤلاء الرحالة، لتكون دليلا ملموسا يمكن الاعتماد عليه لبداية التأريخ لهذه المرحلة.

[1] –لبنى لونانسة، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين 7 و8هـ، مذكرة ماجستير، تخصص الأدب المغربي القديم، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة 2014/2013، ص18، نقلا عن كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب.

[2] –نبيل راغب، أدب الرحلات، ص 71

1..2 تاريخ الرحلة في الأدب الغربي:

نعود إلى التاريخ فنجد أن للمصـــريين القدامى رحلات متعددة، كانت حوالي منتصـــف الألف الثالث قبل الميلاد بالبر والبحر، فوصلوا حتى ساحل الصومال، كما جهزت الملكة " حتشبسوت" حملة إلى الصـومال عام 1495 ق.م، وتخبرنا النقوش الموجودة بمصـر كيف سـارت هذه السـفن في البحر الأحمر، كما تحيلنا على مجريات هذه الرحلة[1]، وكان للشـعب الفينيقي عدة رحلات، وصـلت حتى بحر الروم وشواطئ أوربا الغربية والمحيط الأطلسي وسواحل إفريقيا الغربية وأمريكا، وتم تدوين هذه الرحلات في مصنفين هما: رحلة جنون القرطاجي حول القارة الإفريقية ورحلة عملقون إلى سواحل أوربا الغربية[2].

ويعتبر النقاد والدارســـون أن ملحمة جلجامش هي أول نموذج وثّقه الإنســـان من أدب الرحلة، وتعود هذه الملحمـة إلى 2000 ق.م تجري أحداثها في بلاد الرافدين، إذ تعرض لنـا مجموعـة من الرحلات بطلها جلجامش Gilgamesh ملك أوروك الظالم وإنكيدو Enkidu الذي ســـخرته الآلهة للتصـــدي للملك، والذي ما إن حلّ بمدينة ما بين النهرين العراقية حتى انقلب إلى صـــديق لجلجامش، حيث خاضـــا معا مغامراتهما وحروبهما ضـــد البشـــر والآلهة جنبا إلى جنب، كما برز هيرودوتس

[1] – ينظر: أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي دراسة ومختارات، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت لبنان، ط1، ديسمبر 1961، ص07

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص08

Hérodote عند الإغريق، فقد جاب برحلاته بلاد الإغريق، وقدم ما توصل إليه عام 425 ق.م، غير أنه لم يقدم وصفا تفصيليا لرحلاته، وإنما اكتفى بالتركيز على النتائج التي تولّد عنها علم الجغرافيا[1].

ثم كان عصر الرومان الذين تميزت بلادهم بالرقعة الجغرافية الواسعة، فقد امتدت حتى نهر الفرات، وكانت رحلاتهم لاستكشاف أجزاء من هذه البلاد، فاطلعوا على بعض أرجائها، كما تواصوا مع أجناس بشرية تخالفهم في كل شيء، وخلال ذلك قاموا بتدوين ما رصدوه، ومما أبدعوه نجد فتح بلاد الغال ليوليوس قيصر Julius Caesar والذي ترجمه إلى الإنجليزية س.أ. هاندفورد S. A. Handford تحت عنوان The Conquest of Gaul وترجمه عنه إلى العربية علي زيتون[2]، وهو عبارة عن مذكرات شخصية تحاكي تلك الحروب التي قام بها هذا القيصر في بلاد الغال*، فقد صوّر في كتابه تقاليد أهل هذه البلاد على اختلافها، واحتلال بلاد الغال وما صاحبه من أحداث، ليعرج إلى غزوه لبريطانيا ومجموعة التمردات التي صاحبت هذا الفتح.

وخلال العصر الوسيط كان من أهم الرحالة في هذه الفترة الإيطالي ماركو بولو Marco Polo (1254- 1324)، وله كتاب يجمع رحلاته يحمل عنوان رحلات ماركو بولو ترجم لعديد اللغات، وقد ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ المصري عبد العزيز جاويد. ماركو بولو قادته رحلته إلى الصين، فقد

[1] – ينظر: نبيل راغب، فنون الأدب العالمي، دار نوبار للطباعة، القاهرة مصر، ط1، 1996، ص24.

[2] – يوليوس قيصر، فتح بلاد الغال، تر: علي زيتون، دار علاء الدين للنشر، دمشق سوريا، ط2، 2007، ص 5 وما بعدها.

*بلاد الغال: اسم أطلقه الرومان على مجموعة من الدول تمتد على مساحة فرنسا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ، ومعظم سويسرا، وأجزاءٍ من شمال إيطاليا، وألمانيا وهولندا ولا سيما غربيَّ الضفة اليسرى لنهر الراين وجنوبيَّها

شد الرحال إليها وهو ابن السابعة عشرة سنة، رفقة أبيه وعمه اللذان كانا يشتغلان بالتجارة وسبق لهما زيارة تلك البلاد، وخلال هذه الرحلة مرت العائلة بعديد المناطق من ذلك مدينة عكا الفلسطينية، وبعد وصولهم صاروا من حاشية الحاكم قبلاي خان، حيث وظّف ماركو ضمن طاقمه وكلّفه بعديد المهام، كما كان يستقي منهم معلومات كلّما سنحت له الفرصة، فيستفسر عن أحوال أوربا على جميع الأصعدة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، خصوصا الجانب الديني وما تعلق بالدين المسيحي، وقد استمروا في كنفه مدة طويلة من الزمن، أغدق عليهم خلالها بكم كبير من الهدايا، مما يجعلهم في أريحية من مصاعب الحياة[1].

وبعد فراق دام 24 سنة تهيأت الأسباب لعودتهم إلى البندقية موطنهم الأصلي ، فساروا إليها، لكن بعد وصولهم لم يتعرف عليهم أحد، فقد تبدّل حالهم، فما عادوا يتقنون من لغتهم الأصلية إلا بعض كلمات، رغم ذلك تأقلموا مع الوضع، ثم نشبت حرب مع جنوة، فكان ماركو ضمن المشاركين بها، ليقع أسير حرب ويقاد إلى سجن في جنوة، فدخل ماركو السجن وهناك أملى كتابه على سجين كان معه، لم يصدق العامة ما أورده هذا الرحالة من أخبار في رحلته، فقد عدّوها في البداية ضربا من الخيال لكونها تنطوي على شيء من العجائبية[2]، ولأنّ تلك المناطق كانت بعيدة المبتغى بالنسبة لهم، فمن يصلها لكن يكون في عمره بقية حتى يعود، لكن بعد موته علموا أن ما أورده لم يجانب الصواب.

[1] – ينظر: زيد خلدون جميل، رحلات «ماركو بولو» وأثرها على الثقافة العالمية، 2019/10/14، https://www.alquds.co.uk أطلع عليه بتاريخ: 2023/11/30 على الساعة 20.00

[2] – ينظر: المرجع نفسه، أطلع عليه 2023/11/30 على الساعة 20.00

ويعتبر القرنان الخامس عشر والسادس عشر الميلاديان عصرا الرحلات والاكتشافات في القارة الأوربية وغيرها، حيث برز عديد الرحالة خلال هذه الفترة، من ذلك اكتشاف الدوم هنري Dom Henrique المعروف بالملاح أقساما مجهولة من الشاطئ الإفريقي سنة 1441م، ووصول بارتولوميو دياز Bartolomeu Dias سنة 1486م إلى رأس الأعاصير في الطرف الجنوبي من القارة الإفريقية[1]، ثم بعد ذلك نجد فاسكو دا غاما Vasco da Gama (1460- 1524)، وكريستوف كولومبوس Christopher Columbus (1441 – 1506) وفرديناند ماجلان Ferdinand Magellan (1480 – 1521) الذين اشتهروا كرواد رحلات بحرية، حيث اتجه دا غاما سنة 1497م من الشمال إلى الجنوب، بينما قصد كولومبوس 1492م وماجلان 1519م صوب الغرب البعيد، وعبر المحيط الأطلسي المجهول السعة والأبعاد حينذاك[2].

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين بدأت الأنظار تتجه إلى البلاد العربية والإفريقية، فقصدها عديد الرحالة الأوربيين على اختلاف انتماءاتهم، من ذلك الرحالة الفرنسي جان دي تيفينو Jean de Thévenot الذي وصل عددا من البلدان العربية خلال رحلتيه، حيث كانت انطلاقته من روما في ماي 1655م، قصد مصر ثم القدس بعدما انضم إلى قافلة للحجاج، لينتقل بعدها إلى تونس ثم يعود إلى ايطاليا، أما رحلته الثانية فكانت سنة 1663م إلى الإسكندرية ثم لبنان فدمشق وصولا إلى العراق، وقد نشرت رحلة تيفينو الأولى في باريس العام 1665م تحت عنوان

[1] – أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي دراسة ومختارات، ص 10.

[2] – محمد حسين فهيم، الرحلات اكتشاف للعالم والإنسان، عالم المعرفة " أدب الرحلات"، ع 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو1989م، ص 26.

Relation d'un voyage fait au levant وكان هذا الجزء الأول لرحلته، أما بقية الأجزاء فنشرت عامي 1674م و1684م، وقد جمعت هذه الرحلة حقائق جغرافية واقتصادية واجتماعية، بالإضافة إلى معلومات تاريخية قيمة[1].

كما قام الرحالة جان أندري بايسونيل Jean-André Peyssonel برحلة إلى الجزائر وتونس بين سنتي 1724م -1725 عنوانها voyage dans les régences de Tunis et d'Alger، حيث نزل بالشمال الإفريقي لغاية علمية وهي اجراء أبحاث حول مرض الطاعون بعد أن أودى بحياة والده[2]، وقد خص معظم مؤلفه بذكر أخبار تونس.

وكانت رحلة الفرنسي جان باتيست طولو Jean-BaPtiste Tollot إلى أرض المشرق ما بين 1731- 1732، والتي حملت عنوان رحلة جديدة إلى أرض المشرق (1731-1732)، وهي نموذج لما دونه المستشرقون، فقد كان الهدف الأسمى لمعظم المستشرقين من هذه الرحلات، هو نفع سلطات بلادهم وإدراك سبل احتلال البلاد العربية التي كانت تحت حكم العثمانيين، انطلق هذا الرحالة في رحلته من ميناء تولون وصولا إلى الجزائر، فقام برصد موقعها وقوتها العسكرية ونظامها السياسي،

[1] – جان دي تيفينو، رحلات جان دي تيفينو في الأناضول والعراق والخليج العربي (1664-1665)، تر: أنيس عبد الخالق محمود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2013، ص 07.

[2] – ينظر: حواء حنكة وعبد القادر كركار، وصف الرحالة الأوربيين للوضع السياسي في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة دراسات وأبحاث، م15، ع1، جامعة الجلفة، جانفي 2023، ص 05.

ليسير بعدها إلى طرابلس فالإسكندرية ثم فلسطين والتي ذكر بها بعض المعالم ذات العلاقة بالمسيحية، ليصل إلى تركيا مقر الحكم العثماني، فقام بوصفها وتشريح أوضاعها وذكر أدق تفاصيلها[1].

ويعتبر الانجليزي جوزيف بيتس Joseph Pitts أول انجليزي يزور البقاع المقدسة، وكان ذلك سنة 1680م، بعد أن وقع أسيرا في أيدي المسلمين الجزائريين، فتم بيعه في سوق العبيد، وقد أجبره سيده الأول على اعتناق الإسلام تحت التعذيب فنطق الشهادتين وتم تختينه، لكن هذا الاعتناق كان ظاهريا فقد حمل في قلبه دينه المسيحي، وبعد أن اشتراه سيده الثاني الذي كان رحيما به، وقد أخذه معه في رحلة الحج، وأعطاه حريته بعد ذلك[2]، وقد أدرج بيتس في مؤلفه الذي حمل عنوان A True and Faithful Account of the Religion and Manners of the Mohammetans والذي ترجمه إلى العربية عبد الرحمن عبد الله الشيخ تحت عنوان رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، طريق الحج الذي سار عليه وصولا إلى مكة والمدينة واصفا أركان الحج ومشاهد الحجاج، وما تبع ذلك من مشاهد يومية، ذاكرا كيف أنه غير اسمه إلى يوسف حتى يتمكن من أداء الحج.

أما في القرن التاسع عشر برزت في فرنسا مدام دي ستال (1766- 1817)، فبعد أن قيّد نابليون حريتها على إثر دعواتها المستمرة للديمقراطية قررت التوجه إلى خارج فرنسا، وكانت قبلتها

[1]- A. Berbrugger, Un Voyage de Paris à Alger en 1731, par Le Sieur Tollot, Revue Africaine, 11eme Année, n66, Alger, novembre 1867, p 417- 418

[2] -Spahic Omer,Joseph Pitts a Christian Slave on Hajj, July19, 2021, https://www.islamicity.org, consulted 01/12/2023, at 14.00

ألمانيا فمكثت هناك مدة من الزمن، اكتشف شعبا عظيما على عكس ما كان يروج له من فضاضة وسوء معاملة هذا الشعب للوافدين إليه، وعلى إثر ذلك ألفت كتابها المعنون بـــ" عن ألمانيا" غير أنّه لم يكتب له النور في فرنسا، فقد أمر نابليون بإتلافه سنة 1810م، ليصدر في لندن سنة 1813م، وقد فتحت مدام دي ستال شهية معاصريها للخروج واكتشاف العالم، وبعد ظهور موجات الاستعمار كان توافد جحافل الرحالة الأوربيين إلى البلاد العربية والإفريقية لأهداف استعمارية بدرجة أولى، وقد عرفت الرحلة الفرنسية تحولا جذريا مع تنامي التيار الرومنطيقي، إذ توجهت إلى حياة الماضي الوديعة المتمثلة في حضارة الشرق، والهروب من المدينة الأوربية بما فيها من ضجيج وصراع، هذا إضافة إلى كونها غدت من الضروريات السياسية والاجتماعية لدى مثقفي البلاد[1].

ويعد الرحالة الفرنسيون من أبرز رحالة القرن التاسع عشر، وقد اتجهوا إلى افريقيا ذلك أنها كانت تعتبر أكبر مستعمرة استحوذت عليها فرنسا، ومن هؤلاء نجد ليسور Lesseur وويلد Weld اللذان قاما برحلة إلى الجزائر في بداية سنوات الاحتلال تحديدا سنة 1835م، فزارا عديد المدن ومنها مدينة الجزائر العاصمة ووهران، كما أرفقا كل نص رحلي لمدينة بصورة تعبر عن أهم معلم فيها، فهما عبقريان يكسبان ثقافة عريقة ومتنوعة فيصفان لنا ما تقع عليه حواسهما وصفا دقيقا، وموقف المؤلفين

[1] – أغامير محمد، صورة الجزائر في مخيال الآخر لدى الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران 1 الجزائر، 2013–2014، ص 73.

الحيادي أو نظرتهما الموضوعية التي يلقيانها على الناس والأشياء من خلال أوصاف بسيطة، تجعلنا نكتشف لأول وهلة حقائق تاريخية كثيرا ما حاول طمسها بعض المؤلفين المغرضين[1].

كما قام بيير جوردا Pierre Jourda بتقييد أوضـــاع البلاد الإســـلامية في كتاب تحت عنوان الغرائبية في الأدب الفرنسي منذ شاتوبريان، حيث خصص الفصل الأول من كتابه للحديث عن البلاد الإســـلامية، ثم انتقل للحديث عن الجزائر التي كانت حينذاك تعاني البطش الفرنســـي، ثم ذكر مصـــر وأحوالها، لينتقل بعد ذلك إلى بقية بلاد المشـــرق العربي، وقد حاول التركيز في كتابه هذا على الطبيعة والحياة الاجتماعية بالدرجة الأولى، وفي الواقع لم يعتمد بيير جوردا على أدب الرحلات وحســـب، وإنما على الروايات والقصائد التي تناولت الشرق، والتي شكلت نوعا من الاستمرارية المنظمة، فتناول الكاتب مقام الشرق وحياته وعاداته وجغرافيته وثقافته كما ظهرت في الأدب الفرنسي[2].

ويعتبر الرحالة الفرنسي ألكسي دو طوكفيل Alexis de Tocqueville أحد عملاء فرنسا، الذين اســـتخدمتهم لاســـتجلاء الطريق بغية توســـيع نفوذها في الجزائر، فنجده في رحلته التي تحمل عنوان نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال، قد رصد ظروف الجزائر منذ 1837م وحالة السكان وعاداتهم وتقاليدهم، كما حاول رصد جميع الوسائل المساعدة على توطين الفرنسيين في أرض الجزائر، وكذلك البحث في كيفية تهيئة الظروف المناسبة لذلك يقول في هذا الشأن: "ينبغي أن نطرح على أنفسنا سؤالا

[1] – أ. ليسور ووبلد، رحلة طريفة إلى إيالة الجزائر، تر الأستاذ محمد جيجلي، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2002، اللوحة 1 وما بعدها.

[2] – بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، تر: مي عبد الكريم وعلي بدر، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1، 2000م، ص 6.

أولا: هل يجب مباشرة الاستيطان قبل اكمال السيطرة وانتهاء الحرب؟ لن أتردد لحظة في الإجابة: نعم، لا أحد بإمكانه القول متى ستنتهي الحرب، انتظار انتهائها يعني التأجيل اللا محدود للأمر الأساسي، لقد قلت وأكرر أنه ما لم يكن لنا سكان أوربيون في الجزائر، فإننا سنبقى مخيمين على الساحل الإفريقي ولن نستقر هناك، إذن ينبغي أن نجعل الاستيطان والحرب يسيران معا إذا كان ذلك ممكنا"[1]، فالهدف عنده هو الاستيلاء والاستقرار الدائمين على أرض الجزائر.

كما حاول الرحالة الفرنسي ليون روش Léon Roches أن يحيط بكل ما يخص الإسلام من خلال رحلته إلى الحجاز، والتي تحمل عنوانA Travers L'Islam والتي امتدت على مدار اثنين وثلاثين سنة ابتداء من سنة 1832م، وقد كانت بتكليف من المارشال بيجو Maréchal Bugeaud، حيث كانت الانطلاقة من القيروان ثم مصر ليصل إلى المدينة المنورة في رحلة مع الحجاج عام 1257هـ/1841م، وقد تسمى باسم عمر بن عبد الله، زار المدينة المنورة وعاد إلى مكة المكرمة لكن تم التعرف عليه من بعض الجزائريين في جبل عرفات، ليتم القبض عليه من قبل جنود الشريف وأرسل على متن سفينة كانت ستغادر إلى جدة[2].

كذلك كانت البلاد العربية قبلة لعديد الرحالة الإنجليز والألمان، ومن الرحالة الألمان نجد إدوارد نولده Eduard von Nolde والذي زار بلاد المشرق العربي أواخر القرن التاسع عشر ميلادي وأدرج

[1] – ألكسي دو طوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال، تر: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2008، ص61.

[2] – ينظر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ليون روش، https://www.iicss.iq، أطلع عليه بتاريخ 2023/12/01 على الساعة 14.00

في ذلك مؤلفا عنوانه Reise Nach Innerarabien, Kurdistan Und Aremenien 1892، ترجمه إلى العربية تحت عنوان رحلة إلى وسط الجزيرة العربية وكردستان وأرمينيا في عام 1892، وكانت هذه الرحلة ذات دوافع سياسية، حيث وفد إلى البلاد العربية كمبعوث لروسيا، والتي ارتأت أن تتخذ لها مكانا في العالم العربي بعد كثرة التكالب عليه من قبل القوى الاستعمارية، فكان إدوارد واسطتها لاكتشاف بعض المناطق، فانطلق الرحالة من مرسيليا إلى بيروت ثم دمشق فالحيانية، ليسير بعدها إلى حائل ثم مخيم ابن رشد فمشهد علي، ونجده قد ذكر أدق التفاصيل عن نمط حياة العرب، وكيفية تنقلهم والتعداد الحربي لكل قبيلة، ونمط الحكم عندهم وغيرها من الأمور السياسية[1].

ونجد من الرحالة الإنجليز السير ريتشارد فرانسيس بيرتون Sir Richard Francis Burton، الذي تحمل رحلته عنوان Journey to Macca وترجمت الرحلة إلى العربية تحت عنوان رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، وخلال هذه الرحلة التي كانت العام 1853م قصد مصر، فتوجه إلى الإسكندرية واطلع خلال ذلك على الحياة الاجتماعية هناك، ثم تحدث عن شهر رمضان، إذ كان يصادف شهر يونيو في ذلك العام، ليرسم بعض الصور للمصريين خلال هذا الشهر، وأول ما أورده عنهم قوله: " المشكلة الكبيرة أن هذا الشهر الفضيل يجعل المسلمين غلاظ الطباع غير متسمين باللطف"[2]، ثم بعد ذلك يتحدث عن أثر الصيام مشبها ذلك بالصيام عند الكاثوليك ثم يتطرق لبعض عادات العرب في

[1] – ينظر: إدوارد نولده، الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر، تر: عوض البادي، دار بلاد العرب للنشر، السعودية، ط1، 1997م، ص 11-13.

[2] –ريتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ج1، تر عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1994، ص 71

هذا الشـهر، كما يشـير إلى جانب عقائدي آخر عند المسـلمين من خلال حديثه عن المسـجد، وبعد انتهاء شـهر رمضـان شد الرحال إلى القاهرة ومنها إلى السويس، ثم شرع في تصـوير مجريات الرحلة إلى الحج وأحداثها وطباع من رافقه في سفينة الحج وصولا إلى المدينة المنورة[1].

2..2 تاريخ الرحلة في الأدب العربي

عرف العرب الرحلة منذ العصـر الجاهلي، وهذا ما خلّده القرآن من خلال قوله تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾ (قريش: 1-2) ، كما كانت الأشعار التي وصلتنا من ذلك العصر شاهدا على تدوين الإنسان لرحلاته التي شكلت الصحراء وجهتها الأولى، وبعد أن مكن الله لدينه الجديد في الأرض وفي نفوس ساكنيها، بدأ الاهتمام بتدوين وكتابة الرحلات بشكل مستقل ابتداء من القرن الثالث الهجري، حيث نجد هشام بن محمد بن السائب الكلبي قد ترك لنا كتاب الأقاليم وكتاب البلدان الكبير.

أما في القرن الرابع الهجري فقد برز المسـعودي من خلال كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر، ومما أدرج فيه الأعلام الجغرافية والأمم والقبائل والدول والفرق التاريخية، كما نجد رحلة ابن فضـلان والتي كانت ذات دوافع دينية إذ قصـد بها تعليم الصـقالبة أمور الإسـلام ذلك أنهم حديثو عهد به، وقد خرج ابن فضـلان مع البعثة التي أرسـلها الخليفة العباسـي المقتدر من بغداد يوم 11 صـفر 309هـ الموافق لـ 21 حزيران 921م، وخلال هذه الرحلة مرّ ببلاد العجم والترك وروسيا والصقالبة والخرز،

[1] – ينظر: ريتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ج1، ص 85 وما بعدها

وبرز كذلك ابن حوقل بكتابه صـورة الأرض، وقد جمع في كتابه هذا وصـف مناطق من أوربا وافريقيا وآسيا، وقد اطلع ابن حوقل على كتاب المسالك والممالك لأبي اسحاق الفارسي المعروف بالإصطخري فكتبه من جديد محتفظا بعنوانه ونسبه إلى نفسه[1]، كما كان هناك كتاب صور الأقاليم لأحمد بن سهل أبو زيد البلخي، وكتاب عجائب البلدان لمسعر بن مهلهل أبي دلف.

وفي القرن الخامس كان هناك البيروني من خلال رحلته الموسومة بتحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة، فتحدث فيه عن أحوال الهند الاجتماعية والأدبية والدينية، وكان هناك أبو عبيد عبد الله البكري بكتابه المسـالك والممالك، والذي جمع فيه أخبار عديد بلدان العالم منها ما يقع في غرب القارة الافريقية، واعتمد في تدوين مادته العلمية على كتب من سـبقه من المؤرخين وأخبار التجار والمسافرين وكذلك على التاريخ، كما له معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع، وهو معجم لغوي يقول عنه صـاحبه: "هذا كتاب معجم ما اسـتعجم، ذكرت فيه إن شـاء الله جملة ما ورد في الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسـوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة"[2]، كما عمد فيه البكري إلى ذكر أسماء الأماكن بعد أن تعددت مسمياتها اثر اختلاف اللهجات، فكان مصدرا يتم الاحتكام إليه عند ذكر أخبار البقاع.

[1] – ابن حوقل النصيبي أبو القاسم، صورة الأرض لابن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د.ط، 1992م، ص 6.

[2] – ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط2، جمادى الأولى 1423هـ/ يوليو2002م، ص 326-327.

ثم حل القرن الســـادس الهجري والذي تميز بزخم كبير في الانتاج، حيث كثر الرحالة وتعددت رحلاتهم فهو عصر الانفتاح على الآخر خصوصا الفرس واليونان والهند، وهو عصر الترجمة وازدهار كافة العلوم، فنجد الادريسي قد وضع كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق والذي نقل من خلاله أجزاء من العالم إلينا عبر الرسم التخطيطي، ثم هناك رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لصاحبها أبي حامد الغرناطي، والتي تقع في أربعة أبواب فصلها صاحبها بين الدنيا وصفاتها وبين صفة عجائب البلدان ثم صـــفة البحار وأخيرا صـــفة الحفائر والقبور، وكذلك نجد له كتابا آخر هو المعرب عن بعض عجائب المغرب، وضمنه شيئا من أخبار البلدان والحياة والطبيعة[1].

ثم هناك رحلة ترتيب الرحلة للترغيب في الملة لأبي بكر بن العربي، حيث نجده أول من استعمل لفظ رحلة في تسمية مؤلفه، والمؤسف أن هذه الرحلة ضاعت فلم يصلنا إلا ملخص عنها، وهناك رحلة ابن جبير لأبي الحسـن محمد بن أحمد بن جبير والذي اعتمد التدوين الآني، فما كان يدخل مصـرا إلا ويدون تاريخ دخوله وخروجه منه، كما كان يســـجل تاريخ العادات التي يحييها أهل البلد، وقد حاول خلال تدوينه التنويع بين الأساليب السردية والقصصية[2]، كما نجد حضورا للأمير مجاهد بن أسامة بن منقذ من خلال رحلته الاعتبار، وتطرق فيها لبعض المدن الشامية من خلال العمران والتركيبة السكانية وأحوال الاقتصاد والثقافة كما عرج على أحوال الإفرنج.

[1] – ينظر: حسن بن جابر المدري الفيفي، نبذة عن تاريخ أدب الرحلة العربي القديم، https://faculty.ksu.edu.sa، أطلع عليه بتاريخ 2023/12/12 على الساعة 15.00

[2] – ينظر: المرجع نفسه، أطلع عليه بتاريخ 2023/12/12 على الساعة 15.00

أما القرن السابع الهجري فقد عرف نوعا من الفتور في مجال الرحلة، ذلك أن العالم الإسلامي تعرض لعدة هجمات من طرف الصليبيين والتتار، رغم ذلك نجد أبرز مؤلف في الجغرافيا، والذي أبدعه ياقوت الحموي وهو معجم البلدان، حيث قدّم له بمقدمة تحدث فيها عن أحوال الأرض، ثم بدأ في سرد مادته العلمية، والمعجم يقع في سبع مجلدات، كما برز العبدري من خلال رحلته التي حملت اسمه "الرحلة العبدرية"، وقد دونها أثناء مقامه بتلمسان، وصف فيها المغرب العربي ومدنه وطرقه وحياة المجتمع، وقد نشرت هذه الرحلة بالعربية في الجزائر سنة 1965م على يد أحمد بن جدو[1]، كما نجد تاريخ المستبصر ليوسف بن يعقوب الدمشقي، وهناك الرحلة المغربية لمحمد العبدري.

وخلال القرن الثامن الهجري برز ابن بطوطة برحلته التي انطلق فيها من طنجة قاصدا بيت الله الحرام، وقد استغرقت رحلته زهاء الثلاثين سنة، بعد أن صار يتوقف في كل مدينة يمر بها ويدرج وصفا دقيقا لعمرانها وأحوال أهلها، وقد أملى ما اطلع عليه على ابن جزي الكلبي، وبعد الانتهاء أسمى هذا المؤلف تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كذلك نجد ابن خلدون من خلال كتابه التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عرف بنفسه وذكر تنقلاته المختلفة إلى أرجاء واسعة من العالم الإسلامي، وهناك كتاب مختصر تاريخ البشر وكتاب تقويم البلدان لأبي الفداء[2]. وبعد القرن الثامن الهجري شهد العالم الإسلامي تكاثر الحروب عليه من قبل القوى المعادية للدولة العباسية، كما

[1] – ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 434–466.

[2] – ينظر: حسن بن جابر المدري الفيفي، نبذة عن تاريخ أدب الرحلة العربي القديم، أطلع عليه بتاريخ 2023/12/12 على الساعة 15.00

عرفت الدولة العباسية نفسها فترة فوضى وصراعات داخلية، أدت إلى تفككها، ولذلك قلّ إنتاج الأدب الرحلي في هذه الفترة، ومما نجده التحفة النابلسية في الرحلة الحجازية لعبد الغني بن اسماعيل النابلسي والتي قصد بها الحج وكانت سنة 1105هـ.

أما خلال العصر الحديث فقد توسعت الرحلات العربية، ولم تقتصر على العالم الإسلامي فقط بل وصلت إلى أوربا، خصوصا مع النهضة التي عرفها العالم العربي وانفتاحه على الآخر وكثرة البعثات العلمية، ومن أبرز مؤلفات الرحلة خلال هذا العصر، نجد تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة رافع الطهطاوي، ورصد فيه أحوال فرنسا وعاداتها بعد أن أمضى خمس سنوات هناك (1826-1831) في اطار رحلة علمية، كما دوّن فارس الشدياق الواسطة في معرفة أحوال مالطة، ودوّن محمد فريد رحلته التي قادته إلى تونس والجزائر وفرنسا تحت عنوان من مصر إلى مصر وكانت عام 1901م، وكتب حسن توفيق رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا وقد كانت رحلته بين 1887م- 1892م[1].

إن تتبع تاريخ الرحلات سواء الغربية أو العربية كشف عن زخم كبير وثراء من حيث الكم والكيف عكس مدى أهمية هذا النوع الأدبي، فلا نجد عصرا إلا وقد دوّن فيه أحد الرحالة مادته، وهذا يحمل في طياته دلالة على شغف الإنسان بالاستكشاف، وهوسه بمعرفة الآخر المشابه له أو المختلف عنه.

[1] – ينظر: حسن بن جابر المدري الفيفي، نبذة عن تاريخ أدب الرحلة العربي القديم، أطلع عليه بتاريخ 2023/12/12 على الساعة 15.00

II. أدب الرحلة المرتكزات وجدلية الذات والغير

3. دوافع أدب الرحلة:

إن المتتبع للرحلات وظروفها لا يجدها تمت اعتباطا وإنما كانت بفعل دوافع وأسباب يمكن إيجازها فيما يلي:

1.3 الدافع الديني:

يعتبر الحج من العوامل الأساسية التي تدفع الرحالة إلى شدّ رحاله إلى المشرق، فهو الركن الخامس في الإسلام فرضه الله على عباده المسلمين، وهو واجب إلزامي على المسلم الذي توفرت له الصحة والمال، ومن ذلك أيضا رحلة الإسراء والمعراج ورحلات الرسول ﷺ وأصحابه لتبليغ الإسلام إلى مختلف الأمصار، ويعتبر الجهاد كذلك من الدوافع الدينية للرحلة فهو سبيل لإعلاء كلمة الله.

وطبيعي أن الدافع إلى الحج هو طاعة الله، وكذلك التكفير عن الذنوب التي اقترفها المسلم، و"زيارة قبر الرسول ﷺ، والمزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء، في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها، ويعد هذا العامل من أقوى البواعث على

الرحلة فهو مبعث الحنين..."[1]. ويعد الحج ملهم الرحالة فبفضله تمّ " سرد كثير من القصص والأخبار التي سمعوها في طريقهم، ووصف المشاهدات التي رأوها في سبيلهم، ودَوَّنَ بعض الحجاج واسعي الثقافة مشاهداتهم بعد عودتهم، لينتفع بتجاربهم سائر المسلمين، ولتساعدهم على أداء مناسكهم، ومن ثمّ زخرت كتبهم بأحوال سكان البلاد، وطبيعة مزاجهم وأسس اقتصادهم، وينابيع ثروتهم ورخائهم"[2].

ونجد أن دافع ابن بطوطة في رحلته التي قام بها إلى المشرق عام 725هـ كان أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ، كذلك يعتبر الرّحالة محمد السنوسي من الذين حركتهم دوافع دينية ممثلة في الرغبة في زيارة بيت الله للقيام برحلته وتدوينها.

ومن الأمثلة على ذلك كذلك هناك "ناصر خسرو* (394هـ -481م) صاحب رحلة سفر نامة، والذي كان يعيش معيشة ترف وبطالة حتى سنة (437هـ -1045م)،نُظِر له في رؤيا شيخ طَلَب إليه أن يكف عن تلك الحياة وعن شرب الخمر، فسافر لتأدية الحج، وقام بهذه المناسبة برحلات طويلة في الشرق الأدنى"[3]، فقد عكف الرحالة خلال هذه الرحلة على وصف الأقاليم التي مرّ بها، وما عرفته تلك المناطق من كثرة سرقة واعتداء على قوافل الحجاج، يضاف إلى ذلك مظاهر الجهل، كما أشار إلى تنوع

---

[1]- نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، ط1،2008، ص27.

[2] – إبراهيم أحمد العدوي، ابن بطوطة في العالم الإسلامي، دار المعارف، مصر، د.ط،1954، ص8.

*–ناصر خسرو رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي اعتنق المذهب الشيعي له كتاب "الأسفار" دوّن فيه أخبار سفره في العالم الإسلامي.

[3] – حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية ودار نوبار للطباعة، القاهرة مصر، ط1، 1991م، ص19-ص20.

الاقتصاد بين الزراعة والتجارة، غير أن ما يُشْهَد له به في هذه الرحلة هو إمعانه في وصف المناطق المقدسة في شبه الجزيرة العربية، فقد وصف المسجد النبوي الشريف والمسجد الحرام والكعبة المشرفة وبئر زمزم[1]، لقد كانت هذه الرحلة سجلا تاريخيا، حفلت بعديد الأحداث السياسية التي عرفها القرن الخامس الهجري، وكشفت اللثام عن أوضاع البيئة الاجتماعية والدينية العربية.

2.3 الدافع العلمي:

يعدّ طلب العلم فريضة على كل مسلم، لذلك يستحب لطالب العلم أن يرتحل أينما كانت المعرفة، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: 122]، وبتتبع تاريخ الرحلة يلاحظ أنه و"ابتداء من القرن الثالث عشر بدأ طابع الرحلة في طلب العلم يطغى على نمط الرحلة، وما لبث أن اتسع نطاق انتشاره على مر القرون، حتى بلغ الأوج بوجه خاص في العهد التركي"[2].

وقد كانت الرحلة في طلب الحديث الشريف من لوازم طريقة المحدّثين ومنهجهم في التحصيل العلمي، قال يحي بن معين: أربعة لا تؤنس منهم رشدا حارس الدرب ومنادي القاضي وابن المحدّث

[1] – ينظر: عباس فضل حسين المسعودي وعلي منفي شراد الحساني، وصف بلاد العرب في القرن الخامس الهجري من خلال رحلة سفر نامة لناصر خسرو(ت481هـ/ 1088م)، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية،م8،ع1، جامعة بشار، جوان 2022،ص 167-168.

[2] – كراتشوفسكي اغناطيوس يوليانوفيتش، تاريخ الأدب الجغرافي، تر: صلاح الدين عثمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2 ،1987، ص401.

ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث[1]، فالمحدّثون أسهموا بنصيب وافر في تثبيت الرحلة كأساس علمي ضروري، ولم يقتصر دورهم على هذا فحسب، بل أسهموا في إنضاج أدب الرحلة بإنتاج نماذج طيبة منه، وكان الدافع لإنتاجها رغبتهم في بيان مدى ما كانوا يعانون في سبيل جمع الحديث الشريف، والرحلة في طلب الحديث ليست بالأمر السهل، فقد كانت رحلة المحدّثين تستغرق شهورا لسماع حديث واحد فقط، فقد تكبد الرواة مشقة السفر، وتحملوا الصعاب من أجل التثبت والتأكد من صحة الأحاديث.

وكان طالب العلم قديما يتعلم في بلاده، ثم يسافر وينزل بإحدى حواضر الوطن العربي، ويجالس أشهر علمائها، ويحضر دروسهم ويسعى إلى نيل إجازتهم، بل "إن هناك من العلوم الإسلامية ما يرتبط بالرحلة ارتباطا عضويا لا انفصام له مثل الجغرافيا، ولذلك نجد الجغرافيين المسلمين من الرحالة وأساسهم في كل هذا نيل الثواب والأجر"[2]، فالرسول ﷺ يقول :"ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ،وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ،وذكرهم الله فيمن عنده"[3].

---

[1] – الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تح نور الدين عتر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1975م، ص71–ص72.

[2] – حسين نصار، أدب الرحلة، ص 32.

[3] – النووي محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي ج17، المطبعة المصرية بالأزهر مصر، ط1 ،1349 هـ/1930م، ص21.

وتكلم ابن خلدون عن الرحلة في طلب العلم فقال :"الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال من التعلم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى روحا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها"[1].

ومن نماذج الرحلات العلمية تلك الرحلة التي قام بها المقري إلى المغرب الأقصى، بعد أن كان قد تلقى العلم على يد عمّه أبي سعيد المقريّ، انتقل من تلمسان مسقط رأسه إلى فاس للاستزادة في العلم من خلال لقاء العلماء، حيث مكث هناك مدة سبعة أشهر، ثم ارتحل إلى مراكش والتي كانت كذلك تعرف زخما علميا كبيرا، ليعود بعدها إلى فاس ويواكب حلقات الدروس العلمية واللقاءات الأدبية، وقد عرف عنه خلال هذه الرحلة، دقة الفكر والبحث في أصول المسائل وما تعلق بها من أحكام، وقد عاد بعدها إلى تلمسان، كما كانت له رحلة إلى الحجاز، وقد قال في معرض حديثه عن هذه الرحلة ورحلته إلى الحجاز: "فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد من لابد من لقائه من علمائه وصلحائه، ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء الله، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز، فلقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطي رويت عنه واستفدت منه"[2]، وقد كان لهذه الرحلة العلمية وغيرها من الرحلات الفضل الكبير في ترسيخ العلوم، وزيادة نشر اللغة العربية وازدهار الحياة الفكرية بما يحقق النفع للأمة الإسلامية.

[1] – ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومدرسة بيروت، لبنان، دط، دت، ص1044.

[2] – المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس، ج5، اللجنة المشتركة لنشر التراث بين حكومة المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، د.ط، 1400هـ/ 1980م، ص 74.

3.3 الدافع السياسي:

وتسمى "الرحلة الرسمية" أو "الرحلة الإدارية" وتمثلها الوفود والسفارات، التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات، أو لمناقشة شؤون الحرب والسلام، أو تمهيدا لفتح أو غزو[1]، وقد تكون هذه الرحلات بهدف التجسس والاستطلاع، حيث نجد أن الخليفة الواثق بالله قد كلف سلام الترجمان عام 841/227م برحلة إلى الصين وتحديدا إلى سد الصين لكشف حقيقة بناءه وما يدور حوله من قصص.

ثم إن حسن إدارة شؤون البلاد والعباد اقتضت وجود الرحلات "اقتضت ضرورة الحكم والإدارة، وتقدير الثروات وحجم الضرائب أن يكلف الحكام بعض الأشخاص بالقيام برحلات تفقدية لجمع البيانات والحقائق، وتقديم التقارير، وقد لعبت الرحلات دورا هاما في أدائه"[2]، هناك من الرحلات من تكون ذات طابع سياسي، لكنها تتعداه إلى غيره من ذلك :«إرسال البيروني إلى بلاد الهند من قبل محمود الغزنوي، وقد أثمرت عن معرفة شاملة ومباشرة بأحوال الهند الثقافية والبشرية والدينية، كما ظهرت في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"»[3].

وكذلك رحلة ابن بطوطة، فمعروف أن رحلة ابن بطوطة كانت دينية، لغرض أداء مناسك الحج ولكن رغبته في السفر جعلته يواصل الرحلة بعد فريضة الحج، ليختاره سلطان الهند كسفير له في الصين،

---

[1] – حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص 20.

[2]– حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص 91

[3] – عبد الله ابراهيم، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1 ،2001، ص91.

يقول ابن بطوطة: " بعث إلي السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة، فلبست ثيابه وقصدته... ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهده، وقال لي: إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولا إلى ملك الصين، فإنني أعلم حبك للأسفار والجولان، فجهزني بما أحتاج له..."[1]،فقد كانت رحلته ذات دافع ديني في الوهلة الأولى لتشمل عدة جوانب: علمية، إدارية....

وتمثل رحلة الجاسوس الإسباني دومينغو فرانثيسكو باديا Domingo Francisco Bdia (1767– 1818) نموذجا آخر من الرحلات ذات الدوافع السياسية، فقد دخل البلاد العربية متخفيا تحت اسم علي باي العباسي، وكانت انطلاقة رحلته من قادش في اسبانيا ليصل المغرب ومنها إلى المشرق العربي، بعد أن تعلم العربية وختّن نفسه، وسار منتحِلاً هيئة شريف حلبي في المغرب وحاج مغربي في المشرق، وكانت مهمّته إقناع السلطان المغربي مولاي سليمان بن محمد بقبول الحماية الإسبانية، وذلك هرباً من الطامعين الفرنسيين والإنكليز باحتلال المغرب كما قال للسلطان. وبعد أن فشل مخطّطه، أشعل فتنة داخلية كان هدفها إضعاف السلطان المغربي، وحصل على تمويل كبير لها من الملك الإسباني، فيما بعد عمل باديا في خدمة الفرنسيّين، وعرض مشروعه لاحتلال المغرب على نابليون بونابرت، وكان ذلك في 10 أيار/ مايو عام 1808، وبتشجيع من الملك كارلوس الرابع المخلوع. لكنّ نابليون شكّك فيه وبعث معه رسالة توصية إلى شقيقه جوزيف بونابرت. وقبل أن يباشر مهمّة لصالح الفرنسيين في العام

[1] – ابن بطوطة محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج1، ص202–203

1818، قام البريطانيون بتسميمه في دمشق بعد أن اكتشفوا شخصيته الحقيقية فدسُّوا له السمّ في فنجان قهوة[1].

لقد شكلت الرحلات السياسية في معظمها كنوزا استثمرها المستعمر في تحقيق مآربه وزيادة أهدافه التوسعية، من خلال ما تكشفه من مواطن قوة يتم تدبير الأمور للتعامل معها، أومن خلال كشف مواطن الضعف التي تستغل للولوج عبرها دون جهد كبير.

4.3 الدافع الاقتصادي:

تكون هاته الرحلات للتجارة وتبادل السلع أو فتح أسواق جديدة، وقد تكون هروبا من غلاء الأسعار والمعيشة، وجاء في القرآن الكريم أن قريشا كانت لها رحلتان يقول تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾ [قريش: 1-2]، والباحثون مُجمِعُون على أن هاتين الرحلتين كانتا للتجارة، ذلك أن أهل مكة كانوا تجارا بالدرجة الأولى، وكانت قوافلهم تتنقل بين مكة واليمن والشام.

وبمجيء الفتوحات الإسلامية اتسعت رقعت التجارة وتبادل السلع، والتاجر النشيط أصبح يتنقل من قطر إلى آخر دون أن يعيقه عائق، وكان التجار يمرون بالبلد ويتعرفون إلى أهله وعاداتهم[2]، وقد ساعد تدوين الرحلة على معرفة الطرق التجارية "معرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك، لوصف الطرق والمناخ والعديد من الأمور الأخرى، وذلك

[1] – ينظر: تيسير خلف، علي باي العباسي ... جاسوس إسباني في فلسطين عام 1807، https://www.alaraby.co.uk/، أطلع عليه بتاريخ 2023/12/03، على الساعة 15.00، 2022/08/06

[2] – نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل، بيروت لبنان، د.ط، 1987م، ص147.

لمعرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحج، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع، وكانت التجارة ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة"[1].

وقد وصف لنا الرحالة ماركو بولو هرمز في أواخر القرن الثالث عشر عندما زارها، حيث ذكر أن هذه المدينة تعتبر قبلة التجار من أنحاء مختلفة من العام، ومن هؤلاء تجار الهند الذين تتنوع منتجاتهم وبضائعهم، ففيها الأحجار الثمينة واللؤلؤ والحرير، هذه السلع يشتريها تجار هرمز ليعيدوا تحميلها وبيعها عبر أرجاء المعمورة، فهذا يوحي بالأهمية التجارية لهذه المدينة، بالإضافة إلى هذه المدينة توجد عدة مدن وقرى تخضع لسلطان هذه المدينة الفتية النشطة[2]، فالرحالة من خلال هذا الوصف أبان عن اهتمامه بالتجارة، حيث رصد تفاصيل رحلة هذه البضائع، كما قدم وصفا عاما عن الوضع الاقتصادي هناك.

ومن الرحلات الأوربية التي ترتبط كذلك بدوافع اقتصادية، رحلة البرتغالي فاسكو دا غاما والتي كانت سنة 1497م،إذ انطلق من موطنه إلى الموزمبيق في القارة الإفريقية ومنها إلى بلاد الهند، وحين وصوله الموزمبيق طلب من حاكمها مرشدا يساعده في الوصول إلى الهند من خلال قافلته البحرية فكان له ذلك، وهوما ساعد البرتغاليين على مواصلة اكتشاف هذا الطريق التجاري الهام، حيث أقاموا مركزا في مدينة كاليكوت سنة 1498م،وهوما سمح لهم باستغلال هذا الطريق في التجارة دون الطريق الشرقي

[1] – نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص46.

[2]– Marco Polo, Voyage and travels, London, Cassell, 1886, p47.

القديم، والذي كانت تسيطر عليه دولة المماليك بمصر[1] وهوما انعكس سلبا على الدولة فقد تضرر اقتصادها بشكل كبير، ذلك أن ضرائب عبور هذا الطريق البحري التي كانت تفرض على السفن الأجنبية كانت تساهم في تموين خزينة الدولة هذه الدولة.

والتجارة كانت من أهم الدوافع التي دفعت الرحالة " إلى تدوين رحلته حتى يعين القارئ على معرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك، لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى، وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحج، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع. وكانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة"[2]، وبذلك كانت التجارة من العوامل التي تشجع على الرحلات وتنشطها، كما أن" ازدهار الحضارة الإسلامية، وسيادة المسلمين في البر والبحر، وطبيعة الدين الإسلامي كل ذلك من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات"[3]. إذن فالرحلات ذات الطابع الاقتصادي غالبا ما تصاحبها دوافع سياسية، فهي تهدف إلى تحقيق نفع عام كما أنها تساهم في خلق روابط اجتماعية وثقافية تسهم في تكامل المجتمعات وتطور الحضارات.

5.3 الدافع الصحي:

[1] – ينظر: عبد الرحمان نواصر، دور رحلات "جون لويس بوركهارت" (1784– 1818م) في الكتابات التاريخية، مجلة دراسات تاريخية، م10، ع1، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، أفريل 2022، ص386.

[2] – نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص47.

[3] – زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي بيروت، د.ط،1981، ص6.

قد تكون الرحلة للعلاج وطلب الشفاء، فبعد حياة البدو والعيش في أحضان الطبيعة، تمركز معظم الناس في المدن، ومعها زادت تعقيدات الحياة فكثرت المشاكل، وأصبح معظم الناس يشتكون من الأمراض خصوصا النفسية منها، فينصحهم الأطباء بالقيام برحلة، وذلك بالانتقال من موطنهم إلى موطن آخر يكون أكثر هدوء لاستعادة عافيتهم، ونجد مثال ذلك عند عبد الرحمن بك سامي عن سبب رحلته، يقول: "إنني في أثناء الصيف الماضي بعد منحي الرخصة من الحكومة السّنية قصدت الأقطار السُورية حسب مشورة الأطباء لتغيير الهواء والترويح النفسي إثر ما ألمّ بي من انحراف الصحة ..."[1] .

6.3 دوافع أخرى:

إلى جوانب الدوافع الرئيسية هناك دوافع أخرى تجعل الرحالة يهمّ للقيام برحلة، من ذلك أنها قد تكون رغبة في التمتع بالحياة، فالرحالة يقومون أحيانا بالسفر بمحض إرادتهم دون دافع خارجي، ومنها ما يكون تسرية للحزن، مثلما فعل ابن جبير عندما توفيت زوجته وعظم حزنه، فلم يجد من يفرج عنه غير الشعر والرحلة، وقد نظم ديوانا شعريا خلال هذه الرحلة، ولعله أول ديوان عربي في رثاء الزوجة، وسماه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح"، وهذه الرحلة هي الثالثة له إلى المشرق وتوفي فيها بالإسكندرية[2]، وقد تكون الرحلة للتهنئة بأمر محبوب، فالسبب الذي جعل ابن جبير يقوم برحلته الثانية هو تهنئة القائد صلاح الدين لاستعادة القدس من أيدي الصليبين[3].

[1]– حسين نصار ،أدب الرحلة،ص47

[2] – المرجع نفسه، ص 46

[3] – المرجع نفسه، ص46.

ثم إن الرحلة الواحدة قد تضم أكثر من دافع، فالإنسان "بحاجة ماسة إلى الرحلة للانتقال وتحصيل خير الدنيا والآخرة، يتحرك وينتقل من مكان إلى مكان سعيا وراء الرزق أو عبادة لله، من نحو تحصيل علم نافع، وأداء فريضة الحج أو العمرة، أو ليزور أخا في الله بغرض الاطمئنان عليه، أو المشي لقضاء حاجة له، أو عيادة مريض اشتدت به علته، أو ليقف على آثار صنعة الله في خلقه، أو غير هذا –وهو كثير– من أغراض الرحلة والانتقال"[1].

ويحدد نوع الرحلة من خلال دافعها وتتباين أنواع الرحلة بتباين دوافعها، وهذا ما أوجد اختلافا بين الدارسين عند تصنيفها، فصلاح الدين الشامي يحصرها في ستة أنواع وهي: رحلة تجارة، رحلة حرب، رحلة سفارة، وهذه الرحلات الثالث ظهرت قبل الإسلام أما الرحلات الثلاث الأخرى التي ظهرت بمجيء الإسلام، وأضيفت إلى قائمة الرحلات فهي: رحلة الحج، رحلة طلب العلم، ورحلة التجوال والطواف[2]. أما محمد الفاسي فقد جعلها خمس عشرة نوعا، ولكن هناك تداخل بينها كالرحلة الدراسية والرحلة العلمية وكذلك بين الرحلة الرسمية والسفارية...، وهذه الأنواع هي: الرحلة الحجازية، الرحلة السياحية، الرحلة الرسمية، الرحلة الدراسية، الرحلة الأثرية، الرحلة الاستكشافية، الرحلة الزيارية، الرحلة العلمية، الرحلة المقامية، الرحلة الدليلية، الرحلة الخيالية، الرحلة الفهرسية، الرحلة العامة، الرحلة السفارية"[3].

---

[1]– عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط1، 1416هـ/ 1996م، ص8.

[2] – صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، مصر، ط2، 1999م، ص114.

[3] – المكناسي محمد بن عثمان، الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس، الرباط المغرب، د.ط،1965م، ص خ–ر

إذن تتعد دوافع الرحلة لدى الرحالة، وهذا الأمر شكل ضابطا في تحديد الطبيعة العامة للرحلة، ولو أن الرحالة كان يعمل على الإفادة بكل ما يلاحظه سواء كان دينيا أو اقتصاديا أو تعليميا أو غير ذلك، فالقول مثلا بالرحلة أنها علمية لا ينفي أن تتضمن بعض أمور الدنيا الأخرى.

4. أقسام أدب الرحلة:

إن تقسيم أدب الرحلة يخضع لجنس النوع الأدبي، وكذلك لنمط الكتابة، لذلك يمكن تقسيم أدب الرحلة إلى: رحلات نثرية وأخرى شعرية، كما يمكن تقسيمه إلى رحلات واقعية أو خيالية وأسطورية، وسنحاول تناول هذين النوعين بشيء من التفصيل.

1.4 الرحلات النثرية والشعرية:

طبع أدب الرحلة بطابع النثر، ذلك لما يوفره هذا الجنس من حرية في التعبير عن المشاهد، وعن خلجات نفس الرحالة، كما يكسبه فضاء رحبا يمكنه من توظيفه ملكته الأدبية واللغوية، لينتج لنا أدبا يرصد فيه ما عاينه، مستعينا في ذلك بنمطي الوصف والسرد بدرجة أكبر، ثم بقية الأنماط الأخرى بدرجة أقل، لكن هذا لا ينفي أن نجد في أدب الرحلة أنواعا شعرية، وقد تجسدت أكثر الرحلات الشعرية من خلال الشعر الجاهلي، وهذا نظرا لطبيعة الحياة القائمة على التنقل والترحال في ذلك العصر، طمعا في تحصيل أسباب العيش وحفظ النفس، فالشاعر الجاهلي كان يشق البيداء متأملا واصفا، معتمدا في ذلك على راحتله التي كانت رفيقه وأنيسه في جل مغامراته، من ذلك قول الشاعر عمرو بن قميئة[1]:

وبـيـداء يـلـعـب فـيـهـا السـرا ب يخشـى بهـا المـدلوجون الضـلالا

[1] – نور الدين السد، الشعرية العربية دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط،2017، ص128.

تـــجـــاوزتـــهـــا راغـــبـــا راهـــبـــا إذا مـــا الضـــبـــاء اعـتـنـق الـظـلالا

بضـــــامـــرة كـــأتـــان الـــثـــمـــيـــ ل عـريـانـة مـا تشـــكّـى الـكـلالا

فالشاعر يعبر من خلال هذه الأبيات عن إحدى رحلاته، فقد قاده المسير إلى الصحراء في شبه الجزيرة العربية، وخلال وصفه مجريات الرحلة، استعمل الشاعر بعض الألفاظ التي توحي بمدى المشقة التي كان يكابدها الرحالة قديما من ذلك (البيداء، الضباء)، بمقابل ذلك نكتشف الإصرار والعزيمة والشجاعة التي كان يتمتع بها الرحالة، إذ كان يغامر ويخوض أهوال هذه الصحراء دليل ذلك قوله تجاوزتها، من خلال هذا النموذج نجد أن الرحلة شكلت عند الشعراء الجاهليين جزء من قصائدهم، وكثيرا ما كان الشاعر يتناولها بعد المقدمة الطللية، ليجعل منها مفتاحا يصل به إلى الموضوع العام لقصيدته.

وقد ميز أبو القاسم سعد الله بين الرحلات الشعرية الجزائرية، فجعل منها المكتوبة بلغة فصيحة كرحلة محمد بن محمد منصور العامري التلمساني المسماة العامرية أو الهمزية نسبة إلى رويها، وتقع في 335 بيتا أتم كتابتها سنة 1162هـ وتقع ضمن ثلاثة أقسام كبرى، وهي قسم الرحلة من تازا إلى مصر الذي ضم بلدان المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا، يليه قسم ثان تناول السفر من مصر إلى الحجاز، ليأتي بعدها قسم ثالث يخص رحلة العامري إلى البلاد الشامية دمشق وبيت المقدس، ومنها المكتوبة بلغة عامية أي كشعر ملحون ونجدها عند محمد بن مسايب التلمساني تحت اسم يا الورشان يقول فيها[1]:

قم قبل طلوع الزهره واقطع تليلات وهبره

[1] – ابن مسايب، ديوان ابن مسايب، تح: الحفناوي أمقران وأسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1989م، ص 100-105.

مستغانم سلامي تقرا توصل القلعة بحصنها

وادها يسمى يلل تحتها بمياهو يهوطل

حاول من خلال هذه الرحلة الانتقال إلى البقاع المقدسة، ووصفها ذهابا وايابا مكلفا طائر الورشان وهو نوع من الحمام بأداء هذه الرحلة[1]، والرحلات باختلاف أنواعها، كانت رافدا لدراسة الأوضاع ومعرفة أحوال الأقطار.

2.4 الرحلة الواقعية والرحلة الخيالية:

الرحلة الواقعية هي تلك الرحلة التي عاشها الرحالة واقعا ضمن زمان ومكان معينين، وهذا النوع من الرحلات هو مكمن العناية بالدراسة والتمحيص، إذ تتعدد فروعه بتعدد الدوافع والأسباب، أما الرحلات الخيالية فتكون من نسج الخيال، تقع ضمن زمان ومكان متخيلين، أي يقوم بها الإنسان في مناطق غير حقيقة، كما تعمد إلى تصوير مغامرات خارقة بقصد التسلية وإثارة الخيال، مثال ذلك رحلات سندباد البحري[2]، وممن جسدوا هذا النوع كذلك الكاتب الفرنسي فرانسوا رابيليه في قصّة رحلات بانتاجرُويل، كما قصة تاريخ صادق للكاتب السوري الساخر لوسيان، وقصة رحلات سيرانو دي برجراك في كتابيه تاريخ مضحك للقمر وتاريخ مُضحك للشَّمس. ويندرج كذلك كتاب رحلات جلثر تحت هذا النوع من كُتب الرحلاتِ الخيالية التي تجمع بين الواقعية من جهة وما يُسمى بالفانتازي من جهة أخرى[3].

---

[1]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500–1830) ج2، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 1998م، ص388 وما بعدها.

[2]– مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 176

[3] – جوناثان سويفت، رحلات جلفر، تر: محمد رجا عبد الرحمن الديريني، مكتبة لبنان، لبنان، ط1، 1990م، ص XVIII.

وهذا النوع من أدب الرحلة ينضوي تحته نوعان هما: الرحلة العمودية وتشمل تلك الرحلات التي عالجت الجانب الغيبي، وحاولت الخوض فيه بشيء من التفصيل، ومن ذلك كتاب التوهم للمحاسبي حيث عالج فيه حال أهل النار وحال أهل الجنة، وكتاب رسالة الطير لابن سينا، ورسالة الطير للغزالي، وتم اعتماد سمة الحلم في سرد تفاصيلها، وقد حاولا الحديث عن المصاعب التي تعترض الباحثين عن طريق الله عز وجل، أما النوع الثاني من الرحلة الخيالية فهو الرحلة الأفقية، وهي تلك الرحلات التي أنتجها خيال الرحالة لكن في عالم موازي لعالمنا، ومن ذلك رحلة حي بن يقضان لابن طفيل ورحلة روبنسون كروزو لدانييل ديفو Daniel Defoe، فقد كانت مجريات الرحلتين ضمن الحيز الجغرافي البشري إلا أن غرضهما معرفي فلسفي.

إن تنوع أدب الرحلات فرض على الباحثين مزيدا من الجهد والتعمق في الدراسة، بغية الوصول إلى مسح شامل فيما يتعلق بخصائص هذا النوع من الأدب، غير أن ما تم الاتفاق عليه هو شموليته وتنوعه، ذلك أنه يلمّ بالتاريخ والجغرافيا والدين والاجتماع والسياسة. كذلك يعنى هذا الأدب بالوصف الدقيق، والتصوير الأمين والنقل الصادق، بدافع تحري الدقة تحريا علميا وموضوعيا، وهو ما يتجلى بالابتعاد عن الهوى والغرض الذاتي[1]، كما نجده يمزج بين الفائدة والمتعة بين العلمي والشعبي.

5. قيمة وأهمية أدب الرحلة:

ما من علم أو موضوع في هذه الحياة، إلا وله من الأهمية ما يأهله أن يكون شغف الباحثين ومحط اهتمامهم، ومن ذلك موضوع أدب الرحلة حيث يمكن ايجاز أهميته في النقاط التالية:

[1] –سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة مصر، د.ط، د.ت، ص 09

- اعطاء لمحة وتصورات حملها الرحالة عن بيئة زارها، مع الحرص على تدقيقها على اعتبار أن جل الرحالة تكون انطباعاتهم شخصية فتطغى عليها السلبية.
- تساهم في الكشف عن عدة جوانب في حياة الآخر، خصوصا الجانب الاجتماعي والثقافي، فأغلب الرحالة يلجؤون إلى تدوين أدق التفاصيل عن حياة الآخر، فيتم معرفة أحوال الناس ونمط عيشهم ومستواهم الثقافي.
- يمكن اعتبار كتب أدب الرحلة وثيقة تاريخية، فكثيرا ما يكشف الرحالة عن طبيعة الحياة السياسية التي صاحبت رحلته في تلك البلاد الأجنبية.
- ساهم أدب الرحلة في تجسيد جمالية الوصف، من خلال حسن اختيار اللفظ وحسن سبك العبارة ودقة توظيف الخيال، فعمل بذلك على نقل الصورة من الجانب المعنوي إلى الجانب الحسي وتقريبها إلى الذهن، كما نجد الرحالة في كثير من الأحيان يوظف في سرد رحلته أبياتا شعرية تسهم في اثراء الموضوع وتقريب المعنى، ويمكن القول أن أدب الرحلة ساهم في التقليل من الزخرفة اللفظية والحشو الذي تميزت به بعض النصوص، كونه نقل بسيط لمجريات حياة عاشها الرحالة، فهو" يزود القراء بمعلومات، وصور ممتعة وأخبار تلذ وتمتع، ويستعرض الأحداث بصورة أدبية تتسق مع النفس البشرية، فتشكل رافدا من روافد الفن والمتعة الأدبية"[1]
- تعتبر كتب أدب الرحلة منبعا للعلوم بشتى أنواعها، خصوصا الجغرافيا لما فيها من وصف للمسالك والطرقات التي سلكها الرحالة.

[1]– نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية في نهاية القرن التاسع، ص 54.

وفي هذا الصدد يجمع أحمد أبو سعيد فوائد الرحلة وكتبها فيقول: " فأما القيمة العلمية فهي تكمن في احتواء معظم هذه الرحلات على كثير من المعارف، والمدونات التي تمت إلى الجغرافية والتاريخ بأوثق الصلات، ففيها عدا عن ذكر ما قاساه كاتبوها من ألوان المتاعب والأهوال، صور وتقارير وافية عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعمرانية للعرب، ومن جاورهم من شعوب آسية وإفريقية وشطر من أمم أوربا، كذكر المعالم الأثرية ودرس العلاقات الاقتصادية ووصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقطار والمسالك والطرق، وغير ذلك مما لا يزال يعتبر حتى اليوم مرجعا أساسيا في دراسة وصف بعض البلدان الجغرافي والعمراني والاجتماعي والاقتصادي"[1]. إن أهمية الرحلات تنعكس من خلال ذلك الاهتمام بالغ بها، كذلك الإقبال المتزايد عليها من قبل الباحثين والدارسين ليتناولوها بالدراسة والتحليل.

6. ثنائية الأنا والآخر بين العرب والغرب في أدب الرحلة:

إن الحديث عن الأنا والآخر في أدب الرحلة، يحيلنا إلى جملة من المكاشفات تتجلى من خلالها تلك الرؤية التي يحملها الأنا لنفسه، من خلال تنقلاته عبر أرجاء مختلفة من وطنه، أومن خلال اطلاعه على الآخر الذي هو على تماس معه، سواء كان هذا الآخر يختلف عنه تماما أو يشاطره في جزء من الخصائص، ووجود الآخر الذي يقابل هذا الأنا ضروري وحتمي، فلولاه ما أمكن استجلاء الأنا إذ أن أحد الشروط الأولية لبناء وحدة بسيكولوجية اجتماعية هو إنشاء صورة الآخر، فبفضلها تتحقق نزعة الفرد خلف انشطار بين النحن والهم وإلى تثبيت الفروق بين هؤلاء وأولئك[2]، والعلاقة بين الطرفين علاقة

[1]– أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي دراسة ومختارات، ص 5–6.

[2] – إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرواية السورية، دار فضاءات، سوريا، ط1، 2019، ص 24.

تكاملية في جوهرها، إذ لا يمكن الكشف عن الآخر في غياب الأنا أو العكس، أما موضوعيا فهي علاقة تجاور وانجذاب، وكثيرا ما تكون كذلك علاقة تنافر وصراع، وإنّ من أبرز المواطن التي تتكشف فيها هذه الرابطة هي الاستشراق والاستغراب وما كان لأحدهما أن يتأصل وجوده لولا ثنائية الأنا والآخر.

فالأنا يعتبر الآخر المرآة التي يكشف بفضلها عن معالمه، فيعمل حينذاك إما على تقويمها لتصبح تماثل تلك الموجودة عند الأنا، أو يعززها لتضاهيها وتتحقق أفضليته، وهذا ما تحقق في باب الاستشراق ذلك أن أغلب المستشرقين حاولوا رسم صورة منبوذة للآخر خلال تنقلاتهم للبلاد العربية، ما جعل الأنا في كتابتهم في مكان رفعة وتتحقق بها القدوة ، فأغلبهم يقع موقعا سلبيا من الإسلام بالدرجة الأولى ومن كل ما هو عربي بالدرجة الثانية، أما الاستغراب فقد حاول تقزيم الأنا في كثير من الأحيان، وذلك من خلال نظرة الإعجاب المفرطة التي رصدها للآخر الغربي، ما جعله يسعى جاهدا للحاق به في كثير من الأحيان ولو على حساب مقوماته العربية ما يجعل هذا الأمر منبوذا.

وكثيرة هي الرحلات التي حاولت كشف صورة الأنا، فبالنسبة للرحلات العربية نجد أن أغلب الرحلات التي تمت قبل العصر الحديث، قد توغلت في الوطن العربي وحاولت استحضار الأنا العربية التي تجمعها اللغة والدين بينما تفرقها العادات والتقاليد، وحاولت هذه الرحلات إحاطة كل ما هو عربي بنوع من التقديس والتعظيم في بعض الأحيان، وبنوع من النفور والاشمئزاز أحيانا أخرى، من ذلك حديث ابن جبير عن مدينة دمشق العربية فيقول: " هي جنة المشرق ومطلع حسنه وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وهي عروس المدن التي استجليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجللت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان الكمين،... والله صدق من قال: إن كانت

الجنة في الأرض دمشق لا شكّ فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تساميها وتحاذيها"[1]، إن ابن جبير من خلال وصفه هذا يحاول ابراز جمال الطبيعة التي يعيش في كنفها الأنا، لذلك عمد إلى كشف محاسنها وتبيان كل جميل بها حتى يعطي تلك النظرة الجيدة عن الأنا ومواطن تواجده، كما وقف موقفا سلبيا من بعض العرب وخصوصا أهل بغداد، فقد رأى أنه قد سيطر عليهم الرياء وانعكس ذلك على تعاملهم سواء مع من هم من مثل مستواهم أومن هم أقل منهم.

وحين رصد ابن جبير للآخر المختلف عنه في العقيدة، والذي كان يقطن جزء من الأرض العربية تحديدا بعكة يقول: " وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجواري والمنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة... سككها وشوارعها تغصّ بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام تسعر كفرا وطغيانا، وتفور خنازير وصلبانا، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجسا وعذرة انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين فعادت مساجدها كنائس"[2]، من خلال حديثه هذا نجد ابن جبير قد أمعن في وصف الآخر في بعض الأحيان سلبا، حيث اعتبر أن استيلاء الافرنج على مدينة عكة ساهم في خلق الفوضى بها بعد أن كانت ذات نظام إسلامي، كما تعرف انتشار الجواري وهو نظام قضى عليها الإسلام منذ قرونه الأولى، كما عمت بها مظاهر الطغيان والظلم الذي اتسم به الآخر الصليبي في مقابل الأنا الذي عرف عنه الحلم والرأفة، وأشار إلى تسلط الآخر حين حول المساجد إلى كنائس، في حين حظي الآخر المختلف دينيا عند العرب بحرية المعتقد.

[1] –ابن جبير أحمد أبو الحسن، رحلة ابن جبير، دار صادر بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ص 211.

[2] –ابن جبير أحمد أبو الحسن، المرجع نفسه، ص 276

ومن الرحلات التي حفّت العربي بنوع من الرفعة رحلة أبو القاسم سعد الله التي جاءت تحت عنوان " رحلتي إلى المغرب" فذكر أن العربي المتمثل في صديقه المغربي كان صاحب جود وكرم فيقول: "وكما لم يبخل علي الزميل كريم بعلمه فإنه لم يبخل علي بطعامه، فقد دعاني للغذاء على مائدته وقد حملني من الفندق في سيارته إلى حيّ الليمون الجميل... وبعد التجول في حديقة المسكن توجهنا بالسيارة أيضا إلى منزل صهره، حيث تقيم أسرته مؤقتا في انتظار نهاية أشغال البناء، وهناك تناولنا الغذاء بالأيدي كعادة المغاربة"[1]، فقد حاول الرحالة إحالتنا إلى الجانب الإيجابي لهذا العربي حيث جمع بين كرمه وجوده حسن ضيافته.

ومن الرحلات التي عكست مظاهر الإعجاب والانبهار بالآخر المختلف رحلة " رحلاتي في العالم" لنوال السعداوي حيث تقول عند حديثها عن باريس: " الشوارع فسيحة والأشجار خضرتها قوية البيوت أنيقة شرفاتها تطل منها الزهور، لم أر بأي شرفة ملابس منشورة على حبل غسيل"[2]، إذن فالآخر هنا تحققت له أسباب الحضارة، فانعكس ذلك على مجتمعه الذي وفّر كل أسباب الراحة النفسية، في حين إذا نقلت هذه الصورة إلى موطن الأنا تجد الشوارع متسخة في أغلب الأحيان وما أكثر حبال الغسيل على الشرفات.

والأمر نفسه نجده عند رفاعة رافع الطهطاوي بعد رحلته إلى باريس وإقامته هناك مدة من الزمن يقول: " وفي هذه المدينة عدد فسحات عظيمة تسمى المواضع يعني الميادين كفسحة الرملية بالقاهرة،

[1] – أبو القاسم سعد الله، رحلتي إلى المغرب (تجارب في الأدب والرحلة)، ص 217.

[2] – نوال السعداوي، رحلاتي في العالم، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، د.ط، 2017، ص 36

في مجرد الاتساع لا في الوساخة، وعدّها خمسة وسبعون ميدانا"[1]،فهو يرى المدينة في غاية الجمال هذا الجمال الذي يبعث الراحة في النفس ويجعلك دوما في حنين إلى مثل هذه المناظر عكس المظاهر السائدة في وطن الأنا والتي تبعث على النفور وتحمل دلالة الجهل واللاوعي، هذا الجهل الذي كرّسته طبقة منغلقة على نفسها وتناقلته عبر الأجيال فكان سدا منيعا في وجه الانفتاح على الآخر واستيفاء الإيجابي منه وتوظيفه بما يتفق وعقيدتنا، كما نجده أسهب في الحديث عن عادات الأكل والطعام عند الفرنسيين والتي لم يعرفها وطنه بعد، فقد ذكر أن الفرنسيين يتحلقون حول المائدة، ويتم تناول الأكل في أواني غير تلك الأواني البسيطة البدائية التي اعتاد عليها في وطنه، كما يشير إلى تنوع الأطعمة في الوجبة الواحدة، ويذكر مسارعتهم إلى فعل الخيرات وكل ما فيه منفعة للمجتمع، وغيرها من الأوصاف التي تجعل الأنا العربية في موقف تأمل وإعجاب، يراد منه الرغبة في تصحيح الأوضاع في الوطن الأم لمواكبة هذا التطور والرقي.

ومن الرحلات العربية التي صورت الآخر الغربي بشيء من الإعجاب، رحلة الجزائري سفيان مقنين التي تحمل عنوان جزائري في الأندلس رحلة إلى الفردوس الموجود، ومن المظاهر التي شدّت انتباهه حرص هذا الغربي على العمل وحبّه له يقول: "مما لاحظته أن الناس تستيقظ مبكرا جدا لمباشرة أعمالها عكس ما يروج عن الإسبان من كسل وحب للقيلولة والانتقال (ولو أنّ هذه المظاهر موجودة أيضا)، وقد شاهدت كيف أن عازف القيثار في الشارع اتخذ مكانه المعتاد، على الساعة الثامنة إلا خمس دقائق تمهيدا لعزف مقاطع صباحية ملهمة، يمكن أن تنعش صندوقه الصغير الموضوع بجانبه ببعض

[1] – رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة مصر، د.ط، د.ت ص 81.

الملاليم"[1]، والواقع الذي عايشه الرحالة في الأندلس بعث مخيلته صورة الأنا المسكوت عنها التي تبحث دائما عن سبل العيش السهل، كما نقل صور إعجاب أخرى منها النظام السائد في الأندلس وكيف أن الكل يحترم القانون عكس العربي الذي يعيش فوضى في كل مسارات حياته بمقدوره تنظيمها لكنه يتغافل عن ذلك ويسير على نفس النهج.

أما الآخر عند الغرب فدائما ما يعتري الأخبار المنقولة عنه الزيف والتحريف، كما يتم النظر إليه بنظرة دونية فيها الكثير من الحقد والسخرية والتشكيك خصوصا ما تعلق بالجانب الإسلامي، لأن الأنا الغربية كانت دراستها للإسلام ومخالطتها أهله لأجل ضربه وكسره لا تمجيده والسير في طريقه، ومن ذلك نجد جورج أوغست فالين Georg August Wallin يتحدث عن دومة الجندل خلال عهد النبي ﷺ حيث كان يحكمها أكدير يقول: " قهر الأكدير وقتله المسلمون رجال الدين الجديد الذين دخلوا البلدة بقيادة عمر وعلي –على ما يرويه الأهلون– وفرضوا على المسيحيين اعتناق الإسلام"[2]، ليعود في موطن آخر بعد ذلك ويقول: " وقال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصن ... وكان النبي وجّه إليه خالد بن الوليد من تبوك وقال له: ستلقاه يصيد الوحش وجاءت بقرة وحشية فحككت قرونها بحصنه فنزل أكدير إليها ليلا يصيدها فهجم عليه خالد بن الوليد فأسره وقتل أخاه حسان ن عبد الملك، وافتتحها عنوة، وذلك في سنة تسع للهجرة"[3].

[1] – سفيان مقنين، جزائري في الأندلس رحلة إلى الفردوس الموجود، الجزائر تقرأ، الجزائر، 2018، ص 74.

[2] – جورج أوغيست فالين، صور من شمالي شبه جزيرة العرب منتصف القرن 19، تر سمير سليم شلبي، منشورات أوراق لبنانية، بيروت لبنان، ط2، 1981م، ص 53.

[3] – المرجع نفسه، ص 63.

ما يلاحظ في هذه الأخبار التي نقلها فالين عن الفتح الإسلامي هو التعارض الصارخ، ففي الأولى يقول أنّ من فتحها علي وعمر ثم يستشهد بقول السكوني على أن فاتحها خالد بن الوليد، كما أن قوله بفرض اعتناق الاسلام على المسيحين فيه إشارة إلى الإكراه والإجبار، وما ثبت أبدا أن الرسول ﷺ أو غيره من التابعين أجبر أحدا على دخول الإسلام إلا عن طيب خاطر.

كذلك نجد من الرحالة الغربيين الذين أعلوا من شأن الأنا وحطوا من قيمة الآخر ألفونسو دوديه Alphonse Daudet الذي زار الجزائر تحديدا مليانة، وخلال حديثه عن الأمير عبد القادر يقول: "وصل الفرنسيون وكان السيد عمر عدوا لفرنسا وحليفا لعبد القادر، انتهى الأمر بخلاف مع الأمير وانضمامه إلى فرنسا، ولكي ينتقم دخل الأمير مليانة بغياب السيد عمر، ونهب قصره وقام بسحق رأس والدته تحت غطاء كبير"[1]، رغم جميع القيم النبيلة التي عرف بها الأمير عبد القادر سواء أثناء مقاومته أو بعدها نجد الرحالة هنا قدم عنه صورة سوداوية تنم عن كثير من البشاعة وانعدام الإنسانية، وفي الحقيقة أن تلك الهمجية التي وصف بها الرحالة الأمير عبد القادر نفسها تجسدت عند الأنا الفرنسي من خلال جملة المجازر التي ارتكبها في الجزائر، كما تحدث عن بعض عادات النساء وطريقة لباسهن بأسلوب يوحي بالسخرية، كما أشار إلى المسجد بعبارات تحمل في طياتها كرها شديدا لكل ما له علاقة بالإسلام.

ورؤية الأنا للآخر أو العكس في أدب الرحلة تتراوح بين الاندماج والتعاطف وذلك حين يتقبل كل منهما الآخر، ويحاولان فهم بعضهما، وبين المواجهة وذلك حينما تغيب الموضوعية في الوصف وتترسخ

[1] – Alphonse Daudet, lettres de mon moulin, Dar Sader, Bierut, 2000, p385.

الذاتية فتتجسد تلك الصور النمطية التي تعلي شعور التفوق، بيد أن هذه النظرة الأخيرة بدأت تتلاشى في الكتابات الرحلية المعاصرة.

الفصل الثاني تيوفيل غوتييه بين أحضان الجزائر

I. بين تداعيات احتلال الجزائر والرؤية الفرنسية للعاصمة الجزائرية

1. احتلال الجزائر دوافعه وظروفه من منظور فرنسي
2. مدينة الجزائر العاصمة من خلال رحلة تيوفيل غوتييه
   - 1.2 الطبيعة والعمران
   - 2.2 الواقع الاجتماعي
   - 3.2 الواقع الاقتصادي
   - 4.2 الواقع الثقافي والديني

II. البليدة وقسنطينة في مرآة تيوفيل غوتييه

3. مدينة البليدة من خلال رحلة تيوفيل غوتييه
   - 1.3 الطبيعة والاقتصاد
   - 2.3 الواقع الاجتماعي
   - 3.3 الواقع الثقافي والديني
4. تمثلات مدينة قسنطينة في رحلة تيوفيل غووتييه
   - 1.4 الطبيعة والعمران
   - 2.4 الواقع الاجتماعي
   - 3.4 الواقع الثقافي

I. بين تداعيات احتلال الجزائر والرؤية الفرنسية للجزائر العاصمة

1. احتلال الجزائر دوافعه وظروفه من منظور فرنسي:

يعتبر القرن التاسع عشر انطلاقة تجسيد الأطماع الغربية في البلاد العربية والإفريقية، وكانت تعتبر فرنسا إحدى القوى الكبرى آنذاك التي سعت لفرض سيطرتها على عديد الدول الإفريقية، وكانت الجزائر من الدول التي وقعت تحت جبروتها، وقد حاول الرحالة الفرنسيون خلال رحلاتهم إلى الجزائر رصد أسباب هذا الاحتلال وسيرورته، ومنهم من راح يرصد أحوالها حتى قبل بدايات الاستعمار الفرنسي، من ذلك ما أورده إدموند لامبير Edmond Lambert حين لقّبها بالمدينة الإفريقية الكبرى، فنقل عن سولين أن سبب التسمية يعود إلى مرور هرقل من هذا المكان، وتخلي عشرون رجلًا من أتباعه عنه، إذ اختاروا موضع المدينة وأقاموا أسوارها، وحتى لا يفتخر أيٌّ منهم بربط اسمه بهذه المدينة الجديدة، أطلقوا عليها تسمية لا تذكّر إلا بعدد مؤسسيها "عشرون" ثم بعد ذلك سميت إيكوزيوم وبعدها جزائر العرب، لينسبها هذا الرحالة بعد ذلك إلى فرنسا فقال جزائرنا[1]، وكأن الفرنسيين قد اقتنعوا وهم في طور انجاز مخططات الاحتلال أن الجزائر ستكون لهم إلى الأبد ودون شك في ذلك.

أما عن أسباب الاحتلال فاتفق أغلب الرحالة على أن السبب الوحيد لذلك هو حادثة المروحة الشهيرة، وذكر إدوارد لامبير جذور هذا الخلاف، وحسبه أنه كان لعائلة بكري في الجزائر دين على

[1] – L'Abbé Edmond Lambert, A travers l'Algérie histoire, mœurs et légendes des arabes, rené Haton libraire éditeur, paris France, 1884, p 187.

فرنسا قدره 700000 فرنك وذلك مقابل تزويدها بالحبوب. وقد كان عدد كبير من الفرنسيين مدينين لهذه العائلة لذلك تم نقل الأمر إلى المحكمة للفصل فيه. في ذات الوقت كان الداي حسين بن حسن، مدينا لعائلة بكري، فأراد أن يُسلَّم المال إليه مباشرة، فكتب بهذا الخصوص إلى الملك شارل العاشر غير أن الملك لم يرَ من المناسب الرد عليه، وفي 30أبريل 1829، عشية العيد، ذهب القنصل السيد دوفال لتهنئة الداي حسب العادة. فسأله الداي حسين إن كان قد جاءه برسالة من الملك، وعندما أجابه بالنفي ضربه علناً على وجهه بمروحة من ريش الطاووس، عندها أجاب القنصل بأن هذه الإهانة إنما وُجهت إلى فرنسا نفسها، لكن الداي، بدلاً من أن يهدأ ويفكر في عواقب تصرفه، أمر رسمياً السيد دوفال بمغادرة قاعة الاستقبال[1]. من خلال سرد معظم الرحالة لهذه الحادثة، فقد جعلوا منها السبب الوحيد والحجة الدامغة التي ارتكزت عليها فرنسا في احتلالها للجزائر، وكأن هذا الاحتلال جاء لرد اعتبار فرنسا.

إن هذه الذريعة في الاحتلال، جعلت الرحالة الفرنسيين يحيدون عن ذكر الأسباب الخفية والحقيقية للاحتلال، ومنها اعتقاد فرنسا بحصولها على غنيمة قدرها 150 مليون فرنك كانت متواجدة بخزينة الداي[2]، كذلك رغبة الرأسماليين الفرنسيين في فتح أسواق جديدة خارج فرنسا والعثور على مواد خام لتجسيد مشاريعهم، بالإضافة إلى ما نشره السيد تاليران Talleyrand عام 1797م من خلال دراسة له عن الامتيازات التي ستجنيها فرنسا حين إنشاء مستعمرات جديدة، فقد قال وزير

[1]– L'Abbé Edmond Lambert, A travers l'Algérie histoire, mœurs et légendes des arabes, p188

[2] – Julien Charles André, histoire de l'Algérie contemporaine, presse universitaire de France, paris France, 1964, p 33-34

الحربية آنذاك كليرمو تونير (Clermont Tonnere) للملك: "توجد مراسي عديدة على سواحل الجزائر الطويلة، التي يعتبر الاستيلاء عليها فائدة كبيرة لفرنسا، كما تحتوي أراضي الجزائر على مناجم غنية بالحديد والرصاص، ويتوفر فيها الملح والبارود بكمية هائلة، وتوجد في شواطئها ملاحات غنية"[1].

ومن الأسباب السياسية انهزام الجيش الفرنسي وفشله في احتلال مصر، مما دفع بنابليون إلى التفكير في إقامة محميات عسكرية تمتد من المغرب إلى مصر، فقام الضابط بوتان Boutin بتسليمه مخططا لاحتلال الجزائر برا عام 1809م، وحين شعر الملك بضرورة إلهاء الجيش حتى لا ينقلب ضده أقر بالتوسع في إفريقيا، واحتلال الجزائر وتحقيق انتصار باهر[2]، يضاف إلى ذلك ما ذكره وزير الحربية كليرمون Clerment من خلال التقرير الذي رفعه إلى مجلس الوزراء الفرنسي بتاريخ 14 أكتوبر 1827، حيث قال: ربما يكون من خضنا أن نبدلهم مع الوقت وذلك بجعلهم مسيحيين[3]، إذن فاحتلال الجزائر جاء نتيجة عديد الأسباب، فالجزائر شكلت هدفا لفرنسا لابد من بلوغه منذ زمن بعيد.

وتبعا لهذه الأسباب قامت فرنسا بالدعوة إلى تجميع أسطول بحري بتاريخ 30 أفريل 1830، هذا الأسطول كان يتكون من 104 سفينة محملة بجيش قوامه 40,000 جندي[4]، ووُضع تحت إمرة

---

[1] – عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1997، ص85.

[2] – Claude Bontemps, manuel des institutions algériennes de la domination turque à l'indépendance, paris France, 1976, p90-93.

[3] – ينظر: عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ص257.

[4] – Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, Adolphe Jourdan, Place de gouvernement Alger, 1881, p6.

الكونت دي بورمون de Bourment وزير الحرب؛ أما نائب الأميرال دوبري Daubrée فقد تسلّم القيادة بعده، كانت القوات متجمعة في طولون وفي المعسكرات المجاورة، في 11 ماي أصبح الأسطول جاهزاً للإبحار، في 17 ماي كانت جميع القوات قد صعدت على متن السفن؛ غير أن الرياح المعاكسة حالت دون الإبحار مدة ثمانية أيام. وأخيراً، في 25 ماي بعد الظهر أبحر الأسطول، وفي مساء 30 ماي لم يكن يبعد سوى بضع فراسخ عن الجزائر، حين أجبر سوء الأحوال الجوية الأميرال على التوجه إلى بالما، حيث اضطر للبقاء إلى غاية 10 جوان بسبب غياب الرياح، وفي 14 جوان عند الثالثة صباحاً، تعرفت باخرة بخارية على شبه جزيرة سيدي فرج، وعند الخامسة صباحاً وصلت الفرقة الأولى إلى اليابسة دون أن تواجه أي مقاومة؛ ثم تبعتها الفرق الأخرى تباعاً[1]، من خلال ما أورده الرحالة يتضح حجم الإمكانيات التي سخرتها فرنسا لاحتلال الجزائر، إذ كانت تحاول الاستيلاء عليها بشتى الطرق، فقد كانت ترى فيها المنفذ الوحيد لجل المشاكل التي كانت تتخبط فيها.

بعدها بدأ تحرك الجيش نحو الجزائر في 25 جوان، فعند السابعة صباحاً، اشتبكت طليعته مع قوات الجيش التركي المتمركزة على طريق قصر الداي، والتي انسحبت بعد وقت قصير، فُتحت الخنادق أمام حصن الداي في ليلة 29 إلى 30 جوان، ومنذ ذلك الحين لم تتوقف الأعمال لحظة واحدة، في4 جويلية قبل الفجر عند الساعة الرابعة صباحاً بدأ القصف. وردّ العدو عليه طوال ثلاث ساعات بنشاط كبير، بعدها انسحب المدافعون إلى داخل المدينة مثبَطي العزيمة، فأمر الداي بتفجير مستودع البارود بالقلعة، وعند الساعة الثانية بعد الظهر، ظهر مبعوث فوق الأنقاض كان سكرتير

[1] – L'Abbé Edmond Lambert, A travers l'Algérie histoire, mœurs et légendes des arabes, p 189

الداي، الذي عرض تعويض فرنسا عن نفقات الحرب، لكن القائد العام الفرنسي أجاب بأنه لا بد أولاً من تسليم القصبة والحصون والميناء للقوات الفرنسية. فعاد المبعوث إلى الجزائر[1]

وبعد وقت قصير، أرسل الداي اثنان من أعيان المور الأغنياء في المدينة إلى القيادة الفرنسية، طلبا من الجنرال الفرنسي وقف إطلاق النار، متعهدين بأنه ابتداء من تلك اللحظة ستصمت مدفعية المدينة، وهكذا تم التوصل إلى هدنة، واستفاد الجنرال فلازي Général Fleury منها لفتح طرق الاتصال أمام حصن الداي، ثم وُقعت اتفاقية الاستسلام يوم 05 جويلية وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً، كان العلم الفرنسي قد رُفع على أبراج المدينة[2]، إذن رغم المقاومة التي أبدتها مدينة الجزائر ضد هذا المحتل إلا أنها لم تتمكن من الصمود في وجهه نظير العدة التي كان قد جهز نفسه بها، هذا الأمر عجّل بسقوط بقية ضواحي الجزائر العاصمة وبالتالي بداية إعلان نهاية فترة الحكم العثماني في الجزائر، مما فتح المجال للسيطرة الفرنسية وبداية التنكيل بهذه الأرض واستغلال خيراتها واستعباد شعبها.

2.مدينة الجزائر العاصمة من خلال رحلة تيوفيل غوتييه:

يعتبر تيوفيل غوتييه* "Théophile Gautier" أحد أبرز وجوه أدب الرحلة في فرنسا، إذ كانت له عديد الرحلات إلى مختلف الأقطار ومنها الجزائر حيث زارها صيف 1845م، ومكث بها

[1]– L'Abbé Edmond Lambert, A travers l'Algérie histoire, mœurs et légendes des arabes, p 191–190

[2] – Ibid, p192.

* تيوفيل غوتيه Théophile Gautier رحالة فرنسي ولد في 30 أوت 1811 وتوفي في 23 أكتوبر 1872 بفرنسا زار الجزائر سنة 1845م

مدة ثلاثة أشهر، وقام بتدوين هذه الرحلة عام 1865م، وورد في تقديم هذه الرحلة من النسخة المترجمة أنّ الرّحالة قد وضع عنوان لهذه الرحلة يحمل اسم رحلة شائقة إلى الجزائر– مدن الجزائر ووهران وقسنطينة ومنطقة القبائل " Voyage pittoresque en Algérie, Alger, Oran, Constantine, La Kabyle" لكن هذه الرحلة تأجل صدورها عشرون عاما وحملت عنوان Théophile Gautier, Loin de Paris, éd. Michel Lévy frères, 1865.[1]

1.2 العمران والطبيعة:

يستهل تيوفيل غوتييه وصفه لمعالم الجزائر العاصمة منذ أن كان على سفينة الفارامون، وهي السفينة التي كانت تقلّه إلى الجزائر، وأول ما رآه كان قمم جبال الأطلس، والتي أبصرها بعد الاستعانة بمنظاره الصغير، حين ذاك قال الرحالة: "سنحل بين تلك الشعوب السمراء والسوداء التي تختلف عنا بالملبس والعادات والدين، بقدر ما يختلف النهار عن الليل. سنحل بين أحضان هذه الحضارة الشرقية التي نسميها، بهذه الثقة الزائدة في النفس التي تميّزنا حضارة بربرية"[2]، أول ما يلاحظ على الرحالة من خلال هذا القول، إدراكه التام بأنه على أعتاب دخول عوالم تختلف عن تلك التي تعود عليها في موطنه على مختلف الأصعدة، كذلك يؤخذ من قوله هذا تمسكه بالعنصرية التي ما فتئ يبثها حول الجزائر من خلال نعتهم بالبربر.

[1]– تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، تر محمد بنعبود، دائرة الثقافة والسياحة مشروع كلمة، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2019، ص17.

[2] – المصدر نفسه، ص38.

بعد تقدم السفينة بدأت تتضح معالم خليج الجزائر، فلاح من بعيد رأس بيسكاد والتي تمثل اليوم بلدية الرّايس حميدو، وكذلك رأس ماتيفو والتي تسمى اليوم بلدية برج البحري، بينهما توجد مدينة الجزائر أو الدزاير، تقع بين خندقين تلمح بجانبهما نخلتان وأربع طواحين هواء، وفسّر الرحالة دلالة كل من النخل والطواحين، فرأى أن النخلة شعر الصحراء والحياة البطريركية، والطاحونة الهوائية شعار أوروبا والتحضر[1]، وكأن الرحالة في نسبه الطاحونة إلى أوروبا يشير إلى أن أهل أوربا هم أصحاب الحضارة فقط، وهذا ما يسعون إلى نقله لهذا الجزء من العالم الذي يتميز بتخلفه.

رسم لنا الرحالة معالم مدينة الجزائر وهيكلها، فهي مدينة شيدت في شكل مدرج على منحدر شديد الوعورة، والمنازل تبدو وكأن بعضها يضع أقدامه على رؤوس بعضها الآخر، أو كأنها مقلع حجارة في الهواء الطلق، أو مثل ركام من عجائن شديدة البياض، ثم تظهر كذلك صومعة مسجد وقبة ضريح، وهناك القصبة وقصر الجنينة، إن هذه المظاهر العامة التي ساقها الرحالة بالوصف تجعلك تحس أنك أمام فوضى هندسية، بعد ذلك حاول رسم صورة للجزء الفرنسي من مدينة الجزائر، فالمنازل الفرنسية التي شيدت على أرض الجزائر ذات أسطح قرميدية، مصاريع نوافذها خضراء، وما زاد من جمال المنظر طيور السنونو التي تحلق في السماء مصدرة صيحات الابتهاج[2]، هذا الوصف إنما هو ترسيخ لفكرته العنصرية الأولى التي حاول بثها ألا وهي تحضر أوربا أو الغرب وتخلف الجزائر والشرق.

[1] - ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص40.

[2] - ينظر: المصدر نفسه، ص40.

ثم يواصل الرحالة وصف معالم مدينة الجزائر العاصمة من ذلك الواجهة البحرية والتي كانت تعتبر آنذاك المنفذ الوحيد الذي يسلكه قاصدي المدينة، فأشار إلى أن هذه المدينة لها بابان هما باب الميناء وباب البحر وكلاهما يقود إلى ساحة الحكومة[1] والتي تسمى الآن ساحة الشهداء.

رسم الرحالة صورة عامة لهذه الساحة التي أنشأها الفرنسيون، من ذلك أنها تعج بالحركة وفيها من الازدحام ما يجعل الشخص يصاب بالدوار خصوصا لمن يقصدها أول مرة، كما ذكر أن تشييد هذه الساحة جاءت على أنقاض أكواخ وحوانيت ودكاكين كانت قد شيّدت عام 1830، لكن بشكل هندسي بشع مما استدعى ازالتها[2]، وفي قوله هذا إشارة إلى الاستخفاف بنمط العمران العربي والجزائري خصوصا، فنجده قد قدم نقدا لاذعا لنمط الأقواس الذي تشتهر به مدينة الجزائر فيقول: "يا أيّتها الأقواس اللّعينة، هل نحن منذورون للعثور باستمرار على انحناءاتك المعيبة ودعاماتك غير المناسبة"[3]، ولأنه كان فنانا كان دقيق الملاحظة لأبسط التفاصيل، في مقابل هذا النقد نجده يثني على بعض العمران من ذلك القصر القديم للداي والمسجد الصغير.

وينطلق الرحالة في عقد تشبيهات لساحة الحكومة فمرّة يراها أشبه بمأوى للإيطاليين ومرة بأوبرا في الهواء الطلق، أما الفرنسيون فيرونها كتورتونيه أو شارع الإيطاليين أو ممر تويلري بباريس، وهي عند الإسبان كلابويرتاديل سول والبرادو بمدريد، وعند الإيطاليين كالكورسو، أما عند الجزائريين فهي

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 43.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 44.

[3] – المصدر نفسه، ص 44

كالفندق[1]، تعدد الرؤى يكشف لنا عن تنوع الأجناس البشرية التي كانت تعيش في الجزائر في تلك الفترة فقد كانت تمثل قبلة لعديد الزوار من مختلف مناطق العالم.

كما أشار تيوفيل غوتييه إلى جمال مدينة الجزائر، خصوصا إذا كانت النظرة من عال: " لم نعثر على أيّ غرفة شاغرة في فندق ريشليو فذهبنا إلى فندق الحكومة الذي يقع في الساحة الحاملة للاسم ذاته، ...، بإمكاننا من سطح هذا الفندق أن نستمتع بالحركة الدائبة والمختلطة للمتجولين. منه نرى قباب المسجدين المصبوغة بالجبس، والفنار، والسفن التي تستعد للإبحار، ومراكب البخار التي أدارت محركاتها لتحمى، الزوارق الراسية"[2]، فقد رسم هنا لوحة هندسية عمرانية إذ سعى من خلالها إلى تبسيط المواضع لتكون دليلا ينتفع به لتحقيق أجندات فرنسية قادمة. وذكر أن المدينة قد قسمت إلى قسمين الأول يمثل أعلى الجبل وهو ذو طابع بدائي أصيل، وفيه متاهة معقدة من الشوارع والأزقة والممرات، أما القسم الثاني فهو في سفح الجبل قرب المرسى أين يتواجد الأوربيون.

شرع الرحالة في وصف الجزء الأول منها، فذكر أن الشوارع هنا لا يتجاوز عرضها خمسة أقدام أو ستا، أما المنازل فهي في تماس دائم مع بعضها مما يغيب التناسق بينها، كما أن الجانب الهندسي مهمل تماما، فعند الإمعان في طريقة البناء يلاحظ على جل المنازل انعدام التنظيم، فليست على اصطفاف واحد، يضاف إلى ذلك أن المنازل تتميز بصغر الغرف، وهي واسعة في الأعلى ضيقة في الأسفل، وغالبا ما تتشابك هذه البنايات مع بعضها على رؤوس المارة كأنها قباب، ومن الميزات التي شدت انتباه الرحالة في البيوت الجزائرية انعدام النوافذ المطلة على الشارع، وقد برّر

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 45.

[2] – المصدر نفسه، ص 48

تيوفيل ذلك بقوله: "فلا يكترث مسلمو شمال أفريقيا وهم الشعب الأقل فضولا في الدنيا، لا بأن يروا ولا بأن يُروا، ولذا فإنهم قليلا ما ينشؤون فتحات إلى الخارج، فهم ينيرون داخل منازلهم عن طريق الفناء الموجود وسط الدور"[1]، هذا الوصف يكشف عن طبيعة العمران التي تميز أهل الشرق عن الغرب، كما يطلعنا هذا النمط من العمران على مدى محافظة العائلات الجزائرية، فهي تعتبر ما داخل البيوت أسرارا لا يجب أن تكشف لغريب.

أما الطرق فلم يكن للجزائريين قبل بها، وهذا حسب قوله: "وبما أنه لم يكن من وجود قبل الغزو الفرنسي لشبكة طرق كبيرة ولا صغيرة، فإنك تلقى في كل لحظة نتوءات... وانعطافات غير متوقعة"[2] وفي هذا رسالة ضمنية من الرحالة لفضل فرنسا، فدونها كانت الجزائر ستغرق في فوضى الطرق والمعابر، وقد عمل الرحالة على رصد حالة الشوارع ليلا خلال جولته التي قام بها في المدينة عشية وصوله، فهي حسبه ضيقة لا يمكن لشخصين المرور من خلالها، تضيئها فوانيس ذات نور قليل وأحيانا تنعدم هذه الفوانيس فيكون الدليل هو تلمس الجدران، هذا هو حال الطرق التي تقود إلى المدينة العتيقة قرب القصبة[3]، كذلك رصد لنا المقهى الذي قصده رفقة أصدقاءه والضابط الفرنسي وأهم ما شد انتباهه طبيعة المكان الهندسية وتفصيلاته، فهو ذو سطح متدني يكاد يدفعه براحة كفه إذا استقام، يتم الجلوس فيه على حصائر، الضوء فيه خافت، تميزه الحرارة الشديدة[4]، صورة تتجسد من خلالها تلك النظرة الدونية لكل ما هو جزائري.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص51.

[2] – المصدر نفسه، ص 50.

[3] – المصدر نفسه، ص 51.

[4] – ينظر: المصدر نفسه، ص54، 55.

ونجد أن الرحالة وقف مستغربا من الطبيعة الهندسية لمدينة الجزائر، فذكر أن الفرنسيين قد واجهوا مشكلة كبيرة في بداية غزوهم، إذ شكلت لهم هذه الشوارع متاهة كبيرة، لذلك اهتدوا إلى اتباع الخطوط على الجدران والتي أصبحت كمرشد محلي يمنعهم من الضياع في هذه الممرات[1].

كما يفصل في بناء الحوانيت التي كانت منتشرة في الجزء الذي يقطنه الجزائريون، فهي ضيقة مساحتها بضع أقدام مربعة، ولشدة ضيقها ينحشر البائع داخلها، ويمد يده فقط لأجل تناول ما يطلب منه من بضائع، هذه البضائع يتم تكديسها بطريقة غريبة، أما المشتري فيمكث خارجا فلا مكان له داخل هذه الحوانيت، هذا ما تعلق بداخل الحانوت، أما خارجيا فيقول الرحالة عن هذه الحوانيت: "فجدار الحانوت الأحرش والمحبب والملبّس بطبقات متراكبة من الملاط مع الجبس، والذي سرعان ما يشرع بالتقشّر، يشبه الخلفيات المعدة بالمسجة، المحببة للرسام دوكان، والتي تشبه الإطار الأبيض لكل لوحة فنية"[2]، نلمس هنا جانبا من الاستهزاء، فالرحالة حاول الوقوف على الطريقة البدائية التي مازال الجزائريون يعتمدونها في البناء بالنظر إلى ما هو موجود في بلده، فهناك في الجانب الغربي واقع مختلف تماما.

وصل الرحالة قصبة الجزائر بعد أن كان رصد كل ما وقعت عليه عينه في الطريق إليها انطلاقا من ساحة الحكومة، وقد شرع في وصف هذه المدينة العتيقة التي تزين الجزائر العاصمة، وأول ما أقره هو إقدام السلطات الفرنسية على تحويلها إلى ثكنة عسكرية، وأهم ما شدّ انتباهه هي الهندسة الفريدة التي تتمتع بها، فهي ذات "بناءات غير منتظمة ازداد ارتفاعها في مناسبات مختلفة...

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 56.

[2] – المصدر نفسه، ص 59.

هي خليط من جدران شاهقة بيضاء مخترقة هنا وهناك بفتحات صغيرة بمثابة أبواب، ومن أسوار مدببة بزخارف في شكل فتحات متساوية في قممها"[1]، وباب القصبة رأى أنه لا يختلف عن غيره من الأبواب إلا من خلال مجموعة سلالم شديدة الانحدار تصل بينه وبين باب عزون.

مما شد انتباهه في مدينة القصبة، النافورة التي نصبت خارج باب القصبة، هي نافورة محلية الصنع ذات بناء يقوم بدور الخزان، وبناء آخر في شكل قوس بعمودين صغيرين يعلوهما تويجات عريضة، وصنبور الماء يقع تحت هذا القوس وحوله حروف عربية، أما الحوض فهو مخصص للجياد وحولهما شجرتا دردار كبيرتان[2]، هذه الملامح التي أوردها الرحالة تحيلنا إلى جمالية العمران العربي خصوصا ما تعلق منه بالزينة فالعرب والجزائريون يبدعون في ذلك أيما ابداع.

ومن جهة باب عزون صادف الرحالة النّزل العربية، وهو ما أثار اعجابه خصوصا ما تعلق بطريقة بناءها وديكورها، فذكر أنها "نوع من حجرات منشأة في فتحة وهد، ومن كهوف محفورة... لبّست حوافها، وهو أمر في منتهى البهاء، بحفنات من الملاط المخلوط بالجبس، قطعة من بساط مخدوشة تنتشر عليها ثقوب تبدو مثل الغربال، ملقى بها حبل ممدود مع مزقة مساد متفكك أو متشابك"[3]، هذا الوصف يجعلنا نقف مرة أخرى أمام روعة العمران المنتشر في مدينة الجزائر قبل مجيء الاستعمار الفرنسي.

بعد ذلك وجه الرحالة وصفه لجملة من النباتات التي صادفها خلال زيارته مدينة القصبة من ذلك نبات الألوة وأشجار الصبار والتين والنخيل، هذه النباتات تشكل في مجملها منظرا بديعا وصفها

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص71.
[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص73
[3] – المصدر نفسه، ص 78.

الرحالة بأنها فوضى حيوية وبأنها أشبه بشبكة كبيرة نشرت على خاصرة التلة لتجف[1]، فهذا المنظر يعكس مدى اهتمام الجزائريين بالنبات والزينة، بعدها عرج على البحر الذي رآه من أعالي القصبة، فعبر عن جمال المنظر الذي لا يعكس حقيقة ما هو موجود في اللوحات الفنية التي سبق له وأن اطلع عليها، يقول في هذا الشأن بعد أن سحره جمال المنظر: "تستولي على روحنا كآبة حانية، فنشعر بانفصال تام عمّا حولنا، ولا تعاود نظراتنا الالتفات إلى اليابسة الساكنة والجامدة، إلا على مضض، البحر يحيا ويتنفس، وحتى عندما يكون في أقصى درجات هدوئه، تساوره بعض حالات القلق وتهزّه ارتعاشات، ذلك أن قلبا دائم التأثر يخفق خلف صدره اللازوردي"[2]، إن جمال المشهد الذي أسره جعله يشخص هذا البحر، فجعله سكونه وحركة أمواجه أشبه بإنسان تأثر لداع ما فمس ذلك قلبه.

ومن مظاهر الطبيعة التي رصدها خلال رحلته كذلك الكائنات الحية التي تتفاعل مع هذا الوسط، من ذلك حديثه عن الجراد الذي غزى المدينة في طريق هجرته فقد كان بأعداد هائلة، قال في هذا الشأن: "كان يؤلف على السماء سحبا ضاربة إلى الصهبة، ويبدو على الأفق منه ضباب أصهب أيضا... كان جرادا حديث السن، لم تكد تظهر بعد منابت أجنحته، فكان يتنقل بالقفز أحيانا وبالطيران أخرى، فغصت الحفر وثنيات الأرض بأعداده الغفيرة"[3]، هذا المشهد جعله يقف مندهشا فلم يكن قد سبق له أن عايش هذا الأمر، ووقف على حجم الخراب الذي يحدثه الجراد إذا مرّ على منطقة ما، فلم تنفع لردعه لا النيران ولا الخنادق.

---

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 73.

[2] – المصدر نفسه، ص 74.

[3] – المصدر نفسه، ص74.

ومن الحيوانات التي صادفها لأول مرة في حياته الجمل، فرأى أنه شبيه بتلك الحيوانات القديمة المندثرة، ليسرد تفاصيل جسده المثير انطلاقا من ظهره المحدودب إلى عنقه الطويل فطريقة التحام أطرافه التي تبدو مخلوعة إضافة إلى جلده القاسي ولونه[1]، فتارة تنتابه الدهشة لهذا التصميم الرائع الذي لم ير مثيلا له، وتارة أخرى يسلط عينه الساخرة عليه، فرأى أنه أخذ هذا الشكل بفعل تأثيرات الطبيعة وهو شكل مشوه، وقد رسم لنا مشهدا لهذا الحيوان الذي يستعمل أيضا لنقل البضائع، تتشابك فيه التشبيهات عنده، فقد عمد إلى إلحاق كل جزء من جسم هذا الجمل إلى حيوان آخر فقال: "يمدّ أحدهما على الرمل هذا العنق الطويل الأصهب الذي يجعل الرائي يتذكر عنق النعامة وعنق العقاب، والذي ينتهي برأس صغير مسطح كمثل رأس الأفعى"[2]، فهذه المماثلات التي عقدها كانت عنده للسخرية والاستهزاء، غير أنها تجعل المسلم يقف أمام هذا التكوين الرباني ليتدبر ويقدر عظمة الله سبحانه وتعالى وإبداعه في تصوير مخلوقاته.

وقد عاد بنا الرحالة إلى أزمان سالفة حين استذكر الهيئة المعمارية لباب عزون، فذكر أنه كان ذا فتحات علوية ومقاذف ومنافذ لرمي السهام وبعلّاقات تثبت عليها الرؤوس المقطوعة، غير أن هذا البناء لم يبق منه شيء، فقد أزاله المستعمر ليشيد بابا وفق نمطه العمراني لتوهمه بملكية هذه الأرض، فمن ملامح الباب الذي تم تشييده أنه مزدوج مقوس خال من الزخارف[3]، وقد وقف الرحالة هنا موقفا عادلا فقد استنكر الهدم الذي لم يكن له داع، كما استنكر المعمار الجديد ورأى أن به أخطاء عسكرية

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 76– 77.

[2] – المصدر نفسه، ص 77.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ص 79.

فادحة، على اعتبار أن العمران في الجزائر إبان الاحتلال كانت تديره الجهات العسكرية بما يلائم مخططاتها.

انتقل الرحالة بعدها لرصد معالم أحد الأضرحة الذي صادفه بعد باب عزون، وهو ضريح باربروس، ويتميز بقبته البيضاء وداخله المظلم قليلا، به من قطع القماش و المناديل المعلقة ما يوحي بالإجلال والتقدير، كما تحيط بالمكان أشجار الدلب، وفي الجهة الأخرى منه علّاقات حديدية كانت تستعمل للإعدامات، أما الكوخ الذي يقابل هذا الضريح فيتكون من حجارة وحصى وآجر وألواح خشبية وعظام حيوانات، ينبعث من هذا الكوخ دخان فقد كان صاحبه يقوم على تقديم الطعام لأهل البلد، وهو عندهم يماثل تلك المطاعم الموجودة في فرنسا، ورغم عدم نظافته فإنه بالنسبة لقاصديه يقدم ألذ الأطعمة[1]، هذا الأمر يوحي بطبيعة الحياة البدائية التي كان يعيشها الجزائري، سواء من ناحية المعتقد أو المبنى أو المأكل، وهو أمر زاد تفاقما بفعل المستعمر.

وخلال رحلته الثانية التي كانت بدعوة من شركة السكة الحديدية لمدينة البليدة، وقبل أن يهمّ بالمغادرة قام الرحالة بجولة في بعض الأماكن في الجزائر العاصمة، والتي منها ساحة الحكومة والقصبة، فوجد أنهما لا زالتا على حالهما لم يتغير شيء بهما، كما اكتشف أحياء أخرى منها مدينة بئر خادم والوادي الصغير، كذلك مدينة بوزريعة ومنها إلى الشواطئ، غير أن أهم ما استوقفه هذه المرة هو حديقة الحامة أو حديقة التجارب، وعن النباتات التي وجدها في هذه الحديقة قال: "هناك في حديقة الحامة ممر محفوف بشجر البامبو الذي جعلنا نقوم برحلة إلى الهند في ثلاث دقائق، أما ممر النخيل فيقود رأسا إلى واحات الصحراء، لا أشدّ وقعا على الخيال من نبتة جديدة، إن مشاهدة حاجز من

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص80-81.

الصبار ونبتة ألوة ذات أذرع، لتغير طابع رحلة برمتها"[1]، يمكن القول إن حديقة التجارب أو حديقة الحامة تظهر البعد التزييني الذي انتهجه الاستدمار تحت ذريعة نشر التحضّر، فقد جمعت هذه الحديقة نباتات من أصقاع مختلفة حول العالم لتكون في مكان واحد هو الجزائر.

2.2 الواقع الاجتماعي:

يرصد الرحالة الجانب الاجتماعي للجزائر خلال هذه الرحلة، وأول ما يلاحظه هو تنوع اللباس بين البرانس والمعاطف والبردات، فمن الدثار الأسود وهو لباس المرأة الفرنسية إلى الخمار الأبيض الذي ترتديه المرأة المسلمة، ومن الكم المزخرف للضابط إلى الذراع العارية والمفروكة بالزيت للزنجي وكذلك البدوي الذي يرتدي لباسا رثا يقابله الفرنسي بلباس رسمي أنيق[2]، هنا تتجسد جملة الفوارق الاجتماعية والطبقية خلال فترة الاستعمار الفرنسي، كما يعري هذا الوصف تلك الادعاءات الباطلة التي روّج لها الفرنسيون، فقد كان الرحالة في كثير من الأحيان يصف الجزائريين بألفاظ دونية.

كما أن الجزائر تشهد تنوعا لغويا ففيها لغات عديدة نسبة إلى الأجناس البشرية المتواجدة بها فقال الرحالة في هذا الصدد: " أما اللكنات فليست أبدا أقل تنوعا، الفرنسيون في كلامهم يخنون والإيطاليون يغنون والإنجليز يصفّرون وأهل مالطا والألمان ينعبون والزنوج يزقزقون والإسبان والعرب يحشرجون"[3]، وقد حاول الرحالة هنا أن يلّم بكل اللهجات التي كانت تتزاحم في الجزائر آنذاك وهذا

[1] - تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص138

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 46

[3] – المصدر نفسه ص 46.

التوع في اللهجات راجع بالدرجة الأولى إلى موقع الجزائر الجغرافي المتميز، ونشاطها في المجال البحري فقد كانت تشكل نقطة عبور بين مختلف دول العالم.

ونجد الرحالة معجبا أيما إعجاب بالنساء اليهوديات اللواتي كن يقمن في مناطق مختلفة من الجزائر، فقد شده جمال لباسهن ووجههن، وقد أمعن في الوصف وذكر أدق التفاصيل فيشير إلى جمال تقاسيم وجه اليهودية من أنف رقيق وحاجبين مقوسين وعينين سوداوين، وشفتان ترسمان الابتسامة، وهذه الأوصاف حسبه تلهم الناظر ليقول شعرا[1]، كما يرصد مظهرها الخارجي حيث يذكر مكونات اللباس الذي ترتديه فهو بنفسجي مكون من قطعتين من القماش التونسي، ترافقهما قطعة أخرى بلون أحمر تمتد من الكتف إلى الفخذين منتهية بتطريز دقيق، كما أن هذه اليهودية تحمل منديلا، وذراعاها قويتان عاريتان وهي أهم ما يميّز هذا الجنس[2].

وقد أسهب الرحالة كذلك في حديثه عن النساء الزنجيات، فهن مما تخفيه افريقيا عن العالم، وهن على مشارب متعددة فمنهن حبشيات وإثيوبيات وسودا من شاوة وأوفات ودمنهور وغوندار ومن تومبوكتو، وذكر أنهن ذوات وجوه ضخمة سوداء، وصاحبات أرداف سمينة وأقدامهن ذوات أعقاب شبيهة بزوائد رِجلِ طائر، هذه الأوصاف إذا ما ذكرت حسبه لأي انسان أوربي يتبادر إلى ذهنه القرد، هذا الرأي الذي ذكره الرحالة يشير إلى حجم العنصرية التي يكنها هؤلاء الأوربيون لغيرهم من الأجناس المختلفة عنهم، فهم يرون في أنفسهم النموذج الكامل دون غيرهم، ويستدرك نفسه بعد هذه الأوصاف فأورد أن السود أجناس مختلفة، ومنها "ذات ملامح صافية ومنسجمة، الأنف معقوف

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 47.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 48.

والشعر جعد دائما، وباستثناء لونهن الأبنوسي فهن يستوفين التصوّر الذي نحمله عن الجمال، ويتصف البعض الآخر بحدة في زاوية الوجه وبوجنتين بارزتين وشفتين منتفختين بشكل مرعب وبمرأى حيواني شديد الوضوح، مما يجعل قرود المكاك والقردوحيّات فاتنة بالمقارنة معهن"[1]، وكأني بالرحالة هنا فاضل بين هذه الأنواع من النساء الزنجيات لكن يجعلهن دوما في مقام دون الأجناس الأخرى.

لجأن إلى بيع الفطائر الساخنة بأثمان زهيدة، ليقمن بسد حاجياتهن، فهن إماء لعائلات دمرها الغزو، وفي هذا الوصف إقرار بما يرتكبه المستعمر من تخريب ومجازر في حق الأهالي، كما يصف لباسهن وطريقة ارتداءه، فهو مكون من مئزر من قماش غينيا ذي المربعات الزرقاء، وسروال أبيض ضيق عند الركب وقميص مفتوح جدا، مما يساهم في بعث نظرات إغرائية حولهن، كما يمعن في وصف أجسادهن وما عليها فيقول: "حزام موضوع تحت الإبطين شبيه بالزّنارات التي كانت سائدة أيام الإمبراطورية، تمر أحيانا تحت صدورهن وأحيانا فوقها وتقسمها في أغلبية الأحيان إلى أربعة أجزاء وهي تزيينات بارعة تجعلهن يشبهن التماثيل التي تصوّر الطبيعة امرأة ذات أثداء متعددة"[2]. هذه المرأة الزنجية ذكر أنها تضع من الزينة الشيء القليل والبدائي في الوقت ذاته، فهي تتزين بسلاسل من النحاس، والجواهر ذات الأحجار الضخمة بالإضافة إلى الأقراط والأساور التي تكون غالبا من العاج أو النحاس ويزين أرجلهن خلخال من فضة يصدر صوتا متميزا عند المشي.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص69.

[2] – المصدر نفسه، ص 68.

لينطلق بعدها في تقديم بعض الأوصاف للجزائريين فيرى أنهم أصحاب وجوه مقرفصة، بدويون، بعضهم مريبي الوجه، لهم لحى بيضاء، ولون بشرتهم كلون جلود قرطبة، أما الأطفال فقد شبه رؤوسهم بعد حلقها بلحم الحجلة الذي قارب على التحلّل[1]. واصل الرحالة رسم تلك الصورة السوداوية عن الجزائر وما يتعلق بها فلم يسلم من ذلك السكان رغم أن ملامحهم تقارب ملامح الأمم الأخرى.

ومن المظاهر الاجتماعية التي عرفت بها الجزائر منذ القدم هي استعمال الحمير لمهام النقل وذلك لضيق الشوارع، وقد لاحظ الرحالة هذا الأمر وأمعن في نقله، فمن جملة ما ذكره عن هذا الأمر أن الحمير كانت بأعداد كبيرة مما ينتج عنه عرقلة للسير، يقول في هذا الشأن: " كل شيء يحمل على ظهور الحمير، تحمل عليها أحجار البناء والحصى والركام والفحم والخشب والماء والمؤونة من كل صنف، وهي حمير هزيلة متقرحة وجرباء، ...، كما أنها ضئيلة في حجمها حتى لقد يخالها البعض كلابا لولا آذانها الطويلة العصبية التي تخفق بوهن مع كل خطوة"[2]، وقد أورد هذا الوصف ليبين انعدام الاهتمام بهذا الحيوان في الجزائر، على عكس ما هو شائع في فرنسا فالحمير الإسبانية هناك تجر العربات، أما هنا لا يتم توفير أبسط حاجياتها من مأكل فهي تقتات من المزابل، وكثيرا ما يتم اضطهادها، فلا سبيل لمحاورتها عند الجزائريين إلا من خلال استعمال السوط والذي يتسبب لها في جروح دامية.

ويتحدث الرحالة بنوع من الشفقة عما تعانيه هذه الحمير التي تسعى جاهدة لتكون في خدمة أصحابها، فإن كان الشارع مزدحما ينهال عليها بالسبّ والضرب كل من يصادفها يقول الرحالة: "

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 53

[2] – المصدر نفسه، ص56–57.

إنّه لمن المثير للشفقة أن نرى الحمير تعمل جاهدة على أن تمر بأحمالها التي تثقلها وتزيد من حجمها... دائخة مترنحة بفعل طوفان ضربات العصا التي تكال لها"[1]، كما أن الحمير تستعمل أيضا لتنقلات العرب اليومية، واستمرت شفقته على هذه الحيوانات، فنجده يرسم معاناتها بعد أن يمتطيها الرجل منهم ضخم الجثة إذ تكون قدماه مسحوبتان في الأرض، هذا ما يشير إلى تحمّلها ثقلا كبيرا رغم هزالة بنيتها، وبالإضافة إلى الحمير يستعمل الجزائريون البغلات.

كذلك سلط الضوء على مظهر اجتماعي آخر خلال هذه الرحلة ألا وهو أكل العرب للجراد، يقول: "فهم يصنعون منه ضربا من الطعام المحفوظ في الخل والدهن. ويذهب البعض إلى حد الادعاء بأن الجراد أكلة لا يستهان بها"[2]، وقد وقف مستغربا من هذا الأمر فهو مثل ولائم أفخاذ الضفادع والحلزون والتوتياء، وإن مجرد التفكير في هذا الأمر يبعث الاشمئزاز في النفس ويدعو إلى النفور.

وأشار تيوفيل غوتييه إلى أن المسافرين إلى العاصمة هم على طبقات: الطبقة الأرستقراطية وتتشكل أساسا من التجار يستقرون في النّزل، وطبقة تمثل المسافرين الذي يقومون بكل أنواع الأعمال الشاقة يستقرون في أكواخ من قصب، بينما نجد فئة ثالثة أكثر فقرا من الثانية ولا ظل لهم يستظلون به إلا ما يعكسه حيوانهم، بعد رصده لهذا الوضع انتقل إلى إعطاء لمحة عن أهم ما يتناوله هؤلاء من طعام ألا وهو الكسكسي الذي يعدّ في الهواء الطلق من طرف النساء الزنجيات المتقدمات في السن[3]، هذا الوصف يحيلنا إلى جملة الفوارق الاجتماعية التي كان يعرفها المجتمع الجزائري إبان

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص58.

[2] – المصدر نفسه، ص76

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ص 78، 79.

تلك الفترة، وعلى بساطة الحياة. ورصد حال الرعاة الذين صادفهم هم قبائليون شبه عراة ملابسهم كملابس رعاة الكتاب المقدس، يحملون عصيا رأسها منحن شبيهة بالعصي الموجودة في لوحة رعاة أركاديا، يستعملون الصفير والصراخ لتوجيه قطعانهم[1]، تعبر هذه الأوصاف التي ساقها الرحالة عن نموذج من نماذج المعاناة التي كان يكابدها المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال، فقد زاد من معاناتهم.

وخلال رحلته هذه استوقفنا الرحالة مع مشهد طفل فرنسي صاحب أربع عشرة أو خمس عشرة سنة يقوم بالاستهزاء برجل عربي مزابي، يقول الرحالة عن هذا الطفل: "يمشي خلف رجل مزابي فارع القامة قوي البنية، وهو يتسلى بجلبه، موجها له إهانات من كل نوع"[2]، ويرصد كيفية تعامل الفرنسي مع العربي الجزائري حين لا يفهم هذا الجزائري لغته فيترجم هذا الفرنسي خطابه بركلة أو صفعة يوجهها له، هذا الأمر يجعلنا نقف عند حجم المعاناة التي كان يعيشها الجزائري بشكل شبه يومي في ظل الاحتلال، فرغم أن الرجل بالغ إلا أنه عاجز عن الاعتراض لأنه يعي أن أي اعتراض كان سيجر عليه ويلات السجن والتعذيب.

3.2 الواقع الاقتصادي:

تناول الرحالة الواقع الاقتصادي لمدينة الجزائر العاصمة من خلال حديثه عن التجارة، وقد توسع الرحالة في حديثه عنها، فهي تشكل أحد أوجه الاقتصاد وركيزة أساسية لبناء المجتمع وتطور المدن، والتجارة عند الجزائريين في حوانيتهم التي صادفها هي على أنماط مختلفة، النمط الأول حوانيت تبيع أغراض الزينة بمختلف أنواعها، وفيها يكون صاحب الحانوت أحيانا نفسه المصنع وكثيرا

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 81–82.

[2] – المصدر نفسه، ص 83.

ما يلجأ أصحابها لعرض سلعهم خارجا حتى تشد انتباه المارة خصوصا السياح، وذكر الرحالة جملة مما هو متوفر في هذه الحوانيت يقول: "على صباغة الجدران الشفافة التي تجمع بين الإشراق والدكنة تلمع أنابيب الغلايين المزوّقة بمحارقها العنبرية والمرجانية، وقوارير ماء الورد، والسترات المزركشة بأضرب من التطريز، والنعال المزخرفة، والبسط والأحزمة الحريرية وأثواب الكشمير"[1]، والملاحظ على هذه الأغراض أنها من أساسيات حياة الجزائري والتي يعتمد عليها بشكل دوري.

لينتقل بعدها تيوفيل غوتييه إلى نوع آخر من الحوانيت، وهي حوانيت المواد الغذائية والأمور ذات الضرورة اليومية، ومن السلع التي وجدها داخل هذه الحوانيت الصابون الأسود وهو ما تعود الجزائريون استعماله دون غيره، يرى أن مظهره يبعث على الاشمئزاز، كذلك الحناء من الأغراض التي لا يستغني عنها الجزائريون، وهي بكميات كبيرة في هذه الحوانيت، كذلك هناك السكر والشموع[2]، هذه الأشياء البسيطة التي وجدها الرحالة داخل حوانيت المواد الغذائية، توحي ببساطة حياة أغلب الجزائريين فهي لازالت محافظة على طابعها التقليدي البدائي مقارنة بالحياة في الضفة الأخرى من العالم.

واستمر الرحالة في رصد مظاهر التجارة في الجزء العلوي من الجزائر العاصمة، فرصد ما تزخر به حوانيت بائعي الفاكهة والخضار، ومما أبصره في هذه الحوانيت الفلفل والطماطم والشمام والخيار، وتفاح أخضر صغير بشع جزم أنه مستورد من جزر البليار، وهناك من السلع ما لا ترقى إلى المستوى رغم ذلك يعرضها صاحبها، وفي نفس الوقت نجده يرسم ملامح باعة الفواكه فيقول

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص60.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص64.

عنهم:" بائعو الفواكه هم في العادة زنوج وخلاسيون وبدويون، يبدون من فرط ما لفحتهم الشمس وكأنّهم سود"[1].

لينتقل بعد ذلك إلى وصف دكاكين الجزارين، فرأى أن لا ثقافة لهم في هذا النوع من التجارة على عكس الباريسيين، وأتى على سرد ما لاحظه خلال تجواله على هذه الدكاكين بقوله: "رؤوس الخراف بعيونها الكابية ومناخيرها المليئة بالدم المتخثر الأرجواني اللون، موضوعة مكدسة هنا... المرارات معلقة إلى مسامير فتحيل لون الجدار مخضرا بسبب السائل المر، وأجزاء خراف دامية تتأرجح معلقة إلى السقف، ورئات لا تزال مرتبطة بها القصبات الهوائية"[2]، هذه الأوصاف التي قدمها توحي حسبه ببشاعة المنظر مما يدعو إلى النفور، على عكس باريس التي تجد جزاريها يتفنون ويرسمون لوحات رعوية وهذا محبب للمشتري مما يجعله يتقرب إليها لاقتناء حاجياته منها.

وعلى عكس حوانيت الجزارين فإن حوانيت بيع السمك وخصوصا السمك الأحمر لها نظامها وطابعها الخاص ففيها " تلمع أجزاء من بطون السمكات على واجهة دورق مملوء ماء شفافا... يضعون على الزاوية المقابلة من المسطبة أصّ حبق أو أيّ نبتة شذاها فواح، ... يكملون تزيينهم لمحلاتهم برسوم مؤطرة تصوّر مدينة مقدسة، هي في الغالب مدينة مكة أو ببعض تحف الكتابة"[3]، من خلال هذه الصورة التي رسمها يتضح مدى الفرق الشاسع بين حوانيت الجزارين وبين حوانيت بائعي السمك الذين يولون للنظافة اعتبارا شديدا مما يسهم في جلب الزبائن ونفاذ السلع.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص64.

[2] – المصدر نفسه، ص65

[3] – المصدر نفسه، ص63.

وتحدث كذلك عن المخابز التي كان قد مرّ عليها، وهي أفران غالبا ما يحضر إليها العجين بعد أن يعجن في البيت لأجل خبزه وطهيه، وهذا ليس مما اعتاد عليه الفرنسيون ذلك أنهم يحضرون الخبز جاهزا من مخابزهم، كما لاحظ انتشار حوانيت الحبوب والدقيق وهذا أمر طبيعي فالدقيق أحد أساسيات الحياة عند الجزائريين عامة ولا يكاد منزل يخلو منه[1].

كما عرج على حوانيت فارغة، ما فيها غير شخص وقور يجلس على حصير يتناول سبحة في يده، وتبيّن له بعد السؤال أنهم خطاطون، قال عنهم: "يخط كتاب الحوانيت هؤلاء تعويذات وتمائم ويحررون عرائض ويقدمون على وجه التقريب الخدمات نفسها التي يضطلع بها الكتاب العموميون عندنا، أغلبيتهم خطاطون ماهرون ينقلون، بحروف مزخرفة، سورا من القرآن بأكف رشيقة وبدقة متناهية وذوق رفيع"[2]، وقد حاول الرحالة أن يسلب هذا الفضل من الجزائريين فيرى أن من برع في هذا الأمر من الجزائريين إنما هم أحفاد الأندلسيين، ويعود فيقر أن اتخاذهم لهذه الحوانيت إنما هو أمر محمود على عكس ما هو في فرنسا إذ يغيب هذا الأمر.

غير بعيد عن هذه الحوانيت وقف الرحالة تيوفيل غوتييه يتأمل بشيء من الإعجاب والدهشة حوانيت الزركشة والتحييك التي صادفها في رحلة هذه، ومما ذكره عنها أن عمالها مسلمون ويهود يبدعون في هذا العمل أيّما ابداع، فروى أنهم يحبكون الخيوط الذهبية والفضية والحريرية حبكا متقنا يزيد من جمال ما ينتجونه من سلع، غير أنه عند نقله لهذا المشهد نجد سمة الرفعة والتكبر لا تفارقه إذ يقول في وصفهم: " ولن أجانب الصواب إن قلت إنّ هؤلاء الفتية هم ماهرون مثل القردة، لأنهم

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص65.

[2] – المصدر نفسه، ص 67.

يستعملون أيديهم وأرجلهم بتلقائية، ويساعدهم إبهام أرجلهم، المنفرج مثل إبهام عصفور، على الإمساك بالقطعة التي يشتغلون عليها وتثبيتها. إن إبهام أرجلهم لهو ملقاط طبيعي وكاحل يظل دائما طوع إشارتهم لمساعدتهم في مناسبات متعددة لتسريع عملهم وتسهيله"[1]، لقد ربط في وصفه هذا هؤلاء الفتية بالحيوانات التي في كثير من الأحيان عند التشبيه ببعضها يكون ذلك حطا من قيمة الإنسان عامة.

عاد بعد ذلك الرحالة ليشهد للجزائريين بالتفوق في مجال التطريز، معرجا على أهم ما تنتجه الأنامل الجزائرية في هذا المجال يقول: "وهم ينجزون في هذا المجال أشياء مدهشة حقا. فالجميع يعرف ما يصنعونه من محافظ صغيرة وعلب للسيغار ولقوارير العطر، يصنعونها من نسيج مخملي أحمر أو أخضر، مطرز بخيوط وقطع مذهبة، كما يصنعون شالات مرسومة عليها ورود من جهة واحدة، ومعاطف وسترات مزركشة برسوم شديدة الغنى والرشاقة"[2]، فرغم بساطة الأشياء التي كان يبدعها هؤلاء المطرزون إلا أنها بإتقانهم جعلت الرحالة يقف أمامها يشاهد ويتأمل هذا الابداع.

ولم يكتف الرحالة بالحديث عن مهنة التطريز وأهم ما تنتجه، فراح يمعن النظر في تقاسيم وتفاصيل أجساد هؤلاء المطرزين، فيرى أنهم ذوو جمال نادر يشبههم بالإغريقيين مع بعض الاختلاف البسيط، وقد وقف عند ملامح وجوههم فهي ذات صفاء كبير وأنف معقوف قليلا وفم مفتر وعيون براقة تفوق العيون الأوربية، أصداغهم حليقة عليها طاقيات حمراء، أعناقهم رياضية وأقذالهم مزرقة[3]، فهذا الجمال الذي يتمتعون به يجعلهم في مكانة تضاهي مكانة بعض الأجناس في باريس، ليستدرك

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص60.

[2] – المصدر نفسه، ص 61.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ص62.

هذا الأمر ويشير إلى أن هذه الأوصاف لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنسينا أنهم ليسوا سوى حرفيين كغيرهم.

كذلك لاحظ الرحالة انعدام الحانات عند الجزائريين، وهذا يحمل دلالة على مدى تمسك الجزائريين بدينهم واحترام تعاليمه، ويذكر الرحالة أن هذا الحكم العام الذي استقاه بعد تجواله، يستثنى منه "أن بعض المسلمين يشربون سرا سوائل مسكرة، فلا أحد يسمح لنفسه بأن يكون من الوقاحة بحيث يبيعها أو يبتاعها أمام الملأ، السكر للأسف هو إحدى آفات بلدان الشمال وحاجات أبنائها"[1]، إذن يمكن القول وانطلاقا مما أورده الرحالة أن حال المجتمع الجزائري آنذاك لا يختلف عن المجتمعات الأخرى نجد فيه الصالح والطالح، مع غلبة الصالح على الطالح.

ورصد تيوفيل غوتييه صناعة الفخار، فمما يتاجر به الجزائريون من فخار هناك القوارير والأباريق الخزفية وأواني حفظ الماء وتبريده، غير أنه ينسب ما رآه من أواني إلى الأصل الإسباني، فيقر بأن الجزائريين ليس لهم إبداع في هذا الجانب، دليل ذلك أنهم احتفظوا بالأشكال كلها التي استقوها من الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، ومن الأواني التي وقف عندها الرحالة فوصفها وصفا شاملا دقيقا إبريق الفخار، ومما أورده عنه: "هو آنية ذات عنق طويل وبطن مستدير، مزينة بممسكين محززين، بضع تخطيطات وُشّحت بسنّ إزميل عندما كان الطين لا يزال رطبا، شبيهة بما تسطره خادمات المنازل على كعكاتهن، تزين جانبي الإبريق وعنقه، وتوجد على فوهته قطعة صغيرة هي من طين بدورها مخترقة بثقوب شبيهة بمصفاة تمنع الماء من الانسياب بقوة عندما نميل الإبريق

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص66

وتحتفظ به طريا بعزله عن الهواء الخارجي"[1]، إن هذه الدقة في الوصف توحي وكأن الرحالة قد شهد فعلا عملية صناعة هذا الإبريق الذي وجده معروضا، كذلك يشير هذا الأمر إلى مدى إعجابه بهذه الأواني.

وكان الرحالة أشد اعجابا ودهشة، عند رؤيته للأواني القبائلية، وخصوصا تلك المخصصة لشرب الماء، فهي على اتصال ببعضها بواسطة نظام مائي صغير، تجعلك هذه الآنية عاجزا عن استعمالها إن لم تكن قد تعودت عليها، ومما صادفه كذلك طناجر الكسكسي، وهياكل صناعة الدرابك[2]، فهي ذات طابع محلي متفرد لا مثيل له.

4.2 الواقع الثقافي والديني:

كان الرحالة خلال تنقلاته ورصده لجملة المشاهد، يعبر بين الفينة والأخرى عن معرفته بالثقافة العربية وتعاليم الدين الإسلامي من ذلك قوله: "هذا الضرب من مخالفة قانون حظر رسم الكائنات الحية، يبرّر بالأسماء الجليلة التي تتشكل منها الخطوط الرئيسية لهذا الرسم البدائي ذي المغزى الرمزي، يفتخر ملاك هذه اللوحات بها ويرفضون التخلي عنها مقابل أي ثمن يعرض عليهم"[3]، فقد أقرّ هنا بأن رسم ذات الأرواح هو محرم في الشريعة الإسلامية.

ويضيف في موضع آخر: "وبما أنّ الديانة الإسلامية تحرم تجسيد الكائنات الحية مخافة السقوط في الوثنية، فإن الحس الفني الذي لا يمكن لأي مصلح ديني أن يطفئه في أمة من الأمم،

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص66.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 67.

[3] – المصدر نفسه، ص 63

وجد ملجأه في فن الخط العربي وفن التطريز والتزيين وانتقاء الألوان. ومن كان بإمكانه أن يصبح رساما في ظل ديانة متسامحة يغدو عندهم مزركشا أو صباغا"[1]، أضف إلى أن حديثه عن غياب الحانات في الطريق التي تقود إلى القصبة، يدل على معرفته المسبقة بحكم الخمر وشارب الخمر في الدين الإسلامي، كما ذكر في معرض حديثه عن الرعاة أنهم لا يستعينون بالكلاب، قال: "إن العرب لا يستعينون بالكلاب في قيادة القطعان، الكلب في الشريعة مدنس"[2]، هذه المعرفة بالدين الإسلامي والثقافة العربية يمكن أنه قد استقاها من رحلاته التي قام بها وصادف خلالها عربا.

ومن المشاهد التي أبصرها خلال هذه الرحلة حفلات الغناء التي كان يقوم بها العرب، والتي ذكر أنها تعتمد على فرقة موسيقية من أدواتها الرباب والناي والدربوكة، تبدأ الحفلة بالعزف وتتلوها رقصة لإحدى فتيات الحفل، كان يرصد هذه الفتاة الراقصة زنجي من خلال شمعة يحملها تجعلها تتراءى للحضور، وقد أسهب الرحالة في ذكر تفاصيل هذه الراقصة فقال: "كانت تضع على رأسها منديلين تونسيين تتخللهما خطوط حريرية وذهبية، معقودين على نسيج من المخمل يعتلي رأسها في شكل مخروطي، وكانت سترتها المصنوعة من نسيج من حريري والمزينة برقاقات مذهبة ... سروالها القصير المصنوع من حرير صقيل قرمزي اللون لا يتجاوز الركبتين... فوطة مربوطة على خاصرتها... محياها الأسمر قليلا والشفتين الرمانيتين والعينين الشبيهتين بعيني الغزال والمكبرتين بالكحل"[3]، هذا الإمعان في وصف ما ترتديه المرأة الجزائرية يدل على إعجابه الشديد بتراث الجزائر اللامادي الذي يعتبر أحد رموز الهوية الوطنية.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص62.

[2] – المصدر نفسه، ص81.

[3] – المصدر نفسه، ص86.

بعد هذا الوصف المادي انتقل الرحالة ليضع القارئ أمام مشهد حي اطلع عليه، ألا وهو مشهد رقص الفتاة وقد صوره بكل تفاصيله، فهذا الرقص يجمع بين دوران الجسم وفتل الخاصرتين مع تمايل الردفين، فتحريك الذراعين الحاملتين لمنديلين، وقد قرن الرحالة هذه الراقصة بأفعى قد استقامت على ذيلها، أما عنقها المثني فهو أشبه بيمامة مخنوقة، وقد جزم الرحالة من خلال هذا الوصف على تفردها، فلا يمكن أن يضاهيها في ذلك أمهر راقصي الأوبرا، غير أن هذا الرقص لم يكن مجانا فقد قامت بلفة جمعت فيها من الحضور أكاليل من زهور الياسمين وقطعا نقدية ذهبية، لتعود إلى وسط الفناء بعد هذه اللفة وبحركة ارتعاش عصبية تفرغ ما كانت قد حصّلته[1]، ما أورده الرحالة يجعلنا نقر بمعرفة المجتمع الجزائري الفن قبل الاحتلال الفرنسي، سواء من خلال الموسيقى أو من خلال الرقص وكلاهما يعتبران من الموروثات الثقافية التي تعبر عن عراقة المجتمع الجزائري.

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص86–87.

II. البليدة وقسنطينة في مرآة تيوفيل غوتييه

3.مدينة البليدة من خلال رحلة تيوفيل غوتييه:

وقف تيوفيل غوتيه في رحلته بعد الجزائر العاصمة على مدينة أخرى هي مدينة البليدة، فجابها راصدا ما تزخر به من طبيعة، مشخصا بعضا من واقعها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

1.3 الطبيعة والاقتصاد:

استهل تيوفيل غوتييه رحلته إلى مدينة البليدة بالتعبير عن إعجابه بجمال المنطقة رغم صغرها، فقد رأى أنها تشبه في جمالها مدينة تيبور الإيطالية، وأهم ما شد انتباهه هو ما تتمتع به من مقومات طبيعية قال في هذا الشأن: "تستعرض أسطحها البيضاء على الخلفية التي تشكلها الجبال ذات اللون البنفسجي، وتظللها الغابة التي تلمع تحت أوراقها الخضراء الفاكهة الذهبية التي تحسّر عليها مينيون، وينعش جوها عدد من السواقي الجارية التي يسمع خرير جريان مائها على طول الطرق والأسيجة"[1]، إن هذا الإبداع في الوصف من طرف الرحالة، جعلنا وكأننا نقف أمام لوحة فنية تعكس تناسق الأولوان وجمال الابداع، مما يوحي بأهمية المنطقة كمقصد سياحي، ومن خلال ما تكتسبه من مقومات جعل يقارنها بنظيراتها من المدن الإيطالية فرأى أنها تتفوق عليها، خصوصا من خلال تلك

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص90.

النسمات الرقيقة التي تنبعث غالبا من حقول البرتقال، والتي تجعلك تعيش في عالم مختلف وكأنك لست على الأرض.

ومما شد انتباهه في العمران مقهى حكيم الذي وقف يصف طريقة بناءه قال فيه: "أعمدته صغيرة قصيرة وسميكة تعلو بعضها تيجان كورنثية عجيبة، نحتت بمدينتي ليفورنو وجنوة الإيطاليتين كي تستعمل في الشرق، تحمل أقواسا غير متناسقة، نحتت كل منها في شكل قلب. واجهته مصبوغة بالجبس وسطحه الذي هو قرميد أجوف، وأمامه في تجميع حجارة في شكل محارة، ترشح نافورة محاطة بأصص حبق"[1]، يقف الرحالة من هندسة المكان موقفين متناقضين فهو في الأول معجب بتلك الأعمدة لأنها ذات أصل أوربي فهو في مقام مدح لها، أما في الموقف الثاني فنجده يعيب شكل الأقواس لأنها ذات أصول عربية فالعرب هم من عرفوا باستعمال الأقواس في البناء خصوصا ما تعلق بالأبواب.

بعد ذلك انتقل الرحالة إلى رصد مظهر جمالي آخر حيث قال: " كانت الساعة تقرب من السادسة مساء، وكانت الشمس قد فقدت من قوتها، وأحاطت بالأفق غشاوة خفيفة من غبار ذي لون ذهبي. هذا الضباب الجاف الذي تلمع جزيئاته في شعاع المغيب المائل يشكل في البلاد الحارة بخارا تنتج عنه في بعض اللحظات، تلك الأجواء الشقراء التي استخلص منها كل من دوكان وماريلا أعمالا رائعة"[2]، يقف الرحالة هنا بشيء من الاعجاب لهذا المنظر الذي يجعل العين والعقل يسبحان في بعض من الخيال اللامتناهي، خصوصا وأن مثل هذه المناظر لم يصادفها الرحالة كثيرا في بلاده

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص90.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص92.

فرنسا، فهناك لم يكن ليتمتع بجمال غروب الشمس التي ما تلبث أن تأفل على حين غفلة دون مقدمات.

وأهم ما يعرف عن مدينة البليدة وأرضها أنها زراعية خصبة، ولم يغفل الرحالة هذا الأمر فقد أشار إليه بقوله: "كنا قد غادرنا الطريق لتونا كي نقطع حقولا بالعرض، لأن حوش جرواو يقع وسط أرض زراعية. عبرنا في العتمة سهلا معدّا ليغرس بالأشجار"[1]، فقد عرفت البليدة منذ القديم بالأراضي الزراعية الخصبة والتي تتخذ في كثير من الأحيان حقولا لإنتاج أنواع مختلفة من الحمضيات، وهو الأمر الذي مازالت تشهده إلى اليوم.

انتقل بعدها الرحالة ليرصد لنا جزء آخر من عمران المدينة وهو ساحة حوش أحد المنازل التي سيقام فيها الاحتفال، فشبهها بفناء المنزل الإسباني، هي واسعة تحيط بها البنايات منبسطة الأسطح مدهونة بالجبس، تستعمل لإنارتها شموع ومصابيح، هذه المصابيح تعكس نورها على السماء، وكانت نساء القبيلة تجلسن على السطح، غير أن الرحالة في نهاية هذا الحفل قد أصيب بغثيان شديد جراء تسمر عينيه لتتبع كل المشاهد وتفاصيلها الدقيقة دون اغفال أي منها[2]، إن هذا المنظر الذي تعكسه نساء القبيلة يجمع بين الرعب والإعجاب، الرعب ذلك أن انعكاس منظر النساء على ساحة الحوش بفعل النور الخافت يجعلك تتخيل وكأنك في عوالم الجن والشياطين، أما الإعجاب فبعد أن تعي مكونات هذا المشهد ترتسم في مخيلتك تلك اللوحة الفنية الجميلة،.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص92.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 104

وفي رحلة أخرى له قادته إلى مدينة البليدة بدعوة من شركة السكة الحديدية لمدينة البليدة، كان ذلك في الخامس عشرة من شهر أغسطس، أخذ الرحالة يقدم معلومات أولية عن خط السكة الحديدية فقال: "قامت الجزائر، كي تحتفل كما ينبغي ....، بإضافة حفل تدشين أول خط لسكة الحديد يُنشأ فيها، هذا الخط الأول الذي يصل مدينة الجزائر بمدينة البليدة، ليس طويلا البتة، هو يمتد على طول خمسين كيلومترا لا غير، لكنه ليس سوى بداية لشبكة ستمتد قريبا في كل الاتجاهات على أرض مستعمرتنا الجميلة، وقد تم القيام بدراسة خطين آخرين سيجمعان بين سكيكدة وقسنطينة، وبين وهران ومدينة سيق، وسيشرع قريبا في إنجازهما"[1]، إن هذه الرحلة لم تكن رحلة استجماميه كما يبدو، وإنما هي رحلة لأجل تمجيد فرنسا والتسويق لمنجزاتها في الجزائر، وفي قوله أول خط لسكة الحديد يتبادر إلى ذهن القارئ مدى بدائية وسائل النقل في الجزائر آنذاك، وكأن فرنسا الاستعمارية كان همها حقيقة تحقيق تنمية اقتصادية للدول المستعمرة في افريقيا، ضف إلى ذلك فإن قوله تم القيام بدراسة خطين آخرين، يعكس النظرة الاستشرافية لفرنسا الاستعمارية فقد كانت تطمح للاستقرار النهائي في الجزائر.

ذكر الرحالة أن هذا القطار عند اقلاعه من مدينة الجزائر سار بالقرب من شاطئ البحر على سفوح التلال ليصل إلى مدينة الحراش ثم سهل متيجة، والذي طفق يصفه فقال: "هو مساحات واسعة عارية، ومع ذلك ترى قطعانا من المواشي ترعى النبات النادر فيه، وتبرز بين بقع خضراء مساكن المعمرين، وتجمعات الأهالي السكنية، بعد الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة، تأتي حقول الدوالي والتبغ ونباتات أوروبية المنشأ، إنها بادية مدينة بوفاريك التي كانت مجرد مستنقع قديم جعل منه

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص133.

فلاحونا، بمشاركة شجاعة من جنودنا، منطقة شبيهة بالنورماندي"[1]، كشف لنا الرحالة عن مدى خصوبة الأراضي الجزائرية، هذا الأمر هو كذلك أحد الأسباب الخفية التي كانت وراء استعمار فرنسا للجزائر، وأكبر دليل على ذلك هو استغلال هذه الأراضي في زراعة منتجات نفعية لفرنسا دون الجزائر، ومن ذلك الدوالي التي كان محصولها يحوّل إلى فرنسا ليتم إنتاج أجود أنواع الخمور هناك، كما أشار إلى أفضليتهم فيما أصبحت عليه هذه الأراضي الآن، وكأن الجزائريين لا قبل لهم بالزراعة وأصولها، رغم أنها كانت مصدر رزقهم الوحيد في غالب الأحيان، فكيف لا يفلح الشخص في إتقان عمل هو مصدر تحصيل قوته.

عاد الرحالة بعد أن وصل القطار مدينة البليدة، وانتقل الحضور إلى قرية سيدي داوود ليصف المشاهد فقال: "المائدة كانت قد نصبت بالقرب من ضريح وليّ، تحت أنسجة ربطت إلى شجرات برتقال فارعة شبيهة بأشجار السنديان عندنا، تحمل جذوعها ثقوبا ناتجة عن رصاصات الحروب القديمة، أ فبإمكاننا أن نخطو خطوة واحدة على هذه الأرض دون أن نعثر على آثار لشجاعة جنودنا؟"[2]، حاول الرحالة من خلال هذا المشهد رسم معالم الحضارة والتقدم الذي تعيشه فرنسا من خلال طريقة تنظيم الاحتفالات و ولائم الغذاء، غير أنه وبطريقة غير مباشرة أقرّ بأن هذه الأرض كانت أرضا زراعية تنتج الخيرات حتى قبل قدوم فرنسا وهذا ما نستشفه من عبارة "شجرات برتقال فارعة" وكذلك من عبارة "رصاصات حروب قديمة"، أما حديثه عن شجاعة الجنود فهو عكس ذلك تماما إذ يستشف من ذلك مدى همجية هذا المحتل الذي لم يفرق بين الإنسان والحيوان وحتى النبات.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص134.

[2] – المصدر نفسه، ص 136.

2.3 الواقع الاجتماعي:

من المظاهر الاجتماعية التي توقف عندها الرحالة في مدينة البليدة انتشار الحكواتيين في المقاهي[1]، وهم في العادة أشخاص من عامة الشعب، غير أنهم يتميزون بقدرتهم الفائقة على الجمع بين براعة السرد وتحقيق عنصر التشويق عند رواية القصص، ودائما ما يتم ذلك في سهرة كل ليلة، بعد ذلك استطرد الرحالة في ذكر تفاصيل معايشته لحفل كان سيقام في حوش "جرواو"، وأول ما رصده هو معاملة بورباقي رئيس المكتب العربي له، قال عن ذلك: "استقبلني السيد بورباقي بحفاوة وعرض عليّ بلطف شديد أن يقوم لي مقام الدليل في هذه النزهة الصغيرة[2]، إن هذا التصرف يكشف لنا مدى التقدير الذي كان يحظى به الفرنسيون من قبل بعض الأهالي الخونة الذين قاموا على خدمة العدو لأجل تحقيق مكاسب نفعية فردية.

وانتقل بعدها الرحالة للإشادة بكرم الجزائريين وحفاوة الترحيب التي يحظى بها الضيف عندهم، وهي حسبه عادة الشرقيين ككل، قال عن هذا الأمر: "عندما رآنا أحمد بن قدور برفقة السيد بورباقي، استقبلنا بهذا اللطف الرهيف وبهذا التقدير العالي، اللذين يعدان سمتين من سمات الشرقيين النبلاء بطبعهم والذين يعدون بسلوكهم جنتلمانات حقيقين"[3]، إن هذا الإطراء في الوصف عند الرحالة يعود إلى حرص أحمد بن قدور وأمثاله على خدمة الاستعمار، ولولا هذا الأمر ما كان ليتحقق لهم هذا الثناء.

---

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص91.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 92.

[3] – المصدر نفسه، ص93.

ومن المظاهر التي وقف عندها تيوفيل غوتييه إفشاء السلام، وهذا الأمر شائع بين العرب، وقد رأى أن هذا السلام له طابعه الخاص عند الشرقيين، وقد قال عن طريقته: "يقتضي السلام الشرقي لمس كفّ القادم الجديد ورفع الأصابع التي لامست أصابع الشخص الأجنبي إلى الفم لوصمها بما يشبه قبلة، وتنهي التحية جملة وعليكم السلام المكررة من الطرفين"[1]، إن التحية عند المشرقي والجزائري خصوصا هي من الثوابت والأمور المتعارف عليها، ذلك أنها سنة من السنن المؤكدة عن النبي ﷺ التي يجب التقيد بها، لما فيها من ثواب عند الله سبحانه وتعالى، وثانيا لما تحمله من معنى ففيها تعبير عن الأمن والأمان، أما تقبيل أصابع اليد بعد التحية، فهذا ما تعارف عليه الجزائريون قديما دون غيرهم، وربما يحمل في ثناياه دلالة على المحبة.

انتقل بعدها تيوفيل غوتييه إلى رسم لوحة عن مجمع القايد، إذ أنه يتكون من ثلاثة بسط ضيقة، هي صنع محلي أبدع فيها القبائليون، وقد صبغت صباغة طبيعية من نبتة الفوة والزعفران، وقد شبهها بما هو موجود في مدينة إزمير التركية، أما الزرابي فهي تشبه تلك الموجودة في بلنسية الإسبانية[2]، وكأن الرحالة أراد التصريح بأن أبسط الأشياء الموجودة في هذا البلد والمتمثلة في الفرش هي تقليد للآخر الأجنبي، فالجزائري حسبه يعيش عالة على غيره، فكل ما يملكه هو من إبداع غيره، استولى عليه بعد تغيير بسيط أحدثه فيه.

وتمثل الرحالة خلال هذا الحفل الذي رصده لبعض صفات الرجل الجزائري من خلال شخص أحمد بن قدور، ومما ذكره عنه أنه نحيف الوجه، صاحب رقة ووجاهة، عيناه صافيتان وحاسمتان

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص93.

[2] – المصدر نفسه، ص 94.

ونافذتان، أنفه كأنف الصقر، لحيته سلكية مدببة، جبهته حليقة مكشوفة، أسمر الوجه، ذو كفين صغيرتين، أظافر بيضاء[1]، إن هذه الأوصاف الجسدية تكاد تكون شيئا مشتركا بين عامة الجزائريين خصوصا ما تعلق بالعيون، غير أن الرحالة حاول الإعلاء من شأن هؤلاء الخونة فجعلهم يشبهون آل فالو وهم أحد فروع أسرة ملكية في فرنسا القديمة.

بعدها انتقل الرحالة إلى التفصيل فيما يرتديه هذا العميل فقال: "كان ملبسه يتشكل من برنس أحمر رسميّ، وبرنس آخر أبيض وسترة خضراء فستقية حائلة، لطيفة، مكسوة بتلك الألوان المنتمية لمجموعة ألوان الشرق. حزامه حريري وسرواله فضفاض وحذاؤه من جلد برتقالي اللون مثل أحذية جنودنا في فرق الهوسار. ملابسه كلها تنم عن ذوق رفيع في الاختيار وتنضح بنظافة شديدة"[2]، إن ما يتمتع به أحمد بن قدور من جمال المظهر لهو انعكاس لما تحب فرنسا أن تراه في أتباعها، حتى تجمّل مظهرها العام أمام العالم، وحتى ترى بأنها الدولة التي تعمل على نشر الرقي والحضارة، أما ما أورده تيوفيل غوتييه من تفاصيل اللباس فيكشف جانبا من التراث اللامادي للجزائر، هذا التراث الضارب في أعماق التاريخ إذ أنه يمتد إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، فالبرنوس هو أحد الموروثات التي كان الجزائري حريصا على ارتدائها خصوصا في المناسبات، كما أن جمال السترة يوحي بتميز الصناعة خصوصا النسيج، وقد أسرّ الرحالة ببراعة الجزائريين فيه، أما حديثه عن الحذاء فيأخذ منه معرفة الجزائريين بالصناعات الجلدية ولو بقدر يسير يكفي حاجاتهم الضرورية.

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 94.

[2] – المصدر نفسه، ص 94-95.

بعدها وضعنا الرحالة في الجو العام لهذا الحفل، فذكر أن المتفرجين كانوا يجتمعون في حلقات مكونة غالبا من أربعة أشخاص أمام كل منهم شمعة تعكس نورها على الأشجار التي يجلسون تحتها، أما ملابس الممثلين وكأنها أخذت من دار أوبرا أوربية، هؤلاء الأشخاص وكعادة العرب في الولائم منهم من يقبل على تناول الكسكسي ومنهم من يشرب قهوة أو يدخن، وأغلبهم قد أحجم عن كل ذلك، وقد كان الرحالة يلاحظ باستغراب شديد ذلك التنوع في الملابس، بيد أنه اعتبر مرة أخرى هذا الأمر من مظاهر قبح الحضارة، وهذا يعكس عمق الحقد والكره المحمول من الفرنسيين لعامة الشعب الجزائري[1].

وعاد الرحالة للحديث عن عادة إكرام الضيف من قبل الجزائريين خصوصا، وعن هذا الأمر قال: " بعد إشارة من القايد وضع عبيد أمامنا، على حافة البساط قصعات خشبية مليئة بالكسكسي وبقطع من لحم الغنم والدجاج مع حليب رائب وشطائر من البطيخ الأحمر. كانت وليمة فاخرة أصبنا منها ما استطعنا. بعد ذلك قدموا القهوة فأشعلت الغلايين"[2]، إن نعت الرحالة لهذا العشاء بالفاخر يشير إلى مدى كرم الجزائريين، ولو أن الأمر هنا كان إكراما لأجل تحقيق الرضى من الجانب الفرنسي عن أحمد بن قدور، أما عن نوعية الطعام فإن المتعارف عليه إلى اليوم هو إكرام الضيف بالكسكسي، هذه العادة المتوارثة والتي توحي رغم بساطة الطعام بمدى التقدير الذي يوليه المضيف لضيفه، وقد كان الكسكسي رمزا لتقدير الضيف، ذلك أنه الطبق الأعلى جودة والأقل تكلفة، وهو متوفر عند عامة الشعب الجزائري.

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص95-96.

[2] – المصدر نفسه، ص 96.

3.3 الواقع الثقافي والديني:

من المظاهر الثقافية التي أشار إليها الرحالة خلال رحلته إلى مدينة البليدة معرفة الجزائريين بالموسيقى، وذلك من خلال ما أبدعه العازفان اللذان أحضرهما أحمد بن قدور، وقد قال في هذا الشأن: "الآلة التي كانا يعزفان عليها هي ضرب من مزمار أو ناي، بلسان مسطح محاط بحلقة من خشب تتشبث بها شفتا الموسيقي... كانت أنغام النايين المزخرفة تبدو وكأنها تتشابك حول اللازمة مثلما تتشابك الحيتان في صولجان هرمس الذي يشكل شارة الطبابة"[1]، إن الوصف الدقيق الذي قدمه حول كيفية العزف يوحي بمدى الإعجاب الذي تحقق في نفس الرحالة، إذ بعد ذلك حاول أن يجد تشبيها مناسبا يعبر به عما عايشه، لكن جمال الموقف جعله يعجز عن إعطاء المشهد حقه من الوصف بإقرار الرحالة ذاته.

إن اعجابه بهذا النوع من الموسيقى جعله يقف موقف المدافع عنها، إزاء ما يعتريها من أوصاف قبيحة من طرف بعض الغربيين، فقد رأى أن الأجواء التي عايشها كانت تساعد الخيال في الرجوع إلى حقب ماضية، قال الرحالة عن هذا الحفل عامة: " كل ذلك كان يجعل الخيال يولي وجهته شطر أقدم الحقب ونحو ذكريات ذلك العالم البدائي الذي ولّى إلى غير رجعة"[2]، فهو لا يخفي إعجابه بهذه الموسيقى التي قد أثرت على مختلف جوارحه، هذا الإعجاب جعله يشبهها بتلك الموسيقى الإغريقية الضاربة في أعماق التاريخ، والتي تنقلك إلى عوالم أخرى أكثر هدوء، بحيث يكون المستمع في كنفها وكأنه كطفل تهمس في أذنه أغاني لينام.

---

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 96–97.

[2] – المصدر نفسه، ص97.

وفي حديثه عن الجانب الديني أشار إلى مجموعة من الفرق الدينية التي عرفتها افريقيا عموما والجزائر خصوصا قال عنها: "توجد في أفريقيا المسلمة فرق أو طرائق عديدة، أو بالأحرى ملل متعددة تجعلنا نتذكر الجمعيات الأخوية الدينية بأوروبا، يوجد العديد منها في الجزائر، وأصول أغلبيتها إن لم تكن كلها من المغرب، المهمة من بينها هي طرائق سيدي عبد القادر الجلالي ومولاي الطيب وسيدي محمد بن عبد الرحمان وسيدي يوسف الحنصالي وسيدي حامد التيجاني ثم طريقة سيدي محمد بن عيسى، مؤسس فرقة عيساوة"[1]، وكأن الرحالة أتى على ذكر هؤلاء المشايخ لينفي عن الجزائر أي دور ديني، بل ورأى أن جل الزوايا الموجودة في الجزائر هي ذات تبعية مباشرة للمغرب، وفي هذا الأمر إسقاط لجزء من هوية الجزائر الإسلامية، ثم إن تشبيه هذه الفرق بالجمعيات الأخوية الأوروبية، دليل على العمل المنوط بها والجهد المبذول من طرفها فكما تعمل تلك الجمعيات في أوربا على نشر المسيحية كانت تعمل بعض هذه الفرق على تمكين الجزائريين من تعاليم الإسلام.

ونجد أن تيوفيل غوتييه قد نقل من خلال رحلته أحد المظاهر الثقافية المشهورة في الجزائر وهي رقص العيساوة الذين ينسبون في أصلهم إلى سيدي محمد بن عيسى المغربي، و مما ذكره عن هذه الرقصة أن الأتباع يتحلقون حول المريد أو شيخ الطريقة العيساوية، ثم يُشرع في الضرب على الدربوكة ضربات خفيفة تتصاعد رويدا رويدا، تتبعها بعض الأصوات، وقد قال عن هذه الأصوات: "فجأة انطلقت صرخة حادة طويلة ومتهدجة، شبيهة بنعيب بومة أو صرخة نسر مدهوش، شبيهة ببكاء طفل مذبوح أو بضحك غول في مقبرة، ....مثل تنهيدة أنثى ضبع والشريرة مثل قهقهة تمساح،

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص98.

أيقظت في الأصقاع البعيدة النباح المبحوح لبنات آوى"[1]، في وصفه هذا ومن خلال التشبيهات التي عقدها لهذه الصرخة يدل على مدى اشمئزازه ونفوره منها فقد قرنها بمجموعة حيوانات مفترسة ضالة.

وقد واصل الرحالة سرده لمجريات هذه الرقصة فذكر أن الضربات على الدربوكة في تصاعد مستمر، يصحبها حركات متناغمة مع هذه الضربات ممثلة في هز الرأس بل وقد وصل الأمر إلى حد احتقان عيونهم، وقد ازداد اهتزاز الرأس فكان ما يقومون به وكأن مؤخر الرأس يضرب الكتفين ومقدمه يضرب الصدر، ثم تطور الأمر فأصبح الاهتزاز يشمل من الحزام فما فوق، وكان البعض منهم يتصبب عرقا ويخرج الزبد من فمهم[2]، إن هذه الحركات التي شاهدها جعلته يستذكر ما كان سائدا في أوربا من خلال رقصة القديس غي، هذا الأمر كذلك جعلهم يتشبهون بحيوانات خصوصا أن رائحة العرق التي سيطرت على المكان جعلت المشهد شبيها بروائح حدائق الحيوانات.

ومما وقف عليه الرحالة خلال الحفل الذي شهده في حوش جرواو، هو إقدام مريدي الطريقة العيساوية على تناول نوع خاص من الطعام، وقد قال عن ذلك: "أخرجت ضفادع وعقارب وأفاع من مختلف الأنواع من حقائب صغيرة فافترسها العيساويون حية وهم يبدون تلذذا، هؤلاء يلعقون مغارف أو مجارف محمرة من النار، وأولئك يأكلون من قصعات الكسكسي المخلوط بالزجاج المسحوق وببقايا حطام، أو يعضون على أوراق صبار فيخترق الشوك وجناتهم" [3]، إن هذه المظاهر الواردة في الاحتفال تحمل إيمانا من أصحابها واعتقادهم الكامل في حماية شيخ الطريقة العيساوية لهم بفضل كراماته

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص105

[2] – المصدر نفسه، ص 106.

[3] – المصدر نفسه، ص109–110.

التي يتمتع بها، وقد سبقهم إلى هذا الأمر الأتباع الأوائل حين تحداهم السلطان إسماعيل ملك المغرب حين قدم لهم آنية تحمل مختلف أنواع الحيوانات السامة ظنا منه أنهم سيتخلفون عن أكلها.

يضيف الرحالة أن مظاهر الاحتفال لم تقتصر على هذا الأمور السابقة فقط، بل كانوا يقلدون أصوات حيوانات مختلفة عند تناولهم للطعام، ومنهم من كان يستلقي على الجمر وكأنه يستلقي على سرير من ورد ومنهم من وضع تحت إبطيه فتائل مشتعلة ثم مررها على كلتا ذراعيه، وقام شخص آخر نصف عار هزيل بضرب صدره بقوة حتى إن الدم يسيل مع كل ضربة يقوم بها، يضاف إلى هذا المشهد صرخات النساء[1]، إن هذه المظاهر هي مما اعتاد العيساويون على ممارسته فهي تشكل أحد الثوابت في رقصتهم واحتفالهم، وهم في ذلك يثبتون مدى ولائهم لشيخهم ورئيس فرقتهم الذي يبذلون في سبيل تحقيق تبعيته أي فعل.

أما آخر مشهد رصده الرحالة في هذه الرقصة وهذا الاحتفال كان إقبال هؤلاء المريدين على أكل الخروف حيا دون ذبح، قال عن هذا الوضع: "بينما كان بعضهم يمسكون به من قوائمه... شرع آخرون يبقرون بطنه بأسنانهم مباشرة ويمضغون أحشاءه مخلوطة بخصل من صوفه. بعد ذلك قام بعضهم بجذب حزمة من الأمعاء نحوهم، كما تفعل الطيور الكاسرة بالجيف، وشرعوا يلتهمونها تباعا، بينما راح الآخرون يغطسون رؤوسهم في هيكل الخروف المنهار، عاضين على القلب والكبد والرئتين"[2]، إن هذا المشهد المرعب يدعوا إلى النفور، فهذا الحرص على تنفيذ التقاليد وطريقة افتراس

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص110–111.

[2] – المصدر نفسه، ص 112.

هذا الخروف تجعل الحيوانات المفترسة عاجزة عن مجاراتهم فيه، فهو موقف لا يستطيع حسبه العاقل تخيله.

ينتهي هذا الحفل الغريب بعد فتور هذه الرؤوس العارية عن الاهتزاز والتي كانت تشبه ذقونا محلوقة اللحى، وقد ساهم الدم الملطخ لتلك الوجوه في ارتسام مظهر حيواني شديد البشاعة لهؤلاء المريدين، "وإن تلك الرؤوس الزرقاء المركبة على أعناق حمراء وهي تغطس في أحشاء الخروف الخافقة، يبدو لنا وكأنها كواسر، نصف جسدها إنساني ونصفه الآخر ضاري"[1]، إن ما رصده وعايشه الرحالة في هذا الحفل الذي حضره جعله يقف على أحد المظاهر الثقافية التي تتميز بها الجزائر والمغرب العربي عموما، والذي يتسم بنوع من الخشونة والهمجية.

4. تمثلات مدينة قسنطينة في رحلة تيوفيل غوتييه:

بعد أن زار تيوفيل غوتيه مدينتي الجزائر والبليدة، قصد مدينة قسنطينة والتي وصل إليها مع غروب الشمس، فانكبّ يصف طبيعتها وعمرانها وأحوالها.

1.4 الطبيعة والعمران:

قسنطينة مدينة شرقية بصوامع عاجية تعلوها أهلة جاثمة على صخرة بعلو ثمانمائة قدم حاصرها الجنرال دامريمون ومات خلال ذاك الحصار، أهم ما يميز المدينة الثكنة القديمة الإنكشارية بنوافذها الطويلة والمقوسة، والصهاريج الرومانية القديمة، قمم صوامع جوامعها مزخرفة بخزف أخضر، إحداها تميل كبرج بيزا دون أن تكسب شهرته، والصومعة المبيضة بالجبس خارج الباب الذي دخل

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 112.

منه الجيش الفرنسي، وقصر الباي نصف منهار، وادي الرمال تراه أحيانا جافا وأحيانا أخرى جاريا، مهمته الرئيسية تحصين المدينة، وقد نتج عن جريانه هوة بمقدار ثمانمائة قدم، تعلوه جسور ترعب أقواسها العملاقة العيون بارتفاعها، أما جسر القنطرة الذي يعلو وادي الرمال فإن منظره يشبه قناة سيغوفيا بإسبانيا، أو قنطرة غار بفرنسا، أسسه الأولى قرطاجنية والوسطى رومانية وتكفل الاسبان بالباقي، به نحت غائر لفيل يبدو وكأنه يتعبد لوجه امرأة ملثمة، وقد أعيد ترميم أعلى الجسر من طرف مهندسين إسبان أحضرهم أحمد باي[1]، إن هذا الوصف الذي ساقه الرحالة لمدينة قسنطينة إنما هو في الحقيقة ناتج عن قوة تأمل لهذه المدينة العجيبة التي لا زالت إلى اليوم تحافظ على جزء من هذه الهندسة العريقة، فقد وقف منبهرا أمام صمود هذه المدينة وتعاقب حضارات مختلفة.

إن ما أعجب به تيوفيل غوتييه كذلك منظر غروب الشمس الذي شاهده في هذه المدينة الجاثمة فوق صخرة، وقد قال عن هذا المنظر: "كانت تلوينات المغيب البرتقالية تلتقي بزرقة السماء، فتنتج ألوانا فيروزية مخططة بأشرطة ضيقة من السحاب، سمراء من أعلى ومنعكسة على أسفلها ألوان محمرة مثل بطون بعض الأسماك. على عمق السماء الشرس هذا كان تحليق الكواسر وطيور اللقلق يسطر فواصل كبيرة سوداء، وكانت جدران المدينة ترتسم في شكل زوايا معتمة فوق الصخرة"[2]، إن جمال الوصف هنا يجعلك تشعر وأن الرحالة بصدد رسم لوحة فنية أولى فيها اهتماما بأدق تفاصيل المشهد الطبيعي، هذه البراعة في الوصف توحي بأن تيوفيل غوتييه كان مغرما بمشاهدة هذه

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، 179–185.

[2] – المصدر نفسه، ص 115.

المناظر التي تسرّ العين، وقد حاول خلال هذا الوصف عقد تشبيهات حتى تكون المناظر التي يرصدها أقرب إلى ذهن القارئ فيحاول معايشتها.

ومن النباتات التي وقف عليها في هذه المدينة نبات الصبّار الذي كان يطاول السماء في ارتفاعه فكان حسب الرحالة كفقرات حوت العنبر، كذلك كانت حواف الطرق مليئة بنبات الألوة الذي شبهه بقطيع من الوحوش أو حفنة جنود.

بعدها انتقل الرحالة إلى وصف هيكل المدينة، فقال عنها: "بنيت قسنطينة، مثل الحمراء وروندة بالأندلس، في هيئة نسر جاثم على قمة صخرة عظيمة، تعزلها بشكل كامل هوّة يسري في عمقها النهر المسمى ((وادي الرمال))، فلا ترتبط بالأرض إلا بواسطة جسر ونوع من قناة تعد نقطة الولوج الوحيدة. لم تفقد مدينة أحمد باي أيّا من مظاهرها العربية، رغم أنّها أصبحت خاضعة للحكم الفرنسي. احتفظت بأزقتها الضيقة الموسومة بمتاهاتها التي يستحيل الخروج منها، وبمنائرها المائلة ومنازلها العمياء وأبوابها الواطئة وبكل هيئتها الشرقية"[1]، إن جمال مدينة قسنطينة حذا بالرحالة إلى تشبيهها بالمدن الأندلسية فهي مرة الحمراء ومرة روندة، إذ أن الميزة المشتركة بين هذه المدن الثلاثة أنها ذات طابع عمراني إسلامي، ثم إن تشبيهها بالنسر يوحي بمدى الرهبة التي تبعثها في النفس إذا وقفت على أحد حوافها للمرة الأولى، كما أن وادي الرمال والجسور التي تربط أجزاء المدينة تزيد من جمالية المنظر، أما نسبتها إلى أحمد باي ففيه إشارة إلى تاريخ هذه المدينة التي تعاقبت عليها حضارات متعددة كان آخرها الحكم العثماني بقيادة أحمد باي الذي هزمه الفرنسيون و استولوا على المدينة،

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 116–117.

وأهم ما ورثته هذه المدينة، هو طبيعة العمران ذي المسحة الشرقية، فالشوارع ضيقة ملتوية أما المنازل فهي ذات أبواب متدنية قريبة إلى الأرض مع انعدام النوافذ بها.

وواصل تيوفيل غوتييه حديثه عن هندسة المدينة وعمرانها فقال: " مشينا في الأزقة الضيقة للغاية والتي لا يستطيع حماران أن يمشيا فيها جنبا إلى جنب بحمليهما. منازل بطوابق تشرف على الطريق شبيهة بدرجات مقلوبة، كثيرا ما تتماس من أعلاها، معترضة شعاع الضوء الضعيف الذي ترسله سماء الليل. كانت بعض الممرات تعلوها قباب فتبدو مثل سرداب. وكان ظلانا... يتأرجحان على شق جدار خشن، وعلى أبواب قديمة مغلقة بأقفال على شاكلة أبواب السجن"[1]، هندسة الشوارع تشبه إلى حد كبير تلك الهندسة الموجودة في القصبة والتي كان قد تطرق إليه،ا لذلك لم يبد اندهاشه أو إعجابه بهذا الأمر، أما المنازل فإن هندستها حسبه غير الصحيحة تجعل انسياب الضوء أمامها منعدما، وقد حافظت الممرات على شكلها المعهود فهي مقوسة، فينتج عن ذلك قباب صادفها الرحالة بين الفينة والأخرى، وفي حديثه عن الجدران إشارة إلى قدم عمران هذه المدينة التي تمتد عبر حقب زمنية قديمة.

أما المنازل في مدينة قسنطينة فهي ذات تصميم يعتمد في الأساس على الأفنية التي تحيط بها أعمدة صغيرة تقوم عليها أقواس في شكل قلب، وتستعمل لإنارة كل منها ما يقرب من عشرين شعلة صغيرة تسبح في كؤوس مليئة زيتا ومعلقة بخيوط نحاسية[2]، إن هندسة هذه المنازل حسبه هي ذاتها تلك الموجودة في الأندلس، وهي هندسة مغاربية إسلامية حصرا، أما حديثه عن طريقة الإنارة

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص119.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 120.

تلك فهي من العادات المتعارف عليها، إذ أن وضع الزيت يبطئ من اشتعال الفتيل، كما أن تعليقها بالخيوط النحاسية ضمان لعدم وقوعها فالنحاس من المعادن التي تتحمل شدة الحرارة، والأكيد أن هذا المنظر قد بعث في نفسه شيئا من الإعجاب، فهو لم يسبق له أن اطلع على شيء مماثل.

كما وقف الرحالة على انعدام الأضواء بالطرقات، ذلك أنه: "بعد رواح ومجيء متهمسين، شعرت بنفسي وسط عجين الظلام الكثيف، لا أضواء في النوافذ، والسبب أن النوافذ لا تنفتح على الطريق في قسنطينة... تتبعت الأسوار بتلمسها بكفي، لكنني كنت أنتقل من عتمة إلى عتمة"[1]، إن حديثه عن معاناته في التنقل أثناء الليل يشير إلى مدى صعوبة مسالك مدينة قسنطينة، كما يشير إلى بعض عادات العمران المنتهجة في هذه المدينة، والتي منها انعدام النوافذ على الجدران الخارجية للمنازل، إذ أن كل نوافذ المنازل تكون داخلية، لها اطلالة على فناء المنزل أو مربع الدار، ذلك أن أهل قسنطينة كانوا يرون في هذا الأمر حفاظا على حرمة المنزل، وصونا لكرامة صاحبه.

عاد الرحالة مرة أخرى للحديث عن هندسة البيت القسنطيني، فأول ما لاحظه الرحالة عن منزل عائشة وأختها الراقصتين أن الباب له قفل عربي، أما داخليا فهو مطلي بالجبس، يتكون من غرفة واحدة، على سقفها رسمت نجمة، كما يحتوي المنزل على صندوق خشبي يتخذ في العادة عند الأهالي لحفظ الملابس وغيرها من الأشياء، كذلك ما استرعى انتباهه في هذا المنزل، الطريقة البدائية في تبريد الماء، إذ يوضع في إناء فخاري وينصب على مسند نافذة تطل على وادي الرمال، ويترك حتى يبرد، أما الأفرشة وغريها من الأثاث فكانت توضع في مخادع تنصب على جدران الغرف[2]، إن

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 126–127.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 128.

أهم ما يستقى من خلال هذا الوصف الذي ساقه الرحالة هو بساطة البيوت الجزائرية، خصوصا بيوت الطبقة المتوسطة والكادحة.

ويشير الرحالة إلى جمال الإطلالة الصباحية من منازل قسنطينة فقال: "ليست الليالي طويلة في أفريقيا خلال شهر أغسطس. ولج شعاع مزرقا الغرفة من الكوة التي يبرد فيها ماء الآنية الفخارية، فأتى ليصيب لون المصباح المرتعش بالصفرة. عندئذ وقفت وأطللت من الكوة. كان وادي الرّمال، الذي يمتد فوقه قوسان عملاقان، يسري في ضباب أزرق تحت جدار المنزل، وكانت النوارس التي تسقط الأفاعي على أسطح قرميد قسنطينة، قد شرعت تحلق بعنف عبر فورة تحليق طيور الترغلة الرمادية"[1]، إن جمال هذا المنظر إنما هو بعض من جمال مدينة قسنطينة، كما أنه يعكس مدى معرفة الجزائريين بالهندسة فقد صممت المنازل القسنطينية بطريقة تجعل اطلالاتها متفردة تبعث في النفس راحة وطمأنينة، وتجعل قاصدها أو ساكنها في راحة تامة.

2.4 الواقع الاجتماعي:

أول ما تناوله الرحالة على لسان مرافقه عن مدينة قسنطينة كان قوله: "الحضارة لم تشمل قسنطينة بعد بمظاهر تقدمها. إن الغاز والمصابيح لا تزال مجهولة تماما كما كانت مجهولة في زمن محمد، فيعم الطرقات ظلام دامس يجعل الضياع فيها أمرا في غاية السهولة"[2]، إن الحديث عن انعدام الحضارة في هذه المدينة، إنما هو في الأساس لأجل تسويق تلك المقولة التي كانت تتغنى بها فرنسا منذ قدومها للجزائر ألا وهي نشر الحضارة، فهو يشير إلى أن الحياة لا زالت هنا بدائية تعتمد

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 129–130.

[2] – المصدر نفسه، ص118.

في أساسها على ضوء الشموع لا غير، وهو نفس نمط الحياة الذي كان حسبه يعيشه رسولنا الكريمﷺ، وكأن الحياة الحضرية في هذه المدينة منذ عهد الرسول ﷺ لم تسر بمقدار ميل، ويردف أن انعدام هذا المظهر الحضاري – استعمال المصابيح– ينعكس على الحياة العامة، فأول ما تواجهه جراء هذا الأمر هو الضياع في هذه الشوارع المتداخلة.

كما كان للنساء نصيب من الوصف عند الرحالة، فبعد دخول أحد المنازل أخذ يتحدث عن النساء اللواتي أبصرهن هناك، فقال عنهن: "كانت تجلس مقرفصة تحت الأقواس، في وضع قرود المكاك، سبع نساء عجائز أو أكثر... عيونهن الشبيهة بعيون البوم، والتي تلمع وسط هالات داكنة واسعة، وأنوفهن البراقة مثل مناقير الطيور الكاسرة، وحواجبهن الكثيفة السوداء، ولون جلدهن الشبيه بلون الأحذية وقد دبغته ستون سنة من الشمس... كن يمسكن بين أيديهن السمراء مثل قوائم قرد بدرابك"[1]، إن هذه الأوصاف التي أوردها إنما هي في الحقيقة عنده نعت للمرأة الجزائرية التي يسعى للحط من قيمتها، فيرى أنها إحدى المظاهر السلبية لهذا الحفل الذي سيقام، وشبه ملامحها الجسدية بحيوانات مفترسة، فقد قرن تقريبا كل جزء منها بحيوان ينفر الإنسان منه لمجرد سماع اسمه.

في مقابل هذه الصفات التي ساقها للمرأة الجزائرية، نجده قد تحدث عن اليهوديات فقال: "بعضهن كن يهوديات، كما يدل على ذلك الشريط المخملي الأسود الرقيق والمزخرف الذي يعصب أصداغهن النحيلة، ويحلق طرفاه في الخلف على أكتافهن النحيلة. لم تفسد اليهوديات يوما حفلات السَّحَرِ"[2]، فهو هنا على عكس ما أورده عن بعض النساء الجزائريات، لا يخفي إعجابه بالنساء

[1] تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص120.

[2] – المصدر نفسه، ص 120.

اليهوديات، إذ رأى أن ما ترتديه هذه النساء كان ذا تناسق تام مع أجسادهن مما أسهم في جمال منظرهن العام، وهن حسبه صاحبات ذوق مرهف فهن يعرفن كيفية التصرف في الحفلات.

عاد الرحالة مرة أخرى لوصف بعض النساء الجزائريات الموجودات في الحفل قال: " وكانت تجلس قبالتهن، على الطريقة الشرقية، أربع فتيات أو خمس... جفونهن المسودة من الكحل وحواجبهن المصبوغة والممتدة إلى حدود منبت الأنف، كل ذلك يدمغ جمالهن بطابع غريب لا يخلو من جاذبية"[1]، وإن ما أورده من صفات يوحي بأن هؤلاء النسوة هن من الطبقة العليا، كما أنه يقف في حالة إعجاب لهذا الجمال، هذا الجمال حسبه يدفع المتأمل إلى إمعان النظر حتى يقف على مدى الجاذبية الذي تتمتع به المرأة الجزائرية، كذلك بحديثه عن المرأة الجزائرية ثم النساء اليهوديات فيه دلالة على مزيج الأجناس في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، كما يشير إلى الطبقية الموجودة عند الجنس العربي الجزائري إذ هناك طبقة كادحة فقيرة نعت تيوفيل غوتييه نسائها بأبشع الأوصاف، فيما استعمل أجود الكلمات عند حديثه عن نساء الطبقة الغنية.

شرع الرحالة بعد ذلك في وصف راقصتين، ومما أورده عنهما: " كانت هذه الراقصة طويلة ومليحة، أطرافها ممتلئة وقوية وتبدو دون ثقل، من تحت ملابسها الفاتنة واللامعة تحت الضوء... وسرعان ما انتصبت راقصة أخرى وأتت لتقف أمامها، لم يكن عمر هذه يتجاوز كما يبدو الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وكانت رقيقة ورشيقة وقصيرة، كان جسدها لا يزال يتمتع بليونة الطفولة ومبتدأ المراهقة، وكانت ملامحها، الشديدة الرقة والتناسق، تتمتع بطراوة ظاهرة وبصفاء صخر منحوت

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 121.

بإزميل... الجفنان الأسودان الكبيران والحاجبان المصبوغان بالكحل"[1]، إن هذا الوصف للراقصات خصوصا الراقصة الثانية يحتوي على كثير من الشهوانية، والإمعان في المثيرات الجسدية لهن، وهي عادة يسير عليها أغلب الأوربيين الذين وطئت أقدامهم الجزائر، فهم ينقمون على أغلب النساء الجزائريات ويستبيحون أوصافهم ومفاتنهم لأجل تحقيق تلك النظرة السلبية نحوهن.

3.4 الواقع الثقافي:

يشير الرحالة إلى أحد العادات المتوارثة في ذاك الزمان حين حديثه مع الشخص الذي أرسل إليه، يقول هذا الشخص: "الجن أطياف تستلذ إقلاق سكان بعض المنازل... رغم الأكف الخضراء والحمراء المرسومة على الجبس الأبيض للجدران، باعتبارها واقية من الشرّ"[2]، إذ أن من العادات التي كانت منتشرة عند الجزائريين قديما، أن يعمد أهل البيت إلى رسم كف اليد والأصابع الخمسة على جدران البيت، وغالبا يستقر هذا الرسم أعلى الباب الرئيسي للبيت، وهذا الأمر له دافع واحد حسب من يقومون به، ألا وهو ابعاد عين الحاسد عن الفتك بهذا المنزل وأهله، وهذا الأمر من الخرافات التي لا يقوم بتصديقها إلا جاهل.

ولم يغفل الرحالة الحديث عن التراث المادي لهذه المدينة، فقد أمعن في وصف لباس نساء قسنطينيات كن يخضرن الحفل فقال: "وكانت تجلس قبالتهن على الطريقة الشرقية، أربع فتيات أو خمس يضعن على رؤوسهن تلك المناديل الحريرية ذات الألوان الفاقعة والمخططة بخيوط ذهبية اللون، والتي تجيد النساء المسلمات لفها ببراعة حول المنديل المخملي الذي يغطي قنن رؤوسهن،

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص123.

[2] – المصدر نفسه، ص118.

يرتدين ستراتهن المزخرفة وقميصا من شف مفتوحا على الصدر، وسراويل قطنية تقف عند الركب، ومنديلا مخللا بخيوط ذهبية يقوم مقام الحزام، أما ((الفوطة)) وهي نوع من تنورة مفتوحة من الأمام مربوطة على الوركين، فهي ضرب من منديل مخطط بلوينات مشرقة. هذا هو ملبسهن"[1]، إن الرحالة عند حديثه عن لباس هؤلاء النساء القسنطينيات نجده وقف عند كل جزء منه بشيء من الوصف، فأول ما لاحظه عن هذا اللباس أنه يقوم على مزج الألوان التي تشكل فيما بينها تناسقا تنبهر له العين، ورغم قصر السراويل التي كانت تصل إلى الركبة فهن يعمدن إلى استعمال الفوطة، حتى يسترن ما تبقى من أجسادهن، والأهم من هذا أنهن حريصات على التمسك بدينهن من خلال ارتدائهن للحجاب.

كما تناول الرحالة بالسرد ما كانت تتزين به المرأة القسنطينية إذ قال عن ذلك: " وكانت أقراط كبيرة بذوق بدائي تتهادى في آذانهن، كما أن بعضهن كنّ يحملن في شكل حلقات، وهي تقليعة قسنطينية خالصة، ثلاث سلسلات ذهبية معلقة إلى حجرين كريمين مثبتين إلى الصدغين، فتحيط بإطار المحيا دون أن تمسه"[2]، ما يلاحظ من خلال هذا الوصف هو حرص المرأة القسنطينية أن تبدو بأفضل مظهر يليق بها، ثم إن حديثه عن طريقة ارتداء الأقراط ووصفها بالبدائية، ذلك أن فيه مخالفة للنساء الأوربيات فهن يرتدين أحلاقا غالبا ما تكون متلاصقة مع آذانهن، يضاف إلى ذلك تفصيله فيما ترتديه هؤلاء النسوة من ذهب دلالة على أنهن من الطبقة الاجتماعية الراقية في قسنطينة.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص120.

[2] – المصدر نفسه، ص 120.

وقد تناول الرحالة تيوفيل غوتييه طريقة الرقص عند النساء القسنطينيات مقارنا إياها بما هو متعارف عليه من رقص النساء الأوربيات، وأول محطات المقارنة كانت في استعمال الساقين فالرقص الشرقي يقوم على تثبيت القدمين إلى الأرض فتضلان بلا حراك، على عكس الرقصي الأوربي فهو يقوم على تحريك القدمين، فتحريك القدمين في الرقصي الشرقي لا يكون ملحوظا للعامة، على أن ترفع الساقان إلى مستوى العين في الرقص الأوربي، فرفع الساق عند العرب هو من الفواحش التي تتعارض والتعاليم الدينية رغم أن سروال الراقصات يكون واسعا فضفاضا، وثاني محطات المقارنة بين الرقصتين كانت في ذكر تفاصيل الجسد، فالرقص الشرقي يقوم على هزّ الردفين وفتل الخاصرة وإمالة الرأس، وتحريك الذراعين يرافقه سلسلة من الأوضاع الشهوانية حسب الرحالة، أما الرقص الأوربي فيعتمد على ثبات الجسد[1]، هذه المقارنة التي عقدها الرحالة تبين حسبه مدى تحضر المرأة الراقصة الأوربية التي تحجم عن الكشف عن مثيراتها الجسدية، عكس ما تسعى إليه الراقصة الجزائرية.

ومن مظاهر الاحتفال التي وقف عليها قوله: "كنّ يملن أجسادهن إلى الأمام ثم يلقين بها إلى الخلف... شرعن يحركن بقوة وشغف المناديل المخططة بألوان ذهبية... كنّ ينفلتن في شكل لولبي مع سرعة تزداد مرة بعد مرة، وسرعان ما انفسخت المناديل التي تغطي شعرهن، فتبعثر، وقد تحلل من قيده، على أكتافهن وأعناقهن وجباههن ووجناتهن وأثدائهن، مثل مجموعة من الأفاعي السوداء المطرودة بعنف من جحورها. بدا وكأن الخصلات السوداء لهذا الشعر... أن هي إلا أشرطة جلدية لسوط يحركه جنيّ غير مرئي وهو يجلد بملء ذراعه الراقصات كي يسرعن رقصهن الصرعيّ"[2]، إن

[1] – ينظر: تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 123-124.

[2] – المصدر نفسه، ص124.

مظاهر الاحتفال التي وقف عليها جعلته يعيش أجواء كتلك التي عاشها حين حضوره حفل العيساوة، فقد نقلته هذه الأجواء من عالمنا إلى عالم آخر تخليه بحضور الجن، وفي قوله بانفلات الراقصات تأكيد على المقارنة السابقة التي أجراها حول كيفية الرقص، وهو في كل هذا يشبههن بالمحتفلات الإغريقيات القديمات.

إن المرأة القسنطينية كانت ولا تزال تستعمل الحايك أثناء تنقلاتها المختلفة خارج أسوار منزلها وقد رصد تيوفيل غوتييه هذا الأمر بعد انتهاء حفل رقصة الجن فقال عن الراقصتين: "هما عائشة وأختها، كانتا عائدتين إلى مسكنهما، ملفوفتين في حايكيهما"[1]، فالحايك عند المرأة القسنطينية أو غيرها من النساء الجزائريات كان يعتبر السبيل الوحيد لستر النفس عند التنقل كما أنه من رموز الهوية الثقافية.

[1] – تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، ص 127.

الفصل الثالث صورة الجزائر في أدب رحالة فرنسيين

I. ثنائية باتنة وتقرت عند زاكون ولارقو

1. مدينة باتنة في رحلة جوزيف زاكون
   1.1 الطبيعة والعمران
   2.1 الواقع الاجتماعي والاقتصادي
   3.1 الواقع الثقافي
2. مدينة تقرت في رحلة فيكتور لارقو
   1.2 الطبيعة والعمران
   2.2 الواقع الاجتماعي
   3.2 الواقع الاقتصادي

II. تمثلات غليزان ووهران عند الآخر الرحالة الفرنسي

3. مدينة غليزان في عيون فليكس لاباتو
   1.3 الموقع والتاريخ
   2.3 الواقع الاجتماعي والديني
   3.3 الواقع الاقتصادي
4. مقاطعة وهران في عيون جورج روبرت
   1.4 الطبيعة والعمران
   2.4 الواقع الاجتماعي
   3.4 الواقع الديني

I. ثنائية باتنة وتقرت عند زاكون ولارقو

1.مدينة باتنة في رحلة جوزيف زاكون:

شكلت مدينة باتنة قبلة لعديد الرحالة الأجانب خصوصا الفرنسيين منهم، وقد تعاقب عليها الرحالة الفرنسيون خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وقاموا بتصويرها في رحلاتها، ومنهم الرحالة الفرنسي جوزيف زاكون* "Joseph Zaccone"، وقد تناول هذه المدينة بشيء من التفصيل في الوصف.

1.1 الطبيعة والعمران:

إن أول ما استهل الرحالة به رحلته، هو حديثه عن أصل تسميتها وكذلك رسم معالمها، إذ قال: "كلمة باتنة تعني بالعربية "المبيت المؤقت" أو "المعسكر" والكلمة الأصلية هي باتنة التي تُترجم بهذه العبارة : لقد نمنا هنا أو لقد بتنا هنا، هذه المدينة واقعة عند خط العرض °35,35 شمالًا وخط الطول °350 شرقًا، توجد على ارتفاع 1036 مترًا فوق مستوى سطح البحر، وفي وسط سهل صغير تحيط به جبال عالية مكسوّة بالغابات، هذه الجبال هي جبال الأوراس في الجنوب، جبل كاسرو في الشمال، قمة تقرت في الغرب، وجبل بوعريف في الشرق، تقع باتنة على بعد 30 فرسخًا جنوب قسنطينة، وبالتالي

* جوزيف زاكون joseph zaccone رحالة فرنسي زار الجزائر سنة1865م.

على بعد 50 من فيليبفيل"[1]، وقف الرحالة بالوصف على موقع المدينة فكان الوصف دقيقا إذ حدّد أهم المعالم المحيطة بها، فهي تقع وسط نسيج غابي يحيطها من جهات ثلاث، كما تنفتح على الشرق الجزائري من خلال مدينتي قسنطينة وسكيكدة، هذا الوصف يجعلك تدرك أهمية الموقع الاستراتيجي الذي تحتله هذه المدينة في الشرق الجزائري، لذلك سعت فرنسا للسيطرة عليها.

بعد أن وقف على موقعها الجغرافي انتقل الرحالة لرسم معالم هذه المدينة، وأول ما تحدث عنه هندسة المدينة بشكل عام، فهي حسبه مبنية بشكل منظم، شوارعها مرسومة بخط مستقيم، والطريقان الرئيسيان مزروعان بالأشجار. أما المنازل فأغلبها لا يحتوي إلا على طابق أرضي، ويتزين وسط المدينة بساحة جميلة تتوسطها نافورة، في طرفها الشرقي تقع الكنيسة، وفي الغربي منه يوجد سوق الحبوب المبني على الطراز الموريسكي، وإلى أسفل قليلاً توجد سقاية، وخلف السوق مكان مخصص للحيوانات[2]، هذا الوصف يكشف أن المدينة على شيء من التنظيم، هذا التظيم قد توارثته من الحضارات السابقة التي تعاقبت عليها خصوصا في مجال العمران، أما حديثه عن المنازل ذات الطابق الأرضي، يشير إلى مدى بساطة العمران الجزائري وحسب الجزائري بيت بسيط يأويه وعائلته، أما وجود الكنيسة ففيه دلالة على استيطان المسيحيين هذه المدينة منذ بداية الاحتلال الفرنسي.

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, librairie militaire, paris France, 1865, p 15-16.

[2]–Ibid, p16.

إن أهم ما حرصت عليه فرنسا عند نزولها إلى مدينة باتنة هو تشييدها المقرات العسكرية، وقد تناول الرحالة هذا الأمر خلال رحلته فقال: "باتنة هي المقر الإداري لتقسيم عسكري، الحامية التي يبلغ عددها ما بين 1200 و1500 جندي، تتكون من مختلف الأسلحة، المدينة والمعسكر يشكلون متوازي أضلاع واحد طوله كيلومتر وعرضه بين 400 و500 متر، يحيط به سور مسنن ومدعّم بالأبراج، المعسكر مفصول عن المدينة بسور مسنن، جميع المنشآت العسكرية توجد داخل المعسكر، والإسطبلات يمكنها استقبال 400 حصان، المستشفى الجديد سيضم حوالي 300 سرير، ويمكن لمستودع التموين تخزين مؤونة تكفي لمدة تتراوح بين سنتين إلى ثلاث سنوات"[1]، حرص فرنسا على تشييد المنشآت العسكرية في هذه المدينة وعدد الجنود المتواجدين بها، لدليل قاطع على أهمية هذه المنطقة في الخريطة الفرنسية، كما كشف الرحالة عن مدى حرص الاحتلال على توفير الجو المناسب لرعاياه من خلال توفير المؤونة وإنشاء المستشفى.

كذلك من البنى التحية التي تتوفر عليها مدينة باتنة فندق يتوسط المدينة، وهو فندق متوسط كما أقر بذلك الرحالة بعد أن نزل فيه وعاينه، غرفه مفروشة بشكل بسيط ونظافتها مشكوك فيها، المطبخ هناك متقلب، جيد في اليوم الذي لا يذهب فيه الطباخ للعب البلياردو، سيء في اليوم الذي ينفق فيه أكثر مما ربح[2]، وتعتبر الفنادق من المنشآت التي عمل الاحتلال الفرنسي على الاهتمام بها، ذلك أنها

[1] – J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 16-17.

[2]– Ibid, p17.

ضرورية لإيواء الوافدين من أفراد المنظمات الذين تستقدمهم فرنسا للوقوف على جودة الحياة في الجزائر، ترويجا لمزاعمها المغلوطة حول تحسين ظروف الحياة هنا.

من المحطات التي زارها الرحالة كذلك وادي الأسد والذي يقع بالقرب من مدينة لامبيس (تازولت حاليا) ولم يخف إعاجبه بهذا المكان، تقع بمحاذاته غابة تزداد كثافة كلما نزل إلى عمق الوادي، وهذا ساعد على لطافة الجو[1]، وسبب تسمية هذا الوادي بوادي الأسد يعود لوجود الأسد الأطلسي هناك خلال الحقبة الاستعمارية وما قبلها، غير أنه انقرض ولم يعد له وجود الآن.

كما زار زاكون لامبيس و"التي تبعد 40 كيلومترًا إلى الجنوب من باتنة، عند سفوح جبال الأوراس"[2]، وهي إحدى أقدم المناطق في مدينة باتنة، وأهم ما ميزها في العهد الاستعماري وجود سجن أنشأته فرنسا، والذي يتزين بفسيفساء جميلة تقع في حديقته، كما وقف على جانب من الآثار وهو مبنى البريتوريوم الذي يقع على بُعد خمسين مترًا من السجن، وهو مبنى مستطيل ضخم يبلغ طوله نحو ثلاثين مترًا وعرضه خمسة وأربعين مترًا، في داخله توجد تماثيل كثيرة، بعضها من الرخام الأبيض، وبعضها من الحجر، كلها محطمة على يد البرابرة من مختلف الأمم؛ إضافة إلى بقايا متنوعة: أذرع، أيادٍ، سيقان، أقدام، رؤوس، أعمدة، تيجان أعمدة، حجارة جنائزية، إلخ... إن فحص هذه البقايا يثبت أن فن النحت قد وصل إلى هذه المناطق النائية، وأن مدينة لامبيس الرومانية كانت ذات أهمية كبيرة. وينتاب المرء أثناء التأمل فيها شعور مزدوج: فضول، وحزن عميق على مجد غابر بواباتها ما زالت قائمة، والمدرجات، وأطلال

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 26.

[2]– Ibid, p 25.

قناة مائية، وأطلال معبد مكرس لـ "إسكولابيوس [1]، إذن يمكن القول أنّ هذه المدينة ذات جذور تاريخية عميقة، غير أن عدم إدراك الجزائري حسبه لقيمة هذا الكنز التاريخي عجل في اندثاره، فالجزائري كما صوّره الرحالة إنسان بدائي يعيش في قطيعة تامة مع الحضارة وما يتصل بها.

وقد عمد الرحالة إلى استكشاف جل مناطق مدينة باتنة، فقد وقف في محطة أخرى خلال رحلته عند غابة الأرز، محددا موقعها فهي تقع شمال غرب باتنة، على امتداد ثمانية إلى تسع كيلومترات؛ بعدها نجد واديا يُسمّى الوادي الأزرق، وذكر في سبب تسميته أنه، يظهر عندما يُرى من باتنة بلون مائل إلى الزرقة، وعند التوغّل في هذا الوادي، يكون على يميننا جبل كاسرو وإلى اليسار جبل بومرزوق، وأمامنا جبل أريس[2]، إن جمال الطبيعة في مدينة باتنة جعله يتوغل في محيطها لزيادة اكتشافها، كما وقف مطولا أمام هذه المناظر الطبيعية التي نادرا ما ترى عينه مثلها متأملا هذا الجمال، فهذه المناظر تساعد على الراحة النفسية، من خلال التنوع الموجود في هذه الطبيعة، وما زاد من جمال المنظر هو الإطلالة التي يمنحها جبل أريس، إذ ترى مدينة باتنة وكأنها خريطة ملونة، يضاف إلى ذلك ما تمتاز به الغابات عموما من ممرات ضيقة ومنحدرات ومرتفعات شاهقة.

مقابل هذه الجبال وهذه الطبيعة الجميلة، يمتد سهل بلزمة والذي قال عنه الرحالة: "إلى يسارنا كان يمتد سهل خصيب كأنه سجادة خضراء هائلة غير متجانسة مرقطة ببقع بنية، إنه سهل بلزمة الخصيب"[3]،

[1] – J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 27.

[2] – Ibid, p 35.

[3]– Ibid, p 38.

فهذا السهل ونظرا لخصوبته عمل الاحتلال على استغلاله وفقا لمصالحه وأولوياته، حيث استغل مردوده لتموين قواته العسكرية الموجودة بالجزائر، أو تأمين احتياجاته الغذائية هناك في فرنسا.

وكعادة مختلف الرحالة الفرنسيين المهووسين بالطبيعة وجمالها، نجد جوزيف زاكون وقف طويلا عند منظر غروب الشمس، فقال عنه: "كانت الشمس المشرقة قد غابت توا، والسماء قد ارتدت كل ألوان الطيف الشمسي: أصفر لامع عند الأفق، ثم برتقالي فوقه، يليه الأحمر، فالبنفسجي ... سحب حمراء بنية محاطة بحمرة فاتحة، كانت السماء رمادية لؤلؤية، مائلة قليلًا إلى البنفسجي، اختفى اللون الأصفر تدريجيًا ليترك مكانه للأحمر الأكثر توهجًا، كان المرء ليظن أن الأرض مشتعلة من ناحية الغروب، وأن حريقًا هائلًا كان يضيء السماوات، في أقل من ربع ساعة، بدأت الألوان تختفي شيئًا فشيئًا، وازدادت السحب عتمة، وغطّى الليل تلك الأرض"[1]، إن جمال منظر الغروب خصوصا من أعلى الجبل لَهُوَ مشهد رائع حقا، يبعث في النفس شعورا بالابتهاج، وهذا ما وصل إليه الرحالة بعد تمتعه بهذا المنظر الذي من المؤكد أنه لم ير مثله في بلده فرنسا، وهذا الابداع في وصف المشهد ونقله، يجعلك تتمثل هذا الغروب في مخيلتك.

بالإضافة إلى جمال الطبيعة في مدينة باتنة، فإنها تحتوي على منابع مائية معدنية، ومن هذه المنابع التي وقف عندها الرحالة جوزيف زاكون منبع حار يقع على بعد 40 كيلومترا من مدينة باتنة، ورسم الرحالة طريق الوصول إليه، إذ أن زائره يقصد طريق باتنة قسنطينة لينعطف يسارا بعد الكيلومتر

[1] – J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 39-40.

الخامس، ليصادف واديا تعلوه تضاريس شديدة الوعورة، لا يمكن السير فيها إلا إذا كان الجو صحوا، تغطي المنطقة التي تقود إلى هذا المنبع أشجار البلوط، أما المنبع فهو ينبع من قاع صخري تصل درجة حرارة مياهه إلى 38 درجة حسب تقدير اليد، غير بعيد عن هذا المنبع لاحظ الرحالة وجود سلاحف مائية يبلغ طول ذراع إحداها ثلاثين سنتيمترا، كما صادف أسرابا للحجل، كما أن المنطقة تعرف زراعة أشجار الزيتون ومنها ما يفوق ارتفاعها الستة أو السبعة أمتار[1]، إن هذا التنوع البيولوجي الذي تزخر به مدينة باتنة سواء من ناحية توفر ينابيع المياه المعدنية، أو حقول الزيتون لدليل على المؤهلات التي تتمتع بها هذه المدينة، وهذه الجولات التي كان يقوم بها الرحالة والاستكشافات إنما المراد منها زيادة استقطاب المعمرين إليها، وقد عملت فرنسا على تسخير ترسانة من الوسائل لأجل زيادة استكشافها، بغية تجسيد مشاريع استيطانية أخرى.

2.1 الواقع الاجتماعي والاقتصادي:

فصّل الرحالة في طبيعة وتشكيلة المجتمع الباتني، قال عن ذلك: " عدد السكان هو 6809 نسمة، منهم 3600 عربي، و260 يهودي، و120 مزابي، الميزانية البلدية تبلغ حوالي 417455 فرنكًا في السنة، السوق مهم حيث يُباع فيه 48000 هكتولتر من القمح و20000 من الشعير سنويًا"[2]، كذلك هناك الأتراك، وقد عرف المجتمع الباتني تواجد العرب المسلمين الذين يشتغل بعضهم في تجارة الحبوب،

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p45-47.

[2] – Ibid, p 16.

أما اليهود فهم بنسبة أقل، وأغلب معاملاتهم التجارية تعتمد على الحبوب، فمدينة باتنة تعرف بإنتاجها الوفير للحبوب عموما وخصوصا القمح.

وذهب الرحالة إلى عقد مقارنة بين الأوربيين والعرب فقال: " الأوروبيون الذين يسكنون في باتنة يجعلون مساكنهم مريحة قدر الإمكان، عبر تأثيثها بالأثاث الأسرّة الكراسي المرايا السجاد وغيرها، أما العرب، سواء كانوا يهودًا أو غيرهم، فيشغلون غرفًا عارية تمامًا، يقومون فيها بكل شؤونهم المنزلية. يطبخون فيها وينامون لا على أسرّة بل على حصائر من القش أو من نبات الحلفاء، موضوعة على بلاط الغرفة، وعندما لا يجد العربي ما يفعله يلفّ نفسه في برنسه، ويستلقي على حصيره وينام أو يحلم"[1]، إن هذه المقارنة التي يقدمها الرحالة إنما هي تجسيد لواقع اجتماعي يتنعم فيه الأوربي والفرنسي خصوصا، بينما يعاني فيه الجزائري، هذا التمتع وهذه المعاناة إنما هي معادلة ظالمة عجلت بتردي الوضع المعيشي لسكان المدينة الأصليين، كما أنها تكشف عن مدى العنصرية التي تسيطر على غالبية الفرنسيين، فهم من خلال هذا الوصف أصحاب حضارة يسعون لتحقيق الرفاهية لأنفسهم، أما العرب حسبه همهم الأكل والنوم وكأنهم حيوانات فقط لا تعرف للحياة معنى.

وقد أسرّ الرحالة بأن هذا الوضع الاجتماعي عجّل في انتشار عديد الأمراض في مدينة باتنة منها: الزهري الوراثي، الذي يتكون عند انتقال العدوى من الأم إلى الجنين، كذلك الجذام وهو مرض يُميز بظهور قشور كبيرة وجافة على الجلد بلون مزرق أو رمادي، تترك ورائها ندبة بيضاء شاحبة تبرز بوضوح

[1] – J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 18.

مقارنة بلون البشرة، يضاف إليهما أمراض العيون والقرح الزهري، ورأى الرحالة أنه يمكن تصنيف الأمراض التي تصيب السكان إلى صنفين تبعا لموسمي الصيف والشتاء، ومن أمراض الصيف: الحمى بمختلف أنواعها، تضخم الطحال، الهزال، فقر الدم، الاستسقاء العام أو الأنساركا وهو تورم واسع في الجلد، أما أمراض الشتاء فمنها: إلتهاب الشعب الهوائية، إلتهاب الرئة، وإلتهاب الجنبة وهي البطانة المحيطة بالرئتين، والروماتيزم[1]، إن معاناة المجتمع الباتني من كل هذه الأمراض إنما هو نتيجة حتمية لتلك الأوضاع المزرية التي يعيشوها، والتي كان للاستعمار فيها يد من خلال سياسته الظالمة.

واستمر الرحالة في تشخيص أوضاع المجتمع الباتني، فنجده تحدث عن لباس الأهالي فقال: "الكثير منهم يرتدي فقط البرنوس والقندورة (قميص طويل بلا أكمام)؛ أولئك الذين هم أقل بؤسًا يرتدون الشواشي، قبعات من الصوف تغطي الرأس... تقريبًا جميعهم يسيرون حفاة. أخيرًا، أولئك الذين هم أكثر راحة يرتدون البريما، حبل من جلود الجمال ملفوف حول الرأس"[2]، اللباس عند الأهالي هو بسيط يحمل رسالة عن الواقع الاجتماعي المرّ الذي يكابده سكان المنطقة والجزائريون عموما.

أما الأغنياء يرتدون الصدرية، وهي سترة مزخرفة ومدعمة بقطع ثمينة؛ كذلك الغليلة وهي سترة مطرزة، بالإضافة إلى سروال قصير، وجوارب وحذاء عادة ما يكون باللون الأحمر. النساء يرتدين قندورة، وهي عبارة عن قمصان قطنية، جميعهن يرتدين أقراطا كبيرة بقطر 12 إلى 15 سنتيمترًا، كذلك المقايس وهي عبارة عن أساور، والخلاخل وهي حلقات توضع في الأقدام، وفوق قندوراتهن يلقين قطعة قماش

[1] – J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 19.

[2]– Ibid, p 20.

كالعباءة، التي يمسكنها بواسطة الرحيل وهو مشبك معدني، وهن يغطين وجوههن بالعجار، وهو حجاب من قماش ناعم أو رقيق[1]، إن الرحالة من خلال ما سبق حاول الوقوف عند أهم فئات المجتمع الباتني خلال فترة الاحتلال فهناك فئة الأغنياء ويمثلون أقلية في المجتمع الباتني ثم هناك الفئة المتوسطة تليها الفئة الفقيرة والتي تشكل السواد الأعظم من هذا المجتمع، كما أن كشف الرحالة من خلال وصفه لحياة المدينة بساطة اللباس والاقتصاد والزينة، كما أن النساء بارتدائهن لبعض الألبسة والمجوهرات يدل على تشبثهن بالتراث والسعي للمحافظة عليه، هذا التراث المادي الذي يصارع البقاء بفعل الاحتلال الذي حاول إحداث تغيير جذري للمجتمع.

ومن العادات الاجتماعية التي أشار إليها الرحالة عند العرب إلقاء التحية، "عندما يلتقي عربيان، يتصافحان ويتبادلان تقبيل اليد بشكل متبادل، أو يقبلان كل واحد منهما كتف الآخر عند اللقاء. وعندما لا يكونان في نفس المستوى الاجتماعي، يقوم الأدنى بتقبيل يد الأعلى، حيث يضع هذا الأخير يده المعتادة على فمه بعد تقبيل اليد"[2]، إن هذا النوع من التحية كان سائدا في كل الجزائر، وفيه تعبير عن مدى المحبة والشوق التي يكنّها الأهالي لبعضهم، غير أنه ينطوي على بعض العنصرية ويجسد جانبا من الطبقية حتى بين الجزائريين أنفسهم، حيث وكما أشار الرحالة كثيرا ما يلجأ المتصافحون إلى الاحتكام إلى ثنائية الغنى والفقر، حينذاك لابد للفقير أن يبادر بالتحية مقبلا يد الغني.

[1] – J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 20.

[2] – Ibid, p 20.

وعند عودته من لامبيس نجده توقف عند قرية الزنوج، والتي تبعد عن مدينة باتنة بحوالي 500 خطوة، حيث رصد سمات هذا المجتمع رجاله ونساءه، قال عن الرجال: " هؤلاء الزنوج سود تمامًا، سواد عاجي، أقوياء البنية، دائمًا مرحون، يتميزون بنشاط كبير وقوة عضلية لافتة، جميعهم يعملون: عمال يدويون، قاطعو حجارة على الطرق، حمّالون، خدَم، نشاطهم هنا ثمين، في مكانٍ لا يرغب العرب في العمل فيه، هؤلاء السود الذين خلقتهم الطبيعة للمنطقة الحارة، لا يشعرون بالحر أبداً، شعرهم مجعّد، ولحاهم قليلة، وعيونهم حادة. يحلقون شعر رؤوسهم باستثناء خصلة محفوظة في قمة الرأس، وتُسمّى هذه الخصلة *شوشة*، وهم يلبسون مثل العرب"[1]، أهم ما استرعى انتباه الرحالة حول هؤلاء الزنوج هو بنيتهم الجسدية التي تمكنهم من مزاولة مختلف الأنشطة، وكذلك سوادهم الذي يجعل بشرتهم لا تتأثر بفعل الحرارة والتعب، وهم ممن اعتمد عليهم الاحتلال كذلك في مختلف مشاريعه الاستيطانية.

انتقل بعدها إلى وصف النساء الزنجيات فتناول المظاهر العامة لهن ومما ذكره أنّ شِفاههنّ غليظة، وشعرهنّ مجعّد، ووجوههنّ موشومة، وأجزاء أجسادهنّ العلوية مائلة قليلًا إلى الخلف، أكتافهنّ منخفضة بحيث تبرز صدورهنّ الممتلئة بقوة، وجوههنّ مكشوفة، يرفعن رؤوسهنّ عاليًا، كما فصل في لباسهن وهو يتكون من أقمشة من القطن مربّع أزرق يسمّى *ملحفة*؛ ويضعن فوق رؤوسهنّ قطعة كبيرة من القماش نفسه، تسقط خلفهنّ حتى الكعب ويلتفن بها، وهن يمشين حافيات. يضعن أساور في الأذرع والأرجل[2]، هذه الأوصاف التي أوردها الرحالة تدلّ على مدى شدة وغلظة هؤلاء النسوة فهن في تكوينهن

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 29-30.

[2]– Ibid, p 30.

المورفولوجي لا يشبهن ما عرفه من النساء، هذا ما ساعدهن على القيام بمختلف المهام الشاقة. وهذا الوصف دليل كذلك أن مدينة باتنة كانت ملتقى لمختلف الأجناس حتى الإفريقية منها.

ويرصد جوزيف زاكون العادات الاجتماعية التي تصاحب عروض الفنتازيا عند الجزائريين، ومما ذكره في هذا المقام: "والعرب، ملتفون ببرانيسهم البيضاء، متربعون على السجاد حول المواقد، ينتظرون بصبر أن ينضج الكسكس، الكسكس هو الطعام المفضل عند العرب، وهو لحم الخروف المطهو مع كرات من الدقيق في حجم حبات الشعير المقشور، وكل ذلك يكون كثير التوابل"[1]، فلبس البرنوس يعتبر من العادات التي يحرص عليها الجزائري خصوصا في المناسبات، كما أن الكسكسي كان من أشهر الأطباق التي يقدمها الجزائريون للضيف أو في مناسباتهم، ونرى أن الرحالة كان حريصا على نقل كل ما يمكنه أن يساهم في تشكيل صورة عن هذا المجتمع الجزائري سواء من ناحية الملبس أو المأكل.

كان الجزائري في بعض الأحيان يعتمد على الترحال وفق طرق بدائية، وفي هذا الصدد قال الرحالة: "عند دخولنا باتنة، اعترضتنا قبيلة كبيرة كانت عائدة من التل ومتجهة إلى الصحراء، كان معها حوالي 450 من الجمال والبغال والخيول والحمير. كثير من النساء كنّ يمشين على الأقدام، لكن بعضهن ولا شك أن أجملهن، كنّ في الهودج"[2]، إن الجزائري من خلال هذا التنقل يسعى لتأمين حياته وتحصيل رزقه، وهو من عادات البدو الرحل الذين لا زالوا إلى يومنا هذا يعتمدون التنقل بين الشمال والجنوب، ثم

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 42.

[2]– Ibid, p 47.

إن تنقل النساء حافيات يعكس مدى المعاناة التي كانت تتكبدها المرأة كما الرجل في ظل هذا الاحتلال الغاشم، أما تنقل بعضهن في الهوادج دون أخريات فيشير إلى مدى الفوارق الطبقية في المجتمع الجزائري.

وقد أعجب جوزيف زاكون بإحدى الفتيات في القافلة فجعل يصفها: " لمحتُ في أحد هذه الهوادج فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، في غاية الجمال، قد انكشف خماره مصادفة. كان شعرها، أسود كالأبنوس، مضفوراً بإتقان، تزينه شرائط من المخمل القرمزي، يحيط بجبينها دون أن يغطي أذنيها المزينتين بحلقات كبير، ومن الخلف وعند منبت الشعر، كانت تتدلى خصلة جميلة سوداء بلمعان حريري، تزيد من إبراز جمال عنقها، وكان صدرها يوحي بأنها ناضجة للسعادة، عيناها الجميلتان اللامعتان الدافئتان كانتا صافيتين إلى حد يبعث في النفس أرقّ الأحاسيس، ومن خلال عينيها كانت براءة روحها تبدو نقية وتأسر النظر"[1]، إن الملامح التي يرصدها الرحالة لهذه الفتاة، إنما تعكس جمال المرأة الجزائرية، وقد شبهها بالمرأة الأندلسية في جمالها، وهذا الوصف والإمعان فيه دلالة على إعجابه وتعلقه بهذه الفتاة، من جهة أخرى فقد أبدى ضمنيا تحسره بعد معرفته مصير هذه الفتاة، وهي المتجهة رفقة قبيلتها إلى الصحراء، هذا التحسر كان قد استلهمه من حزنها المكتوم وراء عينيها الجميلتين.

من الناحية الاقتصادية يشير الرحالة أن مدينة باتنة كانت تعرف تنوعا في الثروة الحيوانية، "إن سلالة الأبقار هنا ضعيفة، رغم أنها تمتلك الأشكال الجميلة لسلالة دورغام، أما سلالة الأغنام فهي جميلة، وصوفها رائعة، فهذه الميرينوس لا تحتاج إلا إلى القليل من العناية لتنتج صوفا جيدة، أما الخيول

[1]- J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 47-48.

فهي في حالة سيئة جدا، فالعرب يطعمونها بشكل رديء ويُرهقونها أكثر من طاقتها"[1]، إن الثروة الحيوانية لا يكاد وضعها يختلف عن واقع الإنسان الباتني والجزائري عموما، فهي تعاني كذلك، فرغم امتلاك سلالة أبقار تعتبر من أجود أنواع السلالات الإنجليزية، وكذلك أغنام المارينوس من أحسن سلالات الأغنام ذات الأصل الاسباني، لكن الحفاظ عليها وعلى جودتها في ظل تلك الظروف كان أمرا صعبا للغاية، وفي حديث الرحالة عن الخيل يشير إلى مدى أنانية الجزائري وانعدام ثقافة تربية الحيوانات عنده، فالجزائري يحرص على استعمال الخيل لقضاء مآربه ثم لا يهمه من أمرها شيء، فيصور الإنسان الجزائري كوحش ظالم لا يقفه من شيئا.

يشير الرحالة عند تنقله إلى وادي الشعبة والذي يقع على بعد 20 أو 22 كيلومتراً إلى الغرب من باتنة، إلى الكرم الذي غمره ومرافقيه، حينما نزلوا عند أحد ملاك المزارع الجزائرية، وهو من أتباع فرنسا، حيث أقيمت مؤدبة غداء على شرفهم، وقد تولى تحضير هذه المؤدبة بعض أصدقاء المالك، ومما ذكره الرحالة عنهم كان بحضور ثلاثة فرنسان عرب إلى المزرعة، الأول كان شيخ القبيلة المجاورة، والثاني رجل طويل نحيف أسمر البشرة يحمل عصاً طويلة، ويشبه كثيراً صورة "دون كيشوت" الشهيرة التي نُقلت إلينا، أما الثالث فكان يحمل أمامه على عرض السرج كبشاً ضخما، نزل الفرسان الثلاثة عن خيولهم، وبينما كان الشيخ يبادل المجموعة التحايا، انشغل الثاني بجمع الحطب اللازم لشواء الكبش، أما الثالث فذبح الكبش، وأُضرِمَت نار عظيمة، وفي غضون ساعة ونصف، كان الكبش مشوياً تماماً، فوُضع على صحن خشبي كبير في وسط المائدة، جلس الجميع حوله، وبعد هذا الطبق البديع، جاءت بقية الأطباق،

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 22.

لكنه يرى أن لا شيء كان بمقدوره أن يقترب من ذلك الكبش المشوي على طريقة زمن هوميروس. أما الخمور الألذ فقد استكملت الغداء[1]، إن هذا الاهتمام الذي حضي به الرحالة ورفاقه يحمل دلالة على الحب الذي يكنه هؤلاء الخونة لفرنسا وأتباعها، ذلك أنهم بتصرفاتهم تلك ساهموا في زيادة توسع رقعة الاحتلال، كما أنهم من خلال احضارهم لأنواع الخمر في مجالسهم ينسلخون عن دينهم الذي حرم هذا الأمر، كل ذلك لأجل إرضاء فرنسا.

وقد وقف الرحالة ومرافقوه على واقعة سردها لهم الشيخ حدثت في قبيلته إذ قال: " فتاة متزوجة من شيخ خيمة، لما خانت زوجها، اعتبر أخوها خيانتها إهانة لعائلته، وقرّر أن يعاقبها، وتحت ذريعة ما، جعلها تركب على حمار واقتادها إلى الغابة، هناك أمرها بأن تخلع ثيابها، ولما قاومته هدّدها بالقتل فاستسلمت، وحين أصبحت عارية تماماً، ربطها إلى شجرة، ثم بعد أن ملأ نصف كيس من الأشواك، أطلق سراحها وأمرها أن تدخل في الكيس، ولما أبدت مقاومة، رفع خنجره مهدّداً بقطع حلقها، فأطاعت عندها ربط الكيس جيداً على عنقها، ثم وضعها على الحمار وطاف بها في خيام القبيلة ليُظهر أن العائلة تبرّأت من سلوكها المشين، خرجت المسكينة أخيراً من الكيس وهي ممزقة الجلد، مغطاة بالأشواك، وماتت بعد أيام قليلة متأثرة بآلام مروّعة"[2]، إن ما أورده الشيخ يعكس ما يتمتع به أهل منطقة باتنة من شرف وأنفة، لكنه يرشدنا إلى سيطرة النظام القبلي وبعض التصرفات التي تتعارض والدين الإسلامي، فرغم

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 52-54.

[2]– Ibid, p 55.

كونهم يعيشون في قبائل إلا أنهم عرفوا الإسلام وكان الأولى أن يحتكموا إلى الشريعة الإسلامية في هكذا مسألة.

3.1 الواقع الثقافي:

من المظاهر الثقافية التي أولى الرحالة لها اهتماما اللباس، حيث تحدث عن لباس اليهوديات، وقد قال عنهنّ:" اليهوديات العربيات، عندما تكنّ في أيام الجمعة، ترتدين ملابس من الحرير ذات لونين متميزين لديهم تقسيمات واضحة. نصف الزي من الأعلى إلى الأسفل بلون واحد، على سبيل المثال، الأحمر والنصف الآخر أصفر، أو يكون الزي باللون الأصفر والأزرق، أو الأزرق والأحمر، أو الأخضر والأصفر وهكذا، الملابس أحيانًا مزخرفة بتطريزات غنية، يتم تطريز القميص غالبًا بخيوط ذهبية رفيعة"[1]، نجد الرحالة قد أولى فئة اليهود بالغ الاهتمام خلال حديثه عن مدينة باتنة، فحديثه عن النساء اليهوديات بشيء من الفخر والاعجاب يدل على مدى التمجيد والاحترام الذي يحضى به هذا الجنس من قبل الفرنسيين، وقد حاول إظهار مدى جمال لباسهنّ، فهن من الطبقة الغنية في المجتمع، وهذا ما يعكسه تنويعهن في اللباس واستعمالهن الخيوط الذهبية فيه.

ومن الأمور المتجذرة في مجتمع الزنوج هي طريقة الاستشفاء من الأمراض، وقد وقف عندها الرحالة وسرد أطوارها عندما تمرض امرأة عربية أو يهودية أو زنجية، تطلب حضور الزنجي لطرد الأرواح الشريرة التي تسكنها، يأتي الزنجي ومعه موسيقيّان زنوج، كل واحد يحمل طبلاً كبيرًا من أحجام مختلفة،

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 21.

ورابع يحمل زوجين من صفائح النحاس المزدوجة، وخامس يحمل راية، ويتبعهم نساء زنوج مكلفات بالصراخ أثناء العزف لطرد الشيطان، يبدأ الموسيقيون في ضرب الطبول، بينما النساء يصرخن بأصواتهنّ بأشدّ ما يمكن تخيّله، تنهض المريضة للرقص، مدفوعة بأمل الشفاء، حتى تسقط من شدة التعب، الرقص يتكوّن من قفز على قدم واحدة ثم الأخرى، مع تأرجح الجسد من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، هذه التمارين العنيفة تؤدي إلى تعرّق شديد، عندها تتمدّد المريضة ويُفترض أنها شُفيت، المريضة تُقدّم للزنجي ثورًا فتيًا، وفي قبائل أخرى يكون تيسًا، أو أقل من ذلك إن كانت المرأة فقيرة. الثور يُغطى بغطاء جميل مُزيَّن بشرائط.[1]

إن هذه العادات المتعارف عليها عند الزنوج، إنما هي ذات صلة بالمعتقد الديني، وفيها إشارة إلى حالة اللاوعي التي يعيش فيها هذا المجتمع لاعتقادهم بسيطرة الأرواح الشريرة على هذا المريض، ثم إن الشفاء لا يمكنه أن يتحقق بمجرد القيام ببعض الطقوس دون الأخذ بالأسباب وتناول الدواء.

وقد وقف الرحالة بشيء من التفصيل على عروض الفنتازيا التي تقام في مدينة باتنة " علمت أن فانتازيا ستقام بمشاركة 300 فارس عربي، في صباح اليوم التالي حضرت في الموعد، كان العرب على صهوات خيولهم مصطفّين في تشكيل قتالي، مستعدين لبدء عرضهم، جاء العقيد قائد الفرقة، يرافقه عدد كبير من ضباط الأركان اللامعين، ليقوم بمراجعتهم ثم اتخذ مكانه بحيث يكون له شرف حضور عرض الفانتازيا، عند إشارة معينة، كان كل عربي بدوره، مسلحاً ببندقيته المحشوة، يمر أمام العقيد بسرعة فرس

[1]– J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 32.

مسرع، ويطلق رصاص بندقيته عند وصوله أمامه. سرعة تلك الجياد مخيفة، وهدوء هؤلاء الرجال على خيولهم الجامحة يدلّ على خبرة كبيرة بالفروسية وثقة عظيمة بقدراتهم"[1]، إن هذه الفنتازيا كانت أول عرض يشاهده الرحالة في الجزائر، ونجده قد أعجب كثيرا بمظاهرها كما أعجب بالخيل وسروجها التي تتمازج ألوانها عادة بين الأحمر والأصفر والأخضر، مع تطريزها بما يضفي جمالا عليها، ثم إن هذه المناظر التي شاهدها للفنتازيا جعلته يستذكر جانبا من تاريخ بلاده خلال القرون الوسطى، ممثلا في فرسان الأرض المقدسة.

2. مدينة تقرت في رحلة فيكتور لارقو:

كانت الصحراء الجزائرية حلم عديد الرحالة الأجانب وخصوصا الفرنسيين منهم، حيث حاول بعضهم ولوجها لكنهم اصطدموا بطبيعة الأرض وقساوة المناخ، فكان هذان العاملان حاجزا منع من استكشافها، فلم تتجاوز أقدام هؤلاء الرحالة بوابات الصحراء كمدن بسكرة والأغواط وبشار، لكن هناك من الرحالة من تحدى هذا الوضع ووصل أعماق الصحراء بغية سبر أغوارها، ومن هؤلاء الرحالة فيكتور لارقو Victor Largeau* الذي زار عدة مناطق من صحراء الجزائر منها بسكرة تقرت وادي ريغ، كذلك تيماسين ووادي سوف وصولا إلى اكتشاف مجتمع الطوارق والإيموهاغ، كل هذا جمعه في مؤلف تحت عنوان " "Le Sahara Algérien les déserts de l'erg

[1] – J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, p 41-43.

* فيكتور لارقو Victor Largeau رحالة فرنسي ولد في 21 يونيو 1842 وتوفي في 26 مارس 1897 بفرنسا زار الجزائر سنة 1874.

1.2 الطبيعة والعمران:

شرع الرحالة في تحديد موقع المدينة مجسدا أبعادها وحدودها، فأول ما لاحظه من هذه المدينة واحة تقرت والتي تقع على بعد 205 كليلومترات جنوب بسكرة؛ أما طولها من الشمال إلى الجنوب فيبلغ 8 كيلومترات، عند طرفها الغربي تنتصب المدينة، أما شرقا فعند تجاوز ساحة كبيرة غير منتظمة الشكل ترتفع القصبة التي أُعيد ترميمها منذ الاحتلال[1]، إذن فمدينة تقرت هي أول ما زاره الرحالة بعد تخطيه بوابة الصحراء بسكرة، وهي من المدن التي حرصت فرنسا على الاهتمام بها لزيادة التغول في الصحراء، والمدينة كغيرها من مدن الجزائر عرفت نمطا من العمران هو بناء القصبة، ونجد أن الرحالة أشار إلى إعادة ترميمها مما يوحي بأنها ضاربة في جذور التاريخ.

غير أن هذه المنطقة ومن خلال ما ذكره عرفت التواجد الأجنبي قبل زيارته بكثير إذ يقول: " في هذه القلعة توجد دار الآغا، وكذلك الثكنة الجديدة للجنود، المعزولة بواسطة سور مُدعَّم وذو شرفات، مشكِّلة نوعاً من الحصن داخل القصبة"[2]، فدار الآغا دلالة على الوجود العثماني في المنطقة، لأن العثمانيين هم من يحملون لقب الأغا، كذلك يعتبر تحويط المدن بالأسوار من طبيعة العمران العثماني، حيث تتخذ تلك الشرفات مناطق للدفاع، وبعد انتهاء الحكم العثماني، عرفت المنطقة تواجد الفرنسيين إذ

[1] – V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, librairie Hachette et cle, Paris, 2eme edition, 1881, p66.

[2] – Ibid, p 66.

ذكر الرحالة إقامة ثكنة عسكرية كانت بمثابة العين الحارسة لمصالح الاحتلال في هذه المنطقة وما جاورها.

وتعتبر الساحة نقطة التقاء الأهالي، والمدينة مفتوحة على العالم الخارجي من خلال هذه الساحة، في حين لا تزال هناك بقايا قائمة من الحصن الذي يحمي المدينة من الجهات الأخرى، وأشار الرحالة إلى وجود بحيرة في إحدى جهات المدينة كانت تتميز بمياهها الراكدة، غير أن الأغا حولها إلى بستان، أما الشوارع فهي ضيقة متعرجة، مسقوفة مما يجعلها مظلمة تتخللها أحيانا فتحات تسمح بمرور الضوء، وهي نظيفة نسبيا[1]، فالساحة تعتبر من الأماكن المهمة في المدن الجزائرية، ففيها كانت تتم مختلف التعاملات، كما أن الأسوار التي كانت تشكل الحصن المنيع في وجه الأعداء بدأت تتلاشى لتجعل المدينة، مكشوفة يسهل ترصدها والإغارة عليها، أما نظام الشوارع في هذه المدينة فهو متفرد يختلف عن ذلك النمط الموجود في الشمال الجزائري، اكتشفه الرحالة لأول مرة فتغطيتها تفاديا لأشعة الشمس الحارقة، وبذلك يسهل التنقل عبرها.

أما بيوت مدينة تقرت فقال عنها الرحالة: " أما الساحة فمن جهة المدينة، تحدها بيوت متواضعة، معظم البيوت مبنية من الحجر الجيري الأصفر المحلي، أما الأخرى فهي من الطوب المصنوع من الطين المعجون مع التبن والمجفف تحت الشمس، المنازل عموماً ذات طابق واحد فقط، أسطحها مغطاة بجريد النخل الممزوج بالتراب الطيني المدعوم بجذوع النخل"[2]، فالبيوت في هذه المدينة ذات طراز بدائي

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 69.

[2]– Ibid, p 69.

قديم حسبه، اعتمد أصحابها لتشييدها على مواد أولية محلية لا غير، إذ تقوم أساسا على الحجر المرصوص إلى بعضه البعض، أو على الطوب الذي يعد في قوالب مهيئة مسبقا يوضع بها التبن والطين بعد عجنه، وتترك لتجف أمام أشعة الشمس، كما أن جذوع النخل قد نابت عن الأعمدة الخرسانية عندهم، فقد وقف الرحالة على مفارقة هندسية بين بيوت الشمال والجنوب، غير أن الواقع المعاش في المنطقة والذي تكتنفه الحرارة الشديدة وقساوة الطبيعة فرض هذا الأمر، فهذا النمط من البناء يساهم في تقليل حرارة المنازل، فالطوب له دور كبير في منع ارتفاع درجة الحرارة داخل المنازل، كذلك جريد النخل الأخضر يسهم في تقليل الحرارة، وكما هو معلوم فالطين والتبن يتميزان بخاصية العزل الحراري.

وما شدّ انتباه الرحالة في هذه المدينة مسجدها الكبير الذي قال عنه: "المسجد الكبير يقع في الساحة مقابل القصبة، تعلوه قبة تجاورها مئذنة مربعة، وثلاثة من جدرانه مكسوة بالجير الأبيض ومثقوبة بنوافذ صغيرة مقوسة عالية جداً عن سطح الأرض، قبو المسجد يستند إلى أعمدة مربعة، الأرضية مفروشة بحصير يجلس عليه المصلون لأداء الصلاة، وكما في كل مكان يُخلع النعل عند دخول المكان المقدس، يوجد قبتان داخل السقف: الأولى في الوسط، ومنها تتدلى ثريا قديمة من الحديد يُعتقد أنها تعود إلى زمن النبي ﷺ، أما الثانية فوق منبر الإمام، فهي مزينة بزخارف أرابيسك محفورة في الجص ومرسومة بألوان زاهية"[1]، فالطبيعة العمرانية للمسجد ذات لمسة إسلامية قديمة تتجسد من خلال المئذنة المربعة وهي أولى أشكال المآذن التي عرفها المسلمون في بلاد الشام والمغرب العربي وبلاد الأندلس، كما أن النوافذ الصغيرة في الأعلى تساهم في تلطيف الجو وتقليل الحرارة، وتساعد على انبعاث الضوء بمقدار مناسب

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 69.

وكاف داخل المسجد، وقد كان الرحالة على اطلاع ببعض آداب دخول المسجد، وهذا ما نقله من خلال إشارته إلى طريقة دخول المسجد، في حين أن الثريا الموجودة داخل هذا المسجد، ومن خلال قول الرحالة أنها تعود إلى عهد النبي ﷺ، دليل على أن المنطقة عرفت الإسلام منذ زمن بعيد، أما طريقة تزيين المسجد فتكشف عن ذاك الابداع الذي عرف به المغرب العربي في مجال الهندسة العمرانية.

والابداع العربي حسبه لم يتوقف عند عمران المسجد وإنما تجسد كذلك من خلال المنبر المتواجد بذات المسجد، إذ يقول الرحالة: " المنبر الذي يتكئ على الجدار لا يبدو أقل قدمًا من الفوانيس؛ وله قيمة فنية أعلى بكثير: جوانب الدرجات التي تبرز وتزينها نقوش جميلة تمثل آيات من القرآن الكريم. بجانب المنبر، في سمك الجدار، توجد فتحة صغيرة تحتوي على عمودين من الرخام مزينين بتيجان مزخرفة بأوراق عنب وتين منحوتة بشكل فني، هذا هو المحراب، هنا توجد إشارة توجيهية نحو مكة، حيث يقف الإمام للصلاة عشر مساجد أخرى في القصبة، تم تحويلها إلى ورشة عمل لصناعة الأسلحة الأئمة الذين يؤدون وظائف مشابهة لتلك التي يؤديها رعاة الكنائس البروتستانت في معابدهم، مع ذلك يمكن للإمام أن يشغل أيضًا مناصب عسكرية. "[1].

فالمنبر كذلك حافظ على النمط العمراني الإسلامي، فكثيرا ما يتم تزيينه بآيات القرآن أو شواهد ذات علاقة بالثقافة الإسلامية، والأمر نفسه بالنسبة للمحراب فهو يحمل لمسة إسلامية مغاربية، والمؤسف أن المساجد التي كانت تعج بها مدينة تقرت والمقدر عددها بعشرة مساجد قد سعى الاستعمار لطمس

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 70.

معالمها من خلال تحويلها إلى ورشات لصناعة الأسلحة، وهذا في محاولة منه لطمس معالم الهوية العربية الإسلامية، اعتقادا منه أن القضاء على المساجد سيجعل الجزائريين يتحولون عن الدين الإسلامي إلى المسيحية، وقد حاول الرحالة تشويه صورة الإمام حين جعله لا يتورع عن خدمة فرنسا ومصالحها كلما اقتضت الحاجة لذلك، لكن هذا الأمر ما كان ليتحقق من جزائري عربي مسلم يغار على وطنه ويهتم لشأنه.

2.2 الواقع الاجتماعي:

تعرف المدينة حسب الرحالة فيكتور لارقو تواجد اليهود وقد قال عنهم: " حي "المهَاجرية، الذي يضم شارعًا واحدًا، يسكنه اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام بالقوة منذ حوالي ألفي عام، رغم هذا التحول حافظ أبناء إسرائيل على جميع خصائصهم العرقية ولم يتزوجوا إلا من بعضهم البعض، هم عادة لا يتزوجون من العرب، الذين يعترضون عليهم لممارستهم سرًا دينهم القديم، يعملون في صناعة الملابس، ولكن نسائهم لا يفعلن أي شيء: لا يطبخن الطعام كما يقال ولا يخرجن أبدًا"[1]، فيذكر الرحالة أن اليهود قد تحولوا عن دينهم قصرا بفعل استعمال المسلمين القوة لنشر الإسلام، لكن هذا الأمر مرفوض ذلك أن الإسلام وبشهادة التاريخ لم ينتشر بالقوة أبدا، بل ما عرف عن اليهود منذ عهد النبي ﷺ هو ميلهم للنفاق، إذ يبطنون عكس ما يظهرون، ولذلك ذكر الرحالة أنهم عزفوا عن الزواج من العرب خشية أن يفضح

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 70.

أمرهم، وكذلك للمحافظة على نسلهم نقيا لأنهم يتوهمون أنهم شعب الله المختار، وبالنسبة لمهنهم فهي ترتكز أساسا على صناعة الملابس، وكعادته من الرحالة يحيط جنس اليهود بالتقديس في وصفه.

وسرد الرحالة بعضا من صفات أبناء المجتمع التقرتي من العرب الجزائريين المسلمين، فقال عنهم: "الصحراويون أنظف مظهرًا من أهل التلّ، وملابسهم أكثر عناية وأناقة، كل الرجال الميسورين نسبيًا يلبسون الحايك، مثبتًا حول الشاشية بحبل من وبر الجمل، يختلف طوله وسمكه بحسب ثروة الفرد؛ أما الفقراء فيكتفون بالعمامة العادية والجلابية، أو بحايك عادي مربوط على الرأس بثلاث أو أربع لفّات من الحبل. الجميع يرتدون تحته سروالًا واسعًا من قماش القطن، وبعض الأغنياء يضيفون الصدرية والسترة الأندلسية، ويُكملونها بـ"المست" وهي أحذية مسطحة"[1]، فحسب الرحالة تلك المظاهر التي شاهدها في الشمال لدى الأهالي وتوحي بمدى البؤس والفقر فإنها تختفي هنا نسبيا، ويقوم لباس الرجال حسبه على ملابس مادتها الأساسية الوبر تبعا لطبيعة المنطقة التي تعرف بتواجد الجمال بأعداد كبيرة، وهي أساسا إما الحايك الرجالي أو الجلابية بالإضافة إلى السروال القطني يضاف إليها الصدرية والسترة عند أغنيائهم، كما أنهم ينتعلون ما سماه الرحالة المست على عكس أهل الشمال الذين يمشون حفاة في معظمهم.

وكان للنساء نصيب في رحلة فيكتور لارقو، فتحدث عن لباسهنّ، " أما ملابس النساء فهي من قطن ملوّن: أبيض، أزرق، أو أحمر بخطوط بيضاء، لكن اللون الأزرق هو الغالب، في حين أن الأبيض نادر، زيّهن يتكوّن من ثوب واسع يُسمى المَلْحَفَة، مفتوح من الجانبين، ذو أكمام واسعة تغطي فقط الجزء

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 71.

العلوي من الذراعين، الفستان مشدود عند الوركين بواسطة حزام من الصوف الأحمر؛ وحول رؤوسهن تلتف عمامة من قماش تونسي متفاوتة الغنى؛ بعضهن عندما يخرجن يغطين أنفسهن بغطاء من نفس القماش أو بمنديل قطني بسيط، وأخريات يلتففن في نوع خاص من العباءات، ومعظمهن حافيات القدمين"[1]، ما يستقى من هذا الوصف الدقيق للباس النساء التارقيات أنهن كن يتخيرن الألوان الفاتحة التي تتناسب وبشرتهن الداكنة، كما أنهن نساء محافظات على الزي التقليدي، الذي يجمع بين الحشمة من خلال حرصهن على تغطية الرأس عند الخروج من المنزل، وبين المحافظة على التراث المادي من خلال ما يسمى الملحفة.

وتحرص المرأة التقرتية على استعمال الزينة كغيرها من النساء، فوجد الرحالة أنها ترتدي الأقراط ذات الحجم الكبير، كما ترتدي أساور من فضة أو أساور مصنوعة من قرون الحيوانات أحيانا تملأ الساعد لكثرتها، يضاف إلى ذلك السلاسل الطويلة التي يضعنها والتي تتدلى منها صناديق صغيرة توضع داخلها التعاويذ، ويرتدين الخلاخل، كما تحمل كل منهن مكحلة، أما الغنيات منهن فترتدين حزاما فضيا بعرض 20 سنتيمترا، ويستعمل المجتمع التقرتي الحناء، وهي أقل استعمالا عند الرجال مقارنة بالنساء، فالرجل يصبغ أضافره أو يدا واحدة بينما تستعملها النساء لكلتا اليدين وأحيانا للقدمين كذلك، كما يستعمل الكحل الذي تحضره النساء، وله فوائد حتى في معالجة التهابات العين هذا المرض الذي يعرف انتشارا

[1]- V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 71-72.

واسعا في عدة مناطق صحراوية[1]، فمعظم الزينة تتكون من الفضة وهي المعدن الأكثر رواجا واستخداما في الصحراء الجزائرية إلى يومنا هذا.

يعرف المجتمع التقرتي من خلال ما أورده الرحالة مزيجا من الأجناس فهناك بالإضافة إلى اليهود البربر ويمثلهم بني ميزاب يعملون كثيرًا في تجارة التمور والصوف والأقمشة، وذكر أنهم مرابون في تجارتهم، ويشكل العرب غالبية المجتمع، يتوزعون بين شيوخ أو قضاة أو مرابطين، وبعضهم يعيش من تجارة صغيرة في الأقمشة والتحف، وهم على مزيج من اللون الأبيض والأسود الداكن، وأشار الرحالة أن العرق الأسود تعود أصوله إلى السودان وهم العبيد الذين حررهم الاحتلال، أنا نصف السكان فينتمي إلى العرق الزنجي والذي يمتد إلى غاية واحة المغير[2]، فهذا التنوع في تكوين المجتمع التقرتي ساهم في خلق حركية داخل هذا المجتمع.

وفصّل الرحالة في البنية المورفولوجية لسكان المدينة فهم ذوو بشرة بلون خبز التوابل، أنف عريض، شفاه غليظة لكن غير طويلة، شعر ينبت في خصل كما عند شعوب السودان، لكنه جعد دون أن يكون صوفيًا، وطويل عند النساء. هم متوسطو القامة سواء الرجال أو النساء، صدورهم عريضة، سيقانهم قصيرة وأكتافهم عريضة[3]، إن هذه الصفات الفيزيولوجية التي يتمتع بها أبناء هذا المجتمع أكسبتهم قوة

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 72-75.

[2]– Ibid, p 75.

[3] – Ibid, p76.

بدنية فعرفوا كيفية التعامل مع ما اعترضهم من حرارة وطبيعة صحراوية صعبة يضاف إلى هذه الصفات ما يتميز به أهل تقرت من أنهم أناس لطفاء مرحون، ومجتهدون.

وقد وقف الرحالة عند استعمال التقرتيين لثلاثة أنواع من الآلات الموسيقية وهي الغايطة وتشبه المزمار، كذلك البندير ويشبه الدفّ الباسكي، وهناك الطبل وتستخدم أداة خشب معقوفة للضرب عليه[1]، فالمجتمع التقرتي حاول أن يجعل لنفسه فسحة من اللهو تنسيه ما يكابده أهله من عناء في سبيل الاستمرار على قيد الحياة في هذه الصحراء.

غير أن ما تحسر عليه الرحالة عند عيشه في هذا المجتمع هو لجوء بعض أفراده إلى تناول الخمر، وهي عادة وقف عليها فيكتور لارقو عند نزوله بمنطقة الزيبان كذلك، وأشار أن هذا الخمر إما أن يأتي من تونس أو من قسنطينة، وقد تعجب لإقدام هؤلاء الناس على شربه رغم أنهم يدينون بالإسلام ويعلمون أن هذا الأمر حرام، في حين يتناول عامة الناس مشروب اللاقمي، كما أقر بانتشار البغاء وسط هذا المجتمع لكنه ليس بتلك الصورة العظمى[2]، إن هذه المظاهر المشينة التي رصدها الرحالة تساهم في رسم تلك الصورة السلبية، حيث تصور هذا المجتمع على أنهم شعب لا يحترم دينه ولا يراعي أوامره ونواهيه.

كما يتحدث الرحالة عن طعام أهل تقرت، ويتكون أساسا من التمر، ويتم تناوله بعد جنيه أو يترك حتى يجف في النخيل ليحتفظ به مدة عام، كذلك يستخرج من جذعها خمر لطيف ويقصد به مشروب

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 76.

[2]– Ibid, p 76.

اللاقمي، ويعتمد أهل تقرت في غذائهم على الروينة، وهي كما وصفها فيكتور لارقو نوع من العصيدة تُحضَّر من الشعير المحمّص والمطحون، يُمزج بالماء أو اللبن ويُطهى مع الفلفل واللفت، كما يتناولون حليب الإبل والبقر، أما الأغنياء فنادرا ما يأكلون اللحم، في حين يعتمدون على الآبار لشرب الماء، هذا المكان يحتوي على نسبة عالية من المغنيزيوم لا يمكن الاعتياد على مذاقه بسهولة[1]، بالنظر إلى وضعهم الاجتماعي فهم يعتمدون على مصادر غذاء بسيطة، تساعدهم في توفير قليل من الطاقة والجهد، لكن هذا الأمر كثيرا ما ينعكس على صحتهم خصوصا في ظل درجة الحرارة المرتفعة التي تعرف بها الصحراء.

ومن أغرب أنواع الطعام التي وقف عليها الرحالة في هذه المدينة أكل الجراد، إذ يباع بكميات هائلة في سوق تقرت الذي يعقد يوم الجمعة، وتتنوع طريقة، فقد قال الرحالة: " يغْلونه في ماء مع الملح؛ فيأخذ لونًا أحمر أكثر من لونه الطبيعي، وفي هذه الحالة يمكن حفظه لثلاثة أو أربعة أشهر، ولأكله تُنزع الأرجل والأجنحة، أما البدو فاعتبروه رزقًا نازلًا من السماء، يأكلونه نيئًا أو مطهوًا أو مشويًا على الجمر، أو مجففًا تحت الشمس ومحفوظًا في جلود الماعز"[2]، فعادة أكل الجراد من العادات التي كان يحرص عليها أهل الصحراء، وقد خلقت نوعا من الذهول عند الرحالة، فهو لم يصادف هذا الأمر في المدن التي قد مر بها قبلا.

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 78–79.

[2]– Ibid, p 83.

من جهة أخرى كان واقع تقرت الصحي لا يختلف عن بقية المدن الأخرى في الجزائر، فقد فتكت به عديد الأمراض ولعل أبرزها وأخطرها الملاريا، ويعود سبب ذلك حسب الرحالة إلى ركود المياه في الأجزاء المنخفضة من الواحة، حيث تنتشر الملاريا انتشارا رهيبا في شهري ماي وأكتوبر، بالإضافة إلى المغص والإسهال اللذان يعرفان انتشارا في الربيع والخريف، وقد وقف الرحالة مذهولا في كيفية التعامل مع هذه الأمراض، فبالنسبة للملاريا ذكر أن علاجها يتمثل في أكل المريض لحم كلب مسلوق، في مرقٍ مع اللفت والجزر والتمر والثوم والبصل والفلفل... إلخ؛ وهذا يُحدث إفراغًا قويًا يخفف من احتقان الطحال والكبد، فيُعطي راحة مؤقتة لكنه لا يشفي نهائيًا، أما علاج الإسهال والمغص فيكون بلفّ خيط من الحرير حول إصبع القدم الكبير، مع شدّه بقوة والمحافظة عليه حتى يتم الشفاء الكامل؛ ويضيفون إلى ذلك حزامًا عريضًا من الصوف على البطن[1].

ومن الأمراض المنتشرة في تقرت كذلك أمراض العيون ويرى الرحالة أن سببها إنما هو طبيعة العمران فالبيوت لا ضوء فيها، فذلك الانتقال من ظلمة المنازل الحالكة إلى ضوء الشمس الساطع، يؤثر على العين، ومن الأمور الغريبة التي رصدها الرحالة، حين يتعرض الشخص لعضة كلب فإنه يضع قليلا من شعر ذلك الكلب على الجرح حتى يشفى، فإن كان الكلب مصابا بداء الكلب يستخرج قلبه فيشويه ثم يأكله اعتقادا بشفائه، كما يستعمل بعضهم التعويذات والحروز لتقيهم من الأمراض والسحر والعين[2] ، الأمراض التي يعرفها المجتمع تعود بالأساس إلى سوء الأوضاع الاجتماعية، أما علاجها فيتم

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 79-80.

[2] – Ibid, p 82-83.

بطرق بدائية نظرا لمستوى الأفراد ومحدودية علمهم، وهذا ما يكشف مدى الجهل المنتشر في المجتمع الجزائري عموما خلال فترة الاحتلال.

3.2 الواقع الاقتصادي:

إن مدينة تقرت كغيرها من المدن الجزائرية كانت تعرف بعض أنواع النشاط الاقتصادي، ومنها الصناعة والزراعة وهذا بالنظر إلى طبيعة المنطقة، وأولى الصناعات التي تحدث عنها الرحالة هي صناعة الحايك، فهو يعتبر من الحرف الأساسية التي يشتغل بها عديد أهل المنطقة، وأشار الرحالة إلى أن هذا الإنتاج يتم تصديره إما إلى أعماق الصحراء أو إلى التل والشمال بثمن يصل حتى 100 فرنك، كذلك هناك صناعة البرنوس من النوعية المتوسطة والأحذية الجلدية، بالإضافة إلى الحبال التي يتم استخراجها من النخيل، والقفاف المصنوعة من سعف النخل والفخار الذي تبدع فيه النساء التقرتيات دون إغفال الحلي التقليدية[1]، إن هذا النوع من الصناعات إنما هو إبداع محلي خالص يقوم على مواد أولية محلية، ويتفنن فيه الإنسان التقرتي يجسد مدى قدرته على تطويع عناصر الطبيعة لخدمته في هذه الطبيعة والظروف القاسية التي يعيش في كنفها.

أما الزراعة في تقرت فكانت تقوم أساسا على زراعة النخيل، وذكر الرحالة أن إنتاج التمور هنا هو على نوعين دقلة نور والرطب، ويلجأ أحيانا المزارع التقرتي إلى استثمار المساحات الموجودة في بساتين النخيل لزراعة البرسيم والشعير، أما ما يستهلكه أهل تقرت فهو لا يخرج حسب الرحالة عن بعض الفواكه

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 76.

والخصار الواسعة الاستهلاك كالتين، الرمان، المشمش وبعض الكروم والبطيخ، إضافة إلى الجزر، اللفت والبصل، القرع، الطماطم والفلفل الأحمر، كما يزرع القطن الذي يجلب إما من وهران وإما السودان وقد عرف إنتاجا وفيرا بسبب ملائمة المناخ وتوفر نوعية التربة المناسبة، فكما يمكن زراعته في وادي ريغ كذلك نجد بيئة مناسبة له في شمال تقرت وجنوبها، إذ تتوفر الرطوبة بالإضافة إلى المزيج الموجود بين الطين والرمل والملح[1]، الإنسان التقرتي كان يحرص على توفير مقتنياته الضرورية من الأمور المزروعة بنفسه، كما يمكن القول أن الإنسان الصحراوي تمكن من مطاوعة هذه الرمال وتسخيرها لتلبية حاجياته الضرورية.

ومن أنواع التجارة التي عرف بها بدو تقرت المقايضة وعنها قال الرحالة: "تخيّم قبيلة أولاد فايق حول الواحة في موسم جني التمور، وهي قبيلة بدوية تصعد بعد الحصاد إلى منطقة التل لتبادل التمر والصوف بالحبوب التي تحتاجها... هؤلاء البدو كانوا يضطهدون السكان المستقرين، ويأخذون منهم أربعة أخماس محصول التمر، لكن الفرنسيين ألزمُوهم حدودهم"[2]، فهم كانوا حريصين على توفير مختلف حاجياتهم الضرورية، والملفت للنظر أن فرنسا كانت تدافع عنهم لأجل استمالتهم إلى صفها وتحقيق مآربها فقط.

[1]– V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, p 77-78.

[2]– Ibid, p 83.

II. تمثلات غليزان ووهران عند الآخر الرحالة الفرنسي

3. مدينة غليزان في عيون فليكس لاباتو:

مع بداية احتلال الجزائر كانت المدن الجزائرية تسقط الواحدة تلو الأخرى تحت بطش الاستعمار الفرنسي، وقد وطئت أقدام الرحالة الذين توافدوا مع هذا الاحتلال كل أقطار الجزائر، وكان من هؤلاء الرحالة فليكس لاباتو felix labatut * الذي زار مدينة غليزان ورصد أحوالها.

1.3 الموقع والتاريخ:

يرصد الرحالة معالم الطريق الرابط بين نقطة انطلاقه- الجزائر العاصمة- ونقطة وصوله - غليزان- فذكر أنه استعان بالقطار للوصول إلى هذه المدينة، و أشار أن مدينة الجزائر تذكره بمدينة باريس الجميلة، كانت انطلاقته من محطة الأغا بالجزائر العاصمة، وأول المحطات التي يعبرها القطار سهول متيجة والتي تمتد على طول سبعين كيلومترا، وفيه مزارع جميلة وبيوت ريفية وتحيط به بساتين الزيتون والليمون والبرتقال، وإلى اليسار هناك سلسلة جبال الأطلس والتي تقع على بعد مئة كيلومتر عن الجزائر العاصمة، كما يوجد سهل الشلف الذي به أراضي خصبة تشبه تلك الموجودة في سهول بوص بفرنسا، بعد ذلك أطل القطار على مدينة غليزان، إذ تجاوز بسرعة آخر المحطات أورلينسفيل (الشلف)، إنكرمان (وادي ارهيو)، سانت إيمي(جديوية)، وليسالين(وادي الجمعة)، بعد

* فليكس لاباتو felix labatut رحالة فرنسي زار الجزائر سنة 1881

ذلك عند التوقف، تمت المناداة غليزان[1]، فخلال رحلته إلى مدينة غليزان وقف الرحالة على جانب من جمال طبيعة الجزائر من خلال جبالها وسهولها.

كان في استقباله أحد أصدقائه، قال الرحالة في تعريف مدينة غليزان: "غليزان هي مدينة صغيرة حديثة، قوية ونابضة بالحياة، مدينة ذات حيوية كبيرة، قد يكون لها دور كبير ربما في المستقبل القريب"[2]، كما أنه أرخ لنشأة هذه المدينة فيرى أنها تكونت سنة 1859م بمبادرة من الاحتلال الفرنسي نظرا للموقع الجغرافي الذي تتمتع به " هذه القرية الصغيرة تعود إلى سنة 1859، في تلك الفترة، قررت الإدارة العسكرية، وبناءً على أهمية الموقع الجغرافي، إنشاء مركز أوروبي على الموقع الذي تحتله المدينة الحالية"[3]. إذن فمن خلال تحديده لهذا التاريخ فهو ينفي أي علاقة بين هذه المدينة والحضارات القديمة، وهذا عكس ما أثبتته الأبحاث التاريخية الحديثة والحفريات حول مدينة غليزان.

وحاول رصد واقع المدينة قبل تواجد الاحتلال فأشار إلى كمية الإهمال الذي تعرضت له المدينة، يذكر أنها كانت عبارة عن سهل قاحل لا وجود للحياة عليه، تحيط به مجموعة مستنقعات مالحة لها انعكاسات سلبية على حياة مرتاديها إذ أنها تسبب حمى شديدة، أما ما صلح من هذه الأراضي فقد سيطر عليها الباي الحاكم العثماني، ولم يكن للسكان اهتمام بهذه الأراضي، كما أشار إلى انعدام مظاهر العمران التي رآها في بقية المدن الجزائرية وخصوصا العاصمة فلا وجود للمنازل؛

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, Adolphe Jourdan, Place de gouvernement Alger, 1881, p27-28.

[2] –Ibid, p 25.

[3]– Ibid, p 28.

فقط بضعة أكواخ تكسر هذه الوحدة[1]، فقبل وصوله كان قد مرّ بعدة مدن جزائرية اطلع فيها على جانب من مظاهر العمران سواء المحلي أو الذي تم تشييده من قبل فرنسا. غير أنه ما وجدها هنا.

وتحدث عن سد مينا الذي يقع على بعد ثماني كيلومترات عن وسط المدينة، فذكر أنّه دلالة على وجود مدينة رومانية كانت تستعين به، إذ كان هذا السد يعمل على توفير المياه لهذه المدينة سابقا، ويرجح أنها ربما كانت مينا المذكورة في مسار أنطونين، فلا تزال هناك بعض الآثار التي يشير السكان المحليون إليها باسم آثار رومانية[2]، حديثه هنا عن وجود الآثار الرومانية، فيه نوع من التناقض حينما نسب فضل قيام هذه المدينة للسلطات الفرنسية ليعود ويشير إلى الآثار الرومانية.

انتقل بعدها إلى رسم صورة المدينة بعد أن أصبحت في عهدة المحتل الفرنسي، فيذكر الحديقة المحيطة بمحطة القطار المغطاة بقبة خضراء و ما فيها من أصناف الأشجار، "أول شيء يلفت انتباه الغريب هو الحديقة الواسعة في المحطة حيث تعيش وتكبر الأشجار المثمرة الأوروبية، بجوار الليمون والجوافة والخروب وشجرة النيفل اليابانية، أشجار اللبان الجميلة وأشجار الأوكاليبتوس الرائعة تحيط بالمحطة وتغطيها بقبة من الخضرة"[3]، فيرى أنه بفعل الاهتمام الذي أولته فرنسا لمدينة غليزان دبّت فيها الحياة وصارت من المدن القابلة للعيش.

ونجد الرحالة بعد أن وقف على واقع المدينة المخالف لتصوراته تجاه مستعمرة فرنسية، والتي من المفروض أن تحاط بسور يحميها، حاول الربط بين ما شاهده في هذه المدينة وبين تلك المدينة الموجودة في بلده، فقال: "منظر غليزان يشبه منظر بلدة فرنسية جميلة تمامًاK إنها تتنفس جوًا من

---

[1] – Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 29-30.

[2]– Ibid, p 30.

[3] –Ibid, p 31.

الرفاهية والاسترخاء الذي لا يقاوم"[1]، وقد أسرّ الرحالة هنا بأفضال الإدارة الفرنسية التي تولت إدارة المدينة فبفضلها تحس بأنك تعيش في مدينة تتوفر بها سبل العيش الكريم.

وذكر فليكس أن مدينة غليزان لها من البساطة في العمران ما يجعلها مختلفة ومتميزة عن باقي مدن الجزائر التي زارها لا يوجد هنا كما في العديد من مدن الجزائر، تلك الشبكة المعقدة من الشوارع والأزقة، وتلك الممرات الضيقة والمغطاة التي لا بد لمن يريد السير فيها أن ينحني كي لا يصطدم رأسه ببيوتٍ منخفضة السقف، الشوارع واسعة ومحافظ عليها جيدًا؛ والمنازل بيضاء ومبنية بشكل جيد. بفضل مواردها الخاصة، دون أي دعم مالي، وبدون مساعدة من الدولة أو الإدارة المحلية، استطاعت غليزان توفير كل ما تحتاجه، فهذه المقومات التي تتمتع بها مدينة غليزان والتي ذكرها الرحالة جعلته يقبل عليها لاستكشافها، كما ذكر أن المدينة عرفت بناء مجموعة من النافورات إذ توجد نوافير على جميع زوايا الشوارع تزوّد المدينة بالمياه بشكل وفير[2]، كما أن جميع الشوارع مزوّدة بأرصفة وقنوات مبنية بالطوب، تنظف الشوارع مرتين في الأسبوع هذا الأمر ساهم في تحسين المنظر الجمالي للمدينة، وزيادة الإقبال عليها، كما ساعد على تقليل الأمراض.

وأضاف الرحالة عن مدينة غليزان قوله: " في الواقع، كان كامل الإقليم الذي يشكل بلدية غليزان مجرد سهل جاف، عارٍ وخالٍ من الخضرة. لم تكن هذه السهول مخترقة بأي طريق؛ فجميع الاتصالات مع أورلينسفيل ومستغانم في الشمال، ومع معسكر وتيارت في الجنوب، كانت تتم عبر مجرد مسلك عربي بسيط. الأرض لم تكن مزروعة، وكانت تنتشر فيها مستنقعات مالحة تغطي هذا

[1] –Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 31.

[2]– Ibid, p 34–35.

الامتداد الواسع وتنتج أبخرة مالاريا تسبب حمى خبيثة"[1]، فمدينة غليزان من خلال هذا السرد كانت تعيش في شبه عزلة عن بقية المناطق التي تحيط بها، كما أن بدائية أهلها قللت من نسبة الاستفادة من أراضيها نظرا لطبيعة هذه الأخيرة التي لم تكن صالحة للزراعة.

ورصد الرحالة الدوافع الفرنسية التي كانت وراء بعث مشروع تشييد مدينة غليزان وتعميرها، فالسلطة العسكرية هدفها ربط الساحل بالجنوب بشكل متين. لقد وضعت على عاتق المدينة المستقبلية آمالاً كبيرة. فهي في الواقع نقطة استراتيجية مهمة، بمعنى أن غليزان الواقعة على مفترق على الطريق نحو الجنوب، وعلى مسافة مائة وخمسة وعشرين كيلومتراً من وهران، وستين كيلومتراً من مستغانم، من المفترض أن تكون مركزاً لجميع العمليات العسكرية في المقاطعة، والمستودع المخصص لتموين الحصون في زمورة، تيارت، عمي موسى، وكذلك جميع المراكز الصغيرة الوسيطة. وبفضل موقعها الطبوغرافي، تُشرف غليزان بشكل كامل على قبيلة فليتة، وتؤدي دور حلقة وصل سلمية بين القبائل العديدة في الهضاب العليا، وقبائل السهل الشاسع لوادي المينا، التي كانت فيما مضى في حرب مفتوحة متواصلة[2]، إذن ففرنسا عملت على إجراء دراسة استقصائية عن المنافع التي يمكنها تحقيقها بعد انشاء هذه المدينة قبل أن تشرع في تجسيدها.

وتبعا للموقع الاستراتيجي لمدينة غليزان رأى الرحالة ضرورة بناء ثكنة عسكرية تساعد في ضبط الأمن خصوصا بالنسبة للمستوطنين، فقال: "تفتقر غليزان إلى شيء واحد: وجود ثكنة عسكرية؛ فوجودها سيكون ضروريا بل حتميا. وقد طالب بها السكان منذ فترة طويلة فوجود حامية من شركتين

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 29.

[2]–Ibid, p 64.

عسكريتين فقط كان سيكون له أثر معنوي لا جدال فيه في كل المنطقة. من المؤكد أنه لم يعد هناك ما يُخشى اليوم من اندلاع ثورة كالتي حدثت سنة 1864. في ذلك الوقت، لجأت النساء والأطفال والشيوخ إلى الحصن الذي كان يُستخدم حينها كمستشفى، بينما حمل جميع الرجال القادرين السلاح، أما الثوار الذين بلغ عددهم أكثر من 20,000، فإذ صُدموا بالإجراءات المتخذة للدفاع، تفرقوا في السهل؛ ونهبوا المحاصيل، وأحرقوا المزارع، وقُتل 17 مستوطنًا ذبحًا[1]، ويشير الرحالة هنا إلى ثورة فليتة التي كانت سنة 1864م والتي قادها سيدي لزرق بلحاج ضد فرنسا، والتي كان سببها نهب المستوطنين لأراضي الجزائريين.

ولزيادة تأمين المدينة أنشأت مدن محيطة بها، من ذلك مدينتي زمورة وتيارت، حيث تستعمل كمراكز حماية متقدمة، تعمل على دحر أي هجوم محتمل أو إبطائه إلى غاية وصول تعزيزات أمنية عن طريق خطوط السكة الحديدية التي أنشأتها فرنسا، كذلك يتم الحفاظ على المنطقة وأملاكها من أعمال النهب وتلك السرقات المعزولة[2]، يلاحظ أن فرنسا قد أولت اهتماما كبيرا للجانب الأمني لمدينة غليزان فقد عملت على استتباب الأمن بما يساعد على الاستقرار وتحقيق الرفاهية في المنطقة وزيادة الأنشطة الاستيطانية.

ذكر الرحالة أنه رغم بناء هذه المدن المتقدمة، إلا أن إنشاء حصن يحمي المدينة كان ضرورة ملحة، وهو ما أصرّت عليه الإدارة العسكرية الفرنسية وسعت جاهدة إليه، غير أنه قوبل بالرفض سنة 1863م من طرف ستة سكان أصليين، وهو ما دفع بالجنرال إلى سحب فريق الهندسة، ليعود المجلس

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 38.

[2]– Ibid, p 39.

البلدي سنة 1869م ويقدم طلب إنشاء الحصن للجنرال ويمفين لكنّه رفض الأمر، بعدها في سنة 1874م زار الأميرال غويسيدون مدينة غليزان، فعبر الأهالي المستوطنون عن رغبتهم في بناء هذا الحصن عبر ممثليهم، فاستجاب لهم الأميرال وأرسل فرقة هندسة توصلت إلى ضرورة بناء حصن صغير عند دار الضرائب وحصن آخر عند المسلخ البلدي، لكن الدراسة لم تر النور، وبتاريخ 31 ماي 1876م تنقل وفد عن الأهالي لمقابلة الجنرال شانزي لطرح الموضوع، فوعدهم بذلك وأقرّ قائد فرقة وهران بدعمه و خصص المجلس البلدي إعانة كبيرة للمشروع، غير أن غياب التجسيد حكم هذا الاقتراح، بحلول عام 1870 خشية حدوث تمرد أرسلت السلطة العسكرية فرقة من سلاح الهندسة، فأُقيمت المتاريس في الشوارع الرئيسية، ونُصبت الحواجز الشائكة. لكن هذه الأعمال المختلفة لم تكن تضمن سوى حماية نصف المدينة فقط. أما الجزء الآخر فقد تُرك مهجوراً؛ وهو ما شكل خطراً حقيقياً، إذ أتاح للسكان الأصليين إمكانية التمركز فيه وإقامة تحصينات[1]، إذن ففرنسا من خلال المخططات التي كانت تقدم لها رأت في كل تلك السنوات أن لا خطر على مصالحها، لكن حين استشعارها الخطر بادرت إلى حماية جزء من المدينة والتي تضم مصالحها ومستوطنيها دون الجهة الأخرى.

وخلال رحلته تحدث عن طبيعة العمران عند الزنوج الذين يقيمون في مدينة غليزان، فقال: "تجتمع العديد من الأكواخ المخروطية الشكل، المبنية كلها والمغطاة بالقش، يشكّل ما يُسمّى في البلاد "قرية الزنوج بعض هذه الأكواخ محاطة بسياج من الأوتاد، موصولة فيما بينها بسياج من نبات الصبّار"[2]، إن ما يعتمد عليه السكان المحليون في بناء مساكنهم، إنما هي مواد أولية توفرها لهم

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 65-69.

[2] – Ibid, p 51.

الطبيعة التي يعيشون في كنفها، وهو ما يكشف عن طبيعة الحياة البدائية التي كانت تسيطر على المنطقة، فقد اعتاد الأهالي العيش في أكواخ وخيم، رغم مظاهر التطور التي عرفتها المدن القريبة.

كما ذكر الرحالة أن على قاطني المدينة نسيان ذلك الاسم القديم المعروفة به، فالاسم الذي أُطلق قديمًا على غليزان وهو "كايين" (إشارة إلى مدينة المنفى المشهورة بسوء سمعتها)[1] حسب الرحالة لا يعكس واقع المدينة، ومن عمد بعد الآن إلى إلصاق هذه السمعة بمدينة غليزان، لا يعكس ذلك إلا سوء نية منه.

وقدم الرحالة نظرة مستقبلية حول المنطقة، من خلال جملة مشاريع مستقبلية ستجسد قريبا، فقال: " يمكننا أن نؤكد لسبب وجيه أن مدينة غليزان ستُرفع، في وقت قصير، إلى رتبة دائرة. إن دائرتها الواسعة الممتدة من عمي موسى حتى بوقيراط، ومن بلعسل إلى الرحوية أو تيارت، والتي تضم سكاناً يبلغ عددهم مئة ألف من الأهالي وعشرة آلاف من الأوروبيين، وبامتلاكها مقرّ النيابة، وجميع الإدارات العمومية التابعة لها، ومحكمة ابتدائية، ومسرح (تم اختيار موقعه بالفعل)، ومسجد، وكنيسة، ومعبد بروتستانتي، فإن غليزان قد زُوِّدت بجميع الأجهزة الأساسية، التي تجعلها تزدهر وتتطور"[2]، إن هذه النظرة التي استشرفها الرحالة عن المدينة، توحي بنوايا السلطات الاستعمارية والتي كانت تهدف إلى تعمير المناطق الجزائرية واغراقها بالمستوطنين لأجل الاستقرار مدى الحياة.

2.3 الواقع الاجتماعي والديني:

[1] – Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 62.

[2]– Ibid, p 79.

ذكر الرحالة أن غليزان في تشكيلها الديموغرافي هي خليط من مجموعة أجناس بشرية، فالمدينة تضم سكانًا يتجاوز عددهم 4000 نسمة، وتتكون من 900 فرنسي، 1500 سكان أصليين، 1300 أجنبي، وحوالي 300 يهودي[1]، كما أن المدينة تحافظ على نظام القبيلة فقد ذكر الرحالة بعضا من تسميات القبائل التي كانت تقطن بها، ومن هذه القبائل قبيلة المحال حيث قال: "على هذا المكان كانت تنصب خيمة زعيم قبيلة المحال"[2]، و قد كانت مهمة هذه القبيلة توفير الفرسان لأجل تحصيل الضرائب التي يقدمها الأهالي لباي الغرب آنذاك، ثم بعدها يشير إلى قبيلة فليتا التي تعتبر أحد الأقطاب الأساسية في هذه المدينة، إذ وقفت سدا منيعا في وجه هذا الاحتلال حيث يطلعنا الرحالة بأنها كانت سببا في الانتفاضة التي عرفتها المدينة عام 1864م[3]، فهذه القبائل في عمومها كانت مناهضة للاحتلال رافضة لسياساته الاستعمارية الاستيطانية.

وقد وقف الرحالة بالوصف على حال الرجل العربي في مدينة غليزان فقال عنه: " العربي من العِرق الأبيض، وهو طويل القامة وقوي البنية؛ له جبهة منحدرة وعيون حادة وأنف أفطس وشعر ولحية سوداء، شعب بدوي يعيش تحت الخيمة، والعربي يبقى على الدوام معاندًا لكل تقدم؛ ليست له حاجات كثيرة فهو يعيش بالقليل، ولا بد من سنوات طويلة أخرى لإحياء هذا المجتمع المدفون تحت وطأة الجبرية المحمدية "[4]، فالرحالة يجعل من الأهالي متخلفين لا علاقة لهم بالحضارة ومعالمها

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 33.

[2]– Ibid, p 29.

[3]– Ibid, p 33.

[4]– Ibid, p 43-49

كما أنهم يرفضون كل ما يساعدهم على التحضر، لا لشيء سوى لأنهم كما يرى الرحالة من أتباع الإسلام، فالإسلام في نظره هو السبب الرئيس في تخلف العرب و إعرابهم عن مواكبة التطور والتقدم.

وكان قد أشار إلى أن السكان لا يعيشون في منازل وإنما مجرد أكواخ من الطين يحتمون فيها، مما يوحي بدرجة الفقر[1] الذي يعانيه الأهالي، فهم يملكون من القوت ما يعينهم على تحمل مشاق اليوم الواحد فقط. ومن بين قاطني غليزان كذلك من سماهم الرحالة بالزنوج وذلك نسبة إلى لون بشرتهم، وهم العبيد الذين كان يتم توظيفهم من طرف الباشا وحاشيته لخدمتهم، فذكر أنهم كانوا يعيشون في أكواخ، هذا ما يعكس مدى سوء أحوال هذه الفئة، التي لم يكن لها همّ سوى العمل لأجل تحصيل القوت، فهم يتحملون مختلف المشاق عكس الأهالي[2]، هذا الأمر جعل فرنسا تستميلهم لخدمة مصالحها مقابل بعض الفرنكات التي تمنح لهم.

وأشار الرحالة في محطة أخرى إلى جهود سلطات الاحتلال في توفير بيئة مناسبة لمستوطنيها من خلال توفير مجمع مدرسي رائع، في موقع جميل مقابل المحطة تم بناؤه وفقًا لتصميم متقن، وهو مدرسة مختلطة تضم الذكور والإناث، كما تم بناء مسلخ مع الحرص على تجهيزه تجهيزا جيدا، فهو مزود بكميات كبيرة من الماء، تحت إشراف طبيب بيطري معين من قبل المدينة، مما يتيح توفير لحوم صحية ووفيرة لمحلات الجزارة[3]، وبعد زيارة الرحالة السوق واطلاعه على طريقة عرض اللحم من طرف سكان المدينة، ذهب إلى تأييد فكرة إنشاء المسلخ فهو يرى أن طريقة العرض تلك كانت وستكون سببا في انتشار بعض الأمراض.

---

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 30.

[2]– Ibid, p 51.

[3]– Ibid, p 34-36.

وحاول الرحالة التقليل من قيمة الشريعة الاسلامية ودورها في حماية رعاياها، ومن يعيشون تحت ظلّ الحكم الإسلامي من الديانات الأخرى، بمقابل ذلك يعطي الأفضلية للقانون الفرنسي الوضعي، فقد ساهم هذا القانون في مساعدة الزنوج على التحرر من العبودية التي فرضها عليهم الإسلام، ذلك أن هذا القانون الفرنسي أعتقهم ووضعهم على نفس مستوى السكان الأصليين[1]، ووضعهم بمستوى السكان الأصليين سيجعل من الكل تحت إمرة فرنسا وخادما لمصالحها، ثم إن هذه الرؤية الخبيثة تنطوي على كره شديد يكنّه الفرنسيون للدين الإسلامي، كما أن تكييف الفرنسيين قانونا ليحمي هؤلاء الزنوج ليس حبا فيهم، وإنما استمالة لهم حتى يجعلونهم في صفهم ويتم استخدامهم ضد الجزائريين إن استدعت الحاجة ذلك.

وسلط الرحالة الضوء على المرأة الجزائرية و هو في رسمه لشخصها لم يشذ عن باقي الرحالة الفرنسيين غالبا، ذلك أنهم كثيرا ما يقدمون صورة سوداوية لها، فهي حسبهم تعاني في هذا المجتمع وتعتبر اليد الفرنسية هي المخلص لها من ذاك الجحيم الذي تعانيه، فتحدث عن إحجام المرأة عن الخروج إلى الشارع، قال: " لم يتغير وضع المرأة، وإذا كان هناك بعض التخفيفات في مصيرهن الحزين، فإنهن لا يظهرن إلا في المدن"[2]، فالرحالة في هذا السياق لا يرى أن عدم خروج المرأة من بيتها إنما هو اِلتزام بالشريعة الإسلامية التي تقرّ بخروج المرأة من بيتها إلا للحاجة، وفهم على أنّه تقييد لحريتها فالمرأة في غليزان لا تعيش بتلك الحرية التي تتمتع بها النساء من ساكنات المدينة.

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 52.

[2]– Ibid, p 48.

كما أقر فليكس أن المرأة في مدينة غليزان ملتزمة في إشارة إلى إرتدائها الحجاب وعدم مخالطتها الناس: " توقفنا أمام امرأة عربية، فهنَّ لسن كثيرات في السوق، إنها حالة استثنائية، كانت محجبة ومنكمشة تمامًا؛ تُعِدّ القهوة التي تبيعها للأهالي في فناجين صغيرة"[1]، إذن فالرحالة هنا يناقض نفسه من خلال حديثه عن تضييق الشريعة الإسلامية على المرأة، فهي هنا تعمل مثلها مثل الرجل.

واصل الرحالة حديثه عن معاناة المرأة في هذه المدينة فقال: "المرأة العربية في السوق، كما قلنا هي استثناء، فهي نادراً ما تتواجد في السوق؛ فهي نادرًا ما تترك الدوار. فهي مجرد سلعة فاخرة؛ بالنسبة للفقير، فهي حيوان شغال، بالنسبة لها الأعمال الشاقة والمرهقة، إنها كالعبدة في خدمة سيدها ومالكها، عندما يتعلق الأمر بفقدانها، فإنه دائمًا يكون للعرب لعنة[2]، فالمرأة الغليزانية في نظره يماثلها بحال المرأة في الجاهلية لا تنفك عنها في شيء، فهي في معاناة دائمة، تعمل على طاعة وتنفيذ الأوامر ولا حقوق لها.

وعايش الرحالة جزء من يوميات المرأة في مدينة غليزان، فذكر أن من بين الأنشطة التي تداوم عليها منذ القدم إلى اليوم إعداد الخبز، ووقف الرحالة عند هذا الأمر فهو يقوم على مراحل، إذ تقوم النسوة باقتسام الأدوار بينهن، فمنهن من تطحن القمح باستخدام الرحى ومنهن من تخبز هذا الطحين وأخريات يقمن بطهيه، كما أن الأم المربية لا تستثنى من قائمة المهام، فهي تربط طفلها إلى ظهرها بقطعة قماش وتؤدي وظائفها[3]. فهذه من الأمور التي تحرص عليها النسوة فهي من المهام المنوطة بها وذلك رغم قساوة ظروف الحياة وقلة المؤونة.

---

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 47.

[2]– Ibid, p 47.

[3]– Ibid, p 53.

وعن استعمال المرأة للزينة قال الرحالة: "مسحوق الحناء، تستعمله المرأة لتلوين أظافرها ويديها وشفتيها، ويستعمله الزوج لتلوين ذيول وخُصل خيوله"[1]، إن هذا الوصف الذي أورده الرحالة أراد به الرحالة الحط من قيمة المرأة الغليزانية فما تستعمله للزينة يستعمله الزنوج وهم من المحسوبين عليهم لأذيال خيولهم.

كما أشار إلى أن السكان يعيشون في أكواخ مما يوحي بدرجة الفقر الذي يعانيه الأهالي، وما يعكس كذلك حالة الفقر والعوز التي كانت تعيشها المدينة، أوضاع الأطفال هناك فهم عراة تحت أشعة الشمس، يلعبون ويركضون كأنهم شياطين صغار سود[2]، إذن فالشمس الحارقة التي تعرف بها المدينة ساهمت في التأثير على بشرتهم، مما دفع الرحالة إلى تشبيههم بالشياطين، وفي هذا الوصف انتقاص وحط من قيمة الأهالي.

وقدم فليكس بعض الاحصائيات حول الواقع الديمغرافي لمدينة غليزان، خلال السنوات الأولى للاحتلال فقال: " بلدية غليزان

- سنة 1877: الولادات 149 – الوفيات 103
- سنة 1878: الولادات 157 – الوفيات 133
- سنة 1879: الولادات 164 – الوفيات 162
- سنة 1880: الولادات 221 – الوفيات 169

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 47.

[2]– Ibid, p 53.

إذن فالولادات في غليزان تفوق الوفيات بشكل مستمر، في حين أن الوفيات تفوق الولادات في سبعةٍ وعشرين إقليماً من أقاليم فرنسا الأم، ولم يقف الرحالة عند هذا الحد بل قدم مقارنة عن عدد الوفيات مع مدن أوربية أخرى، متوسط عدد الوفيات السنوي لكل ألف ساكن هو: 41 في فيينا، 37 في برلين، 34 في مرسيليا، 33 في غليزان، 28 في تولوز، 27 في نانت، 27 في باريس، 14 في فيلادلفيا[1]، لقد ساق الرحالة هذه الاحصائيات ليس لأجل المقارنة فقط، وإنما ليبين مدى التطور الذي تشهده مدينة غليزان سواء من حيث زيادة نسبة الولادات أو انخفاض نسبة الوفيات، وهذا أساسه السياسة الفرنسية التي أُنتهجت في هذه المدينة لأجل بعثها بعد أن كانت تعاني العزلة وشتى أنواع الحرمان.

من جهة أخرى سلط الرحالة الضوء على ظاهرة، وجود الأضرحة في هذه المدينة ومنها ضريح سيدي عبد القادر، الواقع على بُعد كيلومتر واحد من غليزان، وقد استُخدم كقاعدة من طرف المهندسين العسكريين لبناء حصن صغير يسيطر على المدينة، فقد سيطرت على مدينة غليزان كغيرها من المدن الجزائرية الأخرى، بعض الأفكار الشركية فقد كانت هذه الأضرحة كمزارات يتم اللجوء إليها بصفة دورية لاعتقاد الأهالي بقدرتها على تلبية احتياجاتهم. كذلك تم بناء كنيسة شامخة أمام الحديقة العمومية؛ ورأى الرحالة أن الخطأ كان في بنائها بأبعاد مفرطة في الضخامة[2]، فالملاحظ من ذلك أن السلطات الاستعمارية قد عملت على خلق جو ديني يساعد على استقرار المعمرين، كما يمكننا

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 60-61.

[2]– Ibid, p 30-35.

القول أنّ فرنسا بإنشائها لهذه الكنيسة بدأت حملاتها التبشيرية التنصيرية مبكرا منذ وصولها إلى مدينة غليزان.

وفيما تعلق بالجانب الصحي، بمجرد وصول الرحالة إلى هذه المدينة لفت انتباهه طبيعة الحياة حيث وجد أن المحيط والواقع الاجتماعي أسهما في خلق واقع صحي مضطرب جعل الأهالي يعانون جملة من الأمراض أبرزها الحمى، فعندما "كانت المدينة في طور التشكّل، وجاء أوائل المستعمرين ليستقروا بها، كانوا جميعًا يعيشون تحت الخيام، وكان طعامهم يتكوّن تقريبًا من اللحوم المالحة والبقول الجافة، ولم يكن لديهم ماء للشرب سوى ماء مينا غير المصفى"[1]، إذن فاستهلاك المياه من وادي مينا ساهم في تردي الأوضاع الصحية، حيث كان هذا الوادي عرضة لعديد العوامل الطبيعية التي تساهم في تعكير مياهه، وبالتالي فإن استعماله كمورد أساسي للتزود بالمياه الشروب، جعل ذلك ينعكس سلبا على حياة ساكنة هذه المدينة، ولكن سرعان ما أقدمت فرنسا على العناية بهذا الوضع، فكانت أولى خطواتها تأمين مورد مائي يساهم في التخفيف من تأزم الوضع الصحي، وتجلى ذلك في اعتمادها على منبع مياه رأس العنصر[2] التابع حاليا لبلدية زمورة بذات الولاية، هذه الإجراءات كانت خدمة لمصالحها الاستعمارية ومحافظة على جيشها لا غير.

ثم إن فرنسا لحرصها على صحة مواطنيها سعت إلى بناء مستشفى في هذه المدينة وهو ما أشار إليه فليكس هذا المستشفى يتألف من ثلاثة أقسام مستقلة، كلها مجهزة بشكل جيد، وتحيط بها حديقة واسعة مروية، يحيط بكل هذا التجمع جدار بارتفاع مترين، مع فتحات للمراقبة، ويُعالج في

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 56.

[2]– Ibid, p 34 –35.

المستشفى يوميًا، في المتوسط أربعون مريضًا، وتوجد إدارة المصلحة بيد طبيب ذكي ومتفانٍ، يساعده طبيب داخلي مُعيَّن [1]، إن هذه المنشأة اكتسبت أهمية كبرى في وقت قصير حيث كان المستشفى يستقبل عددًا كبيرًا من المرضى الغرباء عن البلدة، المنهكين بالمرض والمحكوم عليهم بالموت، ولكن في الحقيقة هذا المستشفى كان لتوفير خدمة صحية للمستوطنين والجيش الفرنسي أولا، ثم لاستمالة بعض الأهالي إلى الجانب الفرنسي حيث سيعتقدون اهتمام المحتل الفرنسي بصحتهم كما كانت تروج له في كثير من الأحيان، وبذلك يردون لها معروفها بخدمتها والسير في نهجها.

3.3 الواقع الاقتصادي:

تحدث الرحالة عن الواقع الاقتصادي للمدينة من خلال الحديث عن السوق المغطى الذي تم بناءه من قبل السلطات الفرنسية، يكفي هذا السوق المغطى لتلبية جميع احتياجات السكان، غير أن الهدف الأساس من تشييده كان خدمة المعمرين بالدرجة الأولى، بمقابل ذلك كان هناك سوق شعبي كبير، وهو ما منح غليزان أهمية ومكانة تجارية كبيرة، فهو واحد من أكبر أسواق الجزائر، حيث يتردد التجار من جنوب الجزائر والمغرب والقبائل المجاورة. حتى الجيش يأتي إلى هنا لشراء أفضل خيوله، حيث تعتبر سلالة الخيول في وادي الشلف ومنطقة فليتا محل تقدير كبير [2]، وخلال هذا السوق يجلب مختلف الوافدين مؤنهم إما للبيع أو التبادل بما يحقق المنفعة العامة.

و قد وصل الرحالة هذا السوق يوم 21 أفريل 1881م وكان ينصب يوم الأربعاء وينتهي مساء الخميس، حيث ذكر الرحالة أنه كان مقصدا لعديد القبائل فبالإضافة إلى فليتا هناك بني عمور

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 35

[2]– Ibid, p 36-41.

و الحشم و قبائل وهران[1]، كما أشار الرحالة إلى مختلف السلع والبضائع المعروضة ومنها الحيوانات فهناك الحمير والأغنام و الأبقار وقال عن هذين الصنفين الأخيرين: "تبدو الأبقار صغيرة جدًا في الحجم وضعيفة الجودة، إنها تكاد تكون جميعها بلون بني، للأسف يتم تربيتها بدون رعاية وتترك لتتناول الموارد الطبيعة فقط، بينما يقوم المستوطنون ومع تغذية مناسبة بتحويلها بسرعة لتصبح جيدة للعمل والذبح، الأغنام نسبيًا تتمتع بجودة عالية إذ تقترب كثيرًا من أغنامنا في فرنسا[2]، فقد جعل الرحالة العرب عديمي الإحساس بالمسؤولية إذ أنهم يحرصون على تلبية احتياجاتهم من هذه الأبقار دون الاهتمام لأمرها، وكأن العربي لا يفقه في تربية الأبقار، وعليه أن يقتدي بالمعمر حتى يتعلم منه، والملفت أن معاملات البيع والشراء كانت تتم بالعملة الفرنسية وهذا ما نبه إليه الرحالة في معرض حديثه عن عملية البيع والشراء في هذا السوق.

ومن المظاهر التي لفتت انتباه الرحالة في السوق بعد البيع والشراء، هو الحلاقة والطب البديل فقد أشار الرحالة إلى استعمال الأهالي حين المرض عصارة بعض النباتات؛ وإن كان جرحًا يخلطون قليلًا من الزيت والكبريت ليصنعوا منه دواء يضعونه على جرحهم، كما يلجؤون أحيانا إلى استعمال التمائم التي يخيل إليهم أنها تقيمهم من المرض، والتي يبيعها بعضهم في الأسواق، ووقف فليكس على قيام بعضهم بممارسة مهنة الحجامة في السوق، فهناك شخص من السكان الأصليين يعمل على ذلك، وكان عدد زبائنه كبيرًا، يتم إجراء الحجامة بمنطقة الرقبة وباستخدام نظام من الأكواب

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 42-43.

[2]– Ibid, p 45.

للشفط التي يصعب علينا وصفها[1]، لقد كان هذا لهذا السوق عديد الأدوار المختلفة، غير أن لجوء الأهالي للتداوي هناك يوحي بأنهم ما عرفوا طبيبا قط من قبل.

كما يحتوي السوق مختلف السلع الاستهلاكية كالفواكه والتمور والحمص والبصل والثوم، كما أن هناك الطاولات الزعفران والأفيون والخروع والفلفل والقهوة، كذلك تقوم فئة أخرى من التجار ببيع أشغال يدوية صغيرة خاصة بالاقتصاد المنزلي، مثل السلال والحصائر والقفاف والمكانس والزرابي، لكن هؤلاء التجار لا ينادون الزبون عكس سابقيهم الذين ملأت أصواتهم الأرجاء بل ينتظرونه، وعرج كذلك بالوصف على بيع اللحوم، وما لفت انتباهه هو الذبح وفق الشريعة الاسلامية إذ يتم جلب الحيوانات ورميها على الأرض، وجعل رؤوسها تتجه نحو مكة المكرمة وتذبح، تُفرغ من أحشائها وتُقطع إلى قطع صغيرة وتعلق على حبل مشدود بين وتدين. يأتي الزبائن يشترون بسرعة يدفعون وينصرفون[2].

إن هذه المظاهر التي وقف عليها الرحالة خلال تجواله في هذا السوق، كشفت عن مدى الفوضى التي تتخبط فيها هذه المدينة، كما عكست جانبا من التصرفات السلوكية غير السوية والتي يمكن أن تنعكس على أصحابها بنتائج وخيمة من ذلك الاعتقاد الجازم بالشفاء في الاستعانة بالتمائم وكذلك طريقة بيع اللحوم.

ومن الأمور التي خاض فيها الرحالة الأهمية الزراعية لمنطقة غليزان، ولا يخفى على أحد الدور الذي تلعبه الزراعة في المجال الاقتصادي، فحسب الرحالة تتمتع غليزان بسهل رائع يساعد

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 46.

[2]– Ibid, p 49.

على إنتاج الحبوب ومختلف أنواع المزروعات، الحبوب التي توفرها هذه المنطقة في سنة متوسطة، تبلغ حوالي 300 ألف قنطار من القمح، و150000 قنطار من الشعير، وتزرع الذرة والفول ونبات الكتان والذرة البيضاء من قبل الأوروبيين، أما الأهالي فينتجون الفول فقط، كما يوفر السهل أعلافًا من الدرجة الأولى، أما المساحة المخصصة لزراعة الفواكه فهي تتراوح بين 20 و25 آر، ومن خلال ما أحصاه الرحالة فإن جل المزارع كانت من نصيب المعمرين، إذ تم تخصيص مساحة ثمانية آلاف هكتار من المساحات المروية لتكون كمزارع نموذجية[1]

يمكن القول إن الأهمية التي حظيت بها مدينة غليزان في المجال الزراعي، ترجع بالدرجة الأولى لخصوبة أراضيها، حيث رأت فيها فرنسا مثل عديد المدن الجزائرية الأخرى ملاذا لتأمين احتياجاتها الغذائية في ظل الأوضاع التي كان يعرفها العالم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

وللرقي بالجانب الاقتصادي لهذه المدينة، عملت السلطات الاستعمارية على توسيع شبكة النقل بالسكة الحديدية، قال الرحالة: "توسعت المدينة بشكل كبير؛ وقد منحها خط السكة الحديدية من الجزائر إلى وهران أهمية أكبر، وهذا الازدهار سيزداد أكثر مع الافتتاح القريب لخط السكك الحديدية الذي يمر عبر غليزان، من مستغانم إلى تيارت، ومن الطريق الوطني من غليزان إلى معسكر والمغرب"[2]، فخط السكة الحديدية الذي عملت فرنسا على إنشائه جعل من مدينة غليزان همزة وصل بين شرق الجزائر وغربها، وموردها فيما تقوم بتصديره من خيرات.

[1]– Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, p 71–79.

[2]– Ibid, p 70.

4. مقاطعة وهران في عيون جورج روبرت:

نالت مقاطعة وهران اهتمام عديد الرحالة الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر، حالها كحال مقاطعتي الجزائر وقسنطينة، ذلك أن الاحتلال الفرنسي جعل الجزائر بثلاث مقاطعات، وأسماء هذه المقاطعات كانت تبعا لعواصمها، وقد تناول الرحالة الفرنسيون مقاطعة ومدينة وهران بالوصف من جوانب متعددة خصوصا العسكرية والاجتماعية، ويعتبر الرحالة جورج روبرت* Georges Robert من الرحالة الذين سلطوا الضوء على هذه المدينة من جوانب مختلفة من خلال رحلته التي تحمل عنوان Voyage à travers l'Algérie، وقد أسرّ الرحالة أن هذه المقاطعة لم تكن تحظ بالاهتمام الذي كانت عليه المقاطعتين الأخريين إلا بعد أن أذاقهم الشهيد بوعمامة من خلال ثورته الويلات، فبدأت السلطات الفرنسية توجه اهتمامها نحو هذه المقاطعة[1]

1.4 الطبيعة والعمران:

يستهل الرحالة حديثه عن موقع مقاطعة وهران الكبرى في الجزائر، بأنها تقع بين مقاطعة الجزائر والمغرب، وتبلغ مساحتها حوالي 11552800 هكتار، يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب (من أرزيو إلى فكيك، التي تعتبر تقريباً حدودها القصوى في الجنوب) 560 كيلومتراً، أما طولها على الساحل (من وادي كيس إلى وادي عبري) فيبلغ حوالي 360 كيلومتر[2].

* رحالة فرنسي زار الجزائر بين 1886و 1887.

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, imprimerie de G. Rougier, Paris France, 1891, p 205.

[2] – Ibid, p 207

هذه المساحة الشاسعة جمعت عديد السلاسل الجبلية والسهول، وقد وقف جورج روبرت على السلاسل الجبلية التي تتوفر عليها هذه المقاطعة، بل وقام بتسمية معظم قمم هذه الجبال مع تحديد ارتفاعها عن سطح الأرض، ومن الجبال التي ذكرها كتلة "تزارة التي تعتبر قمة "فلاوسن" أعلى نقطة فيها بارتفاع 1158 مترا، والكتلة البركانية لعين تموشنت التي أعلى قمة فيها هي سبع شيوخ بارتفاع 666 م، وكتلة وهران التي تضم العديد من التلال التي لا يتجاوز أعلاها وهو المرصد 588 متراً، وكتلة بني سنوس مع قمة رأس عصفور بارتفاع 1589 م، وكتلة تلمسان مع قمة الناظور بارتفاع 1560 م، وكتلة تسالة التي أعلى نقطة فيها هي جبل تسالة بارتفاع 1063 م، وكتلة الظهرة التي تبلغ أعلى نقطة فيها وهي جبل تاشتا" 786 مترا فقط[1]، هذه السلاسل الجبلية هي ما زادت حسبه من جمال المنطقة.

بالإضافة إلى هذه السلاسل الجبلية، فإن مقاطعة وهران تتميز بكثرة السهول من هذه السهول سهول زيدور والأندلسيات ووهران وتليلات وسيق والهبرة وغرب الشلف ومكرة وغريس، وهذه السهول حسب ما أورده الرحالة تعتمد على السقي، في حين تتميز مناطق الهضاب بكثرة نبات الحلفاء الذي تستغله عديد الشركات في التصدير وهي توظف عمالا إسبان[2]، فهذا الاستغلال يجسد نوعا من نهب ثروات الجزائر الذي كانت تقوم به فرنسا بصفة تضليلية دون الإفصاح عنه.

كما وقف الرحالة على شساعة الغطاء النباتي لهذه المقاطعة فهي تتوفر على عديد الغابات وهي تغطي مساحة 160000 هكتارا من المساحة الإجمالية للمقاطعة، وتتميز بالتنوع فنجد فيها

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 207.

[2] – Ibid, p 208.

الفلين والبلوط والعرعر والصنوبر الحلبي، ومن المؤهلات الطبيعية كذلك التي ذكرها الرحالة وجود المجاري المائية ممثلة في الوديان والأنهار والشلالات منها: وادي كيس وتافنة، ووادي المالح والمقطع، ووادي الناموس ووادي جديوية، أما البحيرات فهي ثلاث فقط : بحيرة سيدي بوزيان المالحة، وبحيرة وهران، وبحيرة أرزيو، وشطّين: الشط الغربي والشط الشرقي، وصرح الرحالة أن عدد البحيرات في هذه المقاطعة قليل مقارنة بما رصده في مقاطعة قسنطينة، ومن الشلالات التي وقف عليها الرحالة شلالات لوريط ومازونة وهوارة، أما الينابيع فمنها: عين الصفراء وعين الحجر وعين سيدي إبراهيم وعين السخونة، هذه العوامل الطبيعية التي تتمتع بها المنطقة ساهمت في وجود مناخ معتدل حيث يتميز بدرجات حرارة معتدلة على الساحل ترتفع كلما توغلنا إلى الداخل[1]، إن هذه المؤهلات الطبيعية الضخمة التي وقف الرحالة على تعدادها رأت فيها فرنسا غنيمة لا يمكن التفريط بها نظرا لتلك المشاريع الاستثمارية التي تحلم بإقامتها في الجزائر.

وقد تناول جورج روبرت بالوصف الخيمة التي يسكنها العربي، فقال عنها وعن مكوناتها: "تُنصب الخيمة العربية على عمود مركزي (ركيزة) يبلغ ارتفاعه مترين و50 سنتيمتراً؛ ويسند هذا البناء عمودان آخران بارتفاع مترين، وتُثبَّت أطراف الخيمة في الأرض بواسطة حبال من الصوف تُشدّ بقوة على أوتاد مغروسة في التراب، الغطاء عبارة عن مجموعة من الأشرطة المنسوجة من الصوف ووبر الإبل ومخاطة ببعضها البعض. ويبلغ عرض كل شريط من هذه الأشرطة التي تسمى فليج 75 سنتيمتراً وطوله 8 أمتار، وتصميم "الفليج" موحد؛ فالخطوط البنية والبيضاء التي تتناوب

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p208-210.

بعروض مختلفة لا تتغير أبعادها النسبية أبداً"[1]، وهذه الخيم هي ما كان يعتمد عليه الجزائري الذي كان يعيش في الريف وهذا نظرا لطبيعة الحياة البدوية القائمة على الترحال.

هذه الخيم ليست كالمنازل إذ وجد الرحالة أنها ذات أثاث قليل ففيها التليس وهو مجموعة أكياس من الشعير أو القمح أو التمر لا تتعدى الأربعة أكياس تكفي مؤونة ثمانية أو خمسة عشر يوما، كذلك هناك الوقادة وهي متوفرة عند العائلات الثرية لحفظ الأغراض الثمينة، بالإضافة إلى القربة المصنوعة من جلد التيس، كذلك المقود وهي أكياس من الجلد لتخزين مختلف أنواع المؤونة، كما تتوفر الخيمة على أواني من الخشب والفخار والحلفاء منها الكسكاس والطبق والغنينة وهو كأس مخصص للحلب، والصندوق والجرة والقصعة والطاحونة اليدية، ويوضع الكانون في الجهة المفتوحة من الخيمة المقابلة للخلاء، أما الأفرشة فهي إما الزربية أو الحصير[2]، إن سرد الرحالة لتفاصيل الخيمة وطبيعة العيش فيها يوحي بأنه قد عايش أهلها ردحا من الزمن مما مكنه من الإلمام بكل هذه التفاصيل صغيرها وكبيرها.

2.4 الواقع الاجتماعي:

يقف الرحالة على جزء من التركيبة الاجتماعية لمقاطعة وهران، فيذكر أنها تشمل عديد الأجناس، منهم اليهود ويرى جورج روبرت أن اليهودي: مولع بالتجارة، وبيع الخردوات (البضائع المستعملة)، ويتسم ببخل دنيء، ويمكن التعرف عليه من خلال صفاته الجسدية، وطباعه، وعاداته،

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 237.

[2] – Ibid, p 238.

وممارساته الدينية[1]، وما ذكره من صفات إنما هي معلومة عنهم خصوصا لنا نحن المسلمين، لما عهدناه منهم.

وعن يهود الجزائر وكيفية وصولهم إلى هذا البلد يتحدث الرحالة على لسانهم، حين تعرض اليهود للاضطهاد من قبل المسيحيين في اسبانيا وعذبوا الحاخام الأكبر سيمون بن صميا، وبعد أن اشتد بهم العذاب رسم هذا الحاخام سفينة على جدار وأسرّ لليهود بوضع أصابعهم عليها إن كانوا يرغبون في النجاة من هذا الويل، ففعلوا فتحركت السفينة ومرت في الشوارع دون أن تدهس أحدا وجرت في البحر حتى وصلت الجزائر فاستأذن الحاخام أهل الجزائر للنزول والاستقرار بها فأذنوا له، ومنحت لهم عديد الامتيازات، لكن بدخول الأتراك عاد التضييق عليهم، ولم تنفرج أمورهم إلا بقدوم فرنسا[2]، إن ما يتوارثه اليهود عن هذه الرحلة لا تعدوا أن تكون ضربا من الخيال، فلا يمكن أن يصدق عاقل أن رسما على الحائط يمكن أن يتحول إلى سفينة.

ثم عدد الرحالة بعض أوصاف النساء اليهوديات، فالمرأة اليهودية ذات بشرة بيضاء، لا تقوم بوشم وجهها ذلك أن كتابهم الديني يحرم ذلك، أما اللباس فيرى الرحالة أنه خليط بين زي الشمال الأوربي والزي العربي المشرقي، وتقوم المرأة اليهودية المتزوجة وجوبا بتغطية رأسها، ويذهب الرحالة إلى أن النساء اليهوديات ورغم كونهن فائقات الجمال لكن عدم معرفتهن بطريقة انتقاء ما يناسبهن من الملابس يجعلهن يبدين كبيرات في السن، وقد عمدت بعض اليهوديات حسب ما يطلعنا الرحالة

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 211.

[2] – Ibid, p 211-212.

إلى التخلي عن الحجاب الذي كن يرتدينه خصوصا في المدن الكبرى[1]، هذا الأمر يعكس مدى تأثرهن بالأوربيات والمستوطنات اللواتي أقمن في الجزائر إذ أنهن لا يرتدين الحجاب.

وبعد حديث الرحالة عن اليهود كأحد أقطاب مجتمع مقاطعة وهران ينتقل إلى الحديث عن المور، فيرى أنهم أبناء افريقيا، أما العرق البربري كان يحكمه في الاستقرار توفر المرعى لذلك كان دائم الترحال، أما في الوقت الحاضر فهم يشتغلون في التجارة والصناعة، كما يمتلكون بعض الأراضي الزراعية، وأشار إلى أن منازلهم تتميز بطابع خاص في التشييد إذ لا تتوفر على نوافذ مطلة على الشارع، أما صفاتهم الحسية والمعنوية فمنها: جمال الوجه، والوقار في المشية، والأناقة في الملبس. وبياض البشرة، كما يتميزون بوجه أكثر امتلاءً، وأنف أقل حدة، وشعر ناعم، وجميع ملامح الوجه لديهم أقل بروزاً مما هي عليه عند العرب، أما الموريات بيضاوات وغالباً ما يكن فائقات الجمال؛ وعن طريق اقترانهن بالأتراك، أنجبن عائلات "الكراغلة"[2]، فالأجناس البشرية تتعدد في هذه المقاطعة مما شكل تنوعا وثراء ديموغرافيا في المجتمع.

وإن أهم ما يميز الموريين من الرجال حسب الرحالة أنهم كسالى، يقظون أغلب وقتهم في التدخين واحتساء القهوة، لكن ورغم ذلك فهم أشد تدينا يقول عنهم: "متدينون جداً ويؤدون بدقة شديدة كل الشعائر التي يفرضها عليهم القرآن. وعندما تحين ساعة الصلاة، يسجدون حيثما وجدوا ويصلون بمنتهى الخشوع، مؤدين كل السجدات والتحيات المطلوبة، دون أن يكترثوا بمن يحيط بهم"[3].

[1]– Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 214.

[2] – Ibid, p 215–217.

[3] – Ibid, p 218.

وعن النساء الموريات ذكر أنهن صاحبات بدانة زائدة، هذه البدانة تعتبر جزء من الجمال عند المور، لكنها تزيد من قبحهن الذي يختفي تحت السروال المنفوخ والسترة المطرزة وحزام الصدر، ويشير الرحالة إلى أنهن يبذلن ما في وسعهن لأجل تحقيق هذه السمنة، ومما يلجأن إليه بغية التسمين أكل الخنافس والجعل، بالإضافة إلى استهلاك كثير النشويات، والمورية عموما حسبه هي ذات مظهر سوقي، وشكل خشن، ولا تشبه المورية الأصيلة في شيء، وتقضي وقتها في الاستحمام، والتزين، والراحة[1]، هذه المواصفات التي ساقها تبرز تلك النظرة الدونية التي تكنها الأنا الفرنسية للآخر العربي خصوصا، فهو يحتقر كثيرا جنس النساء من المور.

ويعود الرحالة ليفصل في لباس النساء الموريات فيقول: "قميص من الشاش بأكمام قصيرة يتجاوز الحزام بالكاد، وسروال من الكاليكو الأبيض أو القماش المطبوع (إنديان) واسع ومنفوخ، ينسدل إلى ما تحت الركبة، الساقان عاريتان والقدمان تنتعلان البلغة وغالباً ما يكتمل زي المنزل هذا بسترة (جبادولي)، وهي نوع من الصدرية التي تحل محل المشد، أو بنوع من الصدار المصنوع من قماش الحرير المطرز بالذهب (زليلة)، وعندما ترتدي المورية السترة، تعقد فوق وركيها قماشاً من الحرير المخطط يسمى "الفوطة" ينسدل حتى الأرض، ثم تلف فوقه حزاماً من الحرير أو الذهب تتدلى أطرافه من الأمام"[2]، بالإضافة إلى ذلك يستعملن لزينتهن الوشم والكحل والحناء، كما يستعملن الحلي والذهب.

ويتناول الرحالة الزواج عند المور، ومما أشار إليه في هذا الصدد هو امتناع الرجال عن دخول منازل الآخرين، إذ يتم استقبالهم في دهاليز تتصدر البيوت، يقومون فيها باحتساء القهوة

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 221.

[2] – Ibid, p 223.

والتدخين، وحسب الرحالة فهذا يمنع الاختلاط بين الشباب والشابات، ويتم ترتيب الزواج بين الآباء، فالفتاة بمجرد بلوغها سن الرشد تمنع من الخروج إلا نادرا، والزواج عند المور يعقد أمام القاضي وبعد التصريح بالمهر المتفق عليه، يتم قراءة الفاتحة ويدعون بالتوفيق، ليتم بعدها تحديد موعد الزفاف، بعد ذلك تخيط العروس قميصا وسروالا للعريس الذي يجب عليه ارتداءهما يوم العرس، وفي يوم العرس تتزين العروس بأجمل زينة ليأخذها أهلها وأهل العريس إلى بيتها الجديد، ترافقها الزغاريد[1]، وفي هذا الصدد يشير الرحالة إلى أن العرب لا يمكنهم الزواج بأكثر من أربع نساء، هذا يعكس معرفته ببعض تعاليم الدين الإسلامي.

ورصد الرحالة صورة سلبية عن أهل المنطقة، حينما أشار إلى تمسكهم ببعض الخرافات من ذلك اعتقادهم بالتمائم وبعض الأحجار للعلاج، إذ يرون أن كل أمراضهم إنما منشأها واحد وهو العين والحسد لا غير، فبعضهم يلجأ إلى استخدام أوراق كتبت عليها أسماء الله الحسنى وبعض آيات القرآن، في حين يستعمل آخرون حجر التوباز علاجاً فعالاً جداً ضد اليرقان والأمراض الصفراوية أما العقيق ويسميه العرب حجر الدم، فهو ممتاز ضد تدفق الدم والنزيف. وترتدي المرضعات خواتم فصوصها من الفيروز الذي يُعتقد أنه يزيد من القيمة الغذائية لحليبهن، والياقوت يقوي القلب ويُبعد الصاعقة والطاعون كما يروي العطش، أما الزمرد فيشفي لدغات الأفاعي أو أي جرح سام آخر، ويطرد الشياطين والأرواح الشريرة؛ وهو علاج خاص للصرع وآلام المعدة وأمراض العيون، وللعقيق خصائص أخرى فهو يهدئ الغضب، ويشفي آلام الأسنان؛ ويقي من سوء الحظ، وهو ضمان لسعادة دائمة وإطالة في العمر. وحجر الهيماتيت يهدئ آلام النقرس، ويسهل الولادة، ويبطل مفعول السموم.

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 225– 227.

واليشم يقي من الصواعق والكوابيس. وأخيراً، فإن الجوهرة التي تسمى عين القط تقي من تأثير النظرات الحاسدة[1]، هذه الاعتقادات في التمائم والأحجار جعلت الرحالة يقف على مدى الجهل المتفشي بين أهل هذه المقاطعة، فمن غير المعقول أن يتم رد كل مرض يصيب الإنسان إلى العين والحسد، بل يشير الرحالة إلى أن كل هذه العلاجات جمعت في كتاب ينسب إلى التيفاشي.

انتقل جورج روبرت بعدها للحديث عن أحد أشهر الأطباق في الجزائر وهو الكسكس، فيقول عنه: " هو طبق من اللحم والدقيق المفتول على شكل كريات صغيرة، ويجعل منه العرب طعامهم المعتاد، والذي يشكل عموماً، مع "المصور "يقصد "المشوي" أو اللحم المحمر، وليمة الضيافة"[2]، كما يرسم الرحالة صورة إيجابية عن العرب هنا فقد أسرّ أنهم أصحاب ضيافة وكرم فيقول: "يتوجب على المسلم تقديم المأوى والطعام للمسافر الذي يقف عند باب مسكنه ... الخروف المشوي، والكسكس، هما الطبقان اللذان يشكلان الوجبة العربية، وهناك طبق ثالث يُسمى الحميس .أما القول مم يتكون الحميس، فأعترف أن ذلك مستحيل علي؛ أعلم فقط أنه يحتوي على عدد كبير من القطع المقطعة وكمية هائلة من الفلفل الأحمر"[3]، فالجزائري عموما يعرف بكرمه وإنما جعل الكسكس رمزا للكرم لأنه أبسط ما يمكن لأي جزائري توفيره، والعرب يشربون الماء، وحليب الماعز أو الغنم، واللبن أو الحليب الرائب، وحليب النوق، وهم يفتتحون طعامهم ببسم الله وبها ينهون، كما يتناولون القهوة بعد العشاء، يضاف إلى ذلك حرصهم على غسل أيديهم والمضمضة بعد تناول الطعام تنفيذا لتعاليم دينهم.

---

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 229.

[2] – Ibid, p 231.

[3] – Ibid, p 233-234.

3.4 الواقع الديني:

وقف الرحالة خلال هذه الرحلة التي قادته إلى مقاطعة وهران على جانب من حياة المسلمين الدينية، من خلال حديثه عن شهر رمضان، ويشير الرحالة قبل الحديث عن تفاصيل هذا الشهر إلى اعتماد المسلمين التقويم القمري الذي ينقص عن التقويم الشمسي بأحد عشر يوما، وأهم ما يميز رمضان عند العرب حسب وصفه هو شدة الإمساك من طلوع الشمس إلى غروبها، فهم لا يأكلون ولا يدخنون، حتى أنهم إذا مروا أمام كافر يدخن وهم صيام يضعون أيديهم على أفواههم لمنع دخول الدخان، يتم إعلان وقت الإفطار من خلال نداء المرابط أي المؤذن وأحيانا من خلال طلقة مدفعية، وفي الليل تمتلأ المقاهي، ويسرف العرب في الأكل تحت ذريعة تقوية أنفسهم[1]، فشهر رمضان من الشهور المقدسة التي يوليها الجزائريون عموما نوعا من القدسية والاحترام.

ثم انتقل جورج روبرت للحديث عن الأعياد الدينية عند المسلمين، فذكر أن "العيد الكبير (عيد الأضحى) يكون بعد شهر رمضان يستمر ثلاثة أيام، والعيد الصغير (عيد الفطر) يحتفل به بعد سبعين يوما من الأول أي من العيد الكبير ويستمر أربعة أيام، ومن مظاهر الاحتفال بالعيد الكبير التي رصدها أنه يتم إعلانه من خلال طلقات مدفعية، توزع فيه الصدقات في المساجد والأكواخ، ويذبح فيه الخروف الذي هو في الأساس تذكير بذلك الخروف الذي وضعه جبريل تحت سكين سيدنا إبراهيم والذي أنقذ حياة إسحاق، أما العيد الصغير فهو ديني بالأساس"[2]، مما يلاحظ على الرحالة من خلال هذا الوصف معرفته التامة والكاملة بمظاهر الاحتفال في العيدين غير أنه وقع في خلط

[1] – Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, p 230.

[2] – Ibid, p 231.

بين تسمية العيدين، فعيد الفطر أو كما سماه العيد الصغير هو ما ينهي به المسلمون صيام شهر رمضان، وما مظاهر الاحتفال تلك إلا فرحة بتسلم الجائزة بعد تمام العبادة، أما عيد الأضحى أو العيد الكبير فيأتي حقيقة بعد سبعين يوما من الأول، ولكن بصفة أدق بعد تمام شعائر الحج في العاشر من ذي الحجة، كما يعكس سرده لتفاصيل نحر الأضاحي معرفته بالأسباب الدينية للنحر.

خاتمة

خاتمة

وفي الأخير بعد الجولة التحليلية التي خضنا فيها جانبا نظريا تناولنا في أدب الصورة وما اتصل به وأدب الرحلة وما تضمنه وبعد أن أردفناه بجانب آخر تطبيقي من خلال وصف وتحليل بعض الرحلات الفرنسية التي وطأت أقدام أصحابها أرض الجزائر خلال القرن التاسع عشر ميلادي، وبعد رصدنا لعديد الصور التي صاحبت هذه الرحلات، ووقوفنا على الواقع الجزائري المعاش أثناءها، نذكر جملة النتائج المتوصل إليها:

- تعدّد المفاهيم حول مصطلح الصورائية في مجال الأدب المقارن يكشف عن مدى أهمية هدا الحقل المعرفي والاقبال الكبير عليه من قبل الباحثين.
- يتطلب الحكم على الاخر ورسم صورة له سواء كانت إيجابية أو سلبية ضرورة معرفته معرفة حقيقية، فالمعرفة الأولية أو السطحية تسهم حتما في رسم صورة مغلوطة.
- قدرة الأنا عن كشف صورة الآخر دلالة على تموقع هذه الذات واحساسها بكينونتها بالنظر للآخر المختلف نسبيا أو كليا والذي تسعى للحكم عليه اما إيجابا ان كان يوافق معتقداتها وميولها وسلبا ان كان يخالف ذلك.
- أدب الرحلة ميدان واسع تختلف فيه الدوافع والرؤى لكن تتحد المفاهيم التنظيرية حوله بوجوب صدق الرحالة في نقل مادته الرحلية مع براعة في الوصف فلا ينبغي أن تكون صفحات الرحلة مجرد حشو للأحداث دون امتاع في السرد.
- أدب الرحلة علم واسع تتصل جذوره بأولى مراحل وعي الانسان على التدوين.

خاتمة

- تعددت أسباب الرحلات الفرنسية إلى الجزائر إذ لم يفصح أصحابها عن الأسباب الحقيقية باستثناء رحلة فليكس لاباتو والتي أقر بأنها ذات أهداف سياسية والمؤكد أنها جميعا خدمت أغراض توسعية استيطانية فرنسية.
- إن صورة الجزائر من خلال الرحلات الفرنسية في القرن 19م تجمع بين مظاهر الاعجاب والدهشة وبين مظاهر الاستهزاء والنفور.
- شكلت الطبيعة الجزائرية احدى الصور الايجابية التي رسمت لهذا البلد من خلال مجموعة من الرحلات وهو ما أسهم في زيادة توافد الرحالة الفرنسيين للجزائر لأجل استكشافها ومعايشة جمالها خصوصا تلك الواجهات البحرية والمساحات الخضراء التي عجلت بإبهار العقول بمجرد رؤيتها.
- عكست طبيعة العمران الجزائرية من خلال بعض محطاتها صورة سلبية عند الفرنسي من ذلك طبيعة الشوارع الضيقة والمباني المنخفضة الأسقف حيث رأى فيه تخلفا وعدم مواكبة التطور العمراني الموجود في بلدهم فرنسا بينما كانت في الأصل تراثا لا ماديا توارثته الجزائر عبر حضارات متعاقبة.
- إن رصد الرحالة الفرنسيين للعادات الاجتماعية إنما الأساس منه دراساتها ومعرفة أبعادها لاستغلالها بما يوافق مصالح فرنسا.
- أسهمت بعض العادات الاجتماعية في نقل صورة سلبية عند الجزائريين وكأنهم شعب لا يعرف من الحياة غير كثرة الولائم وإقامة الحفلات الراقصة.
- رسمت الأوضاع الاجتماعية التي رصدها الرحالة الفرنسيون واقعا أليما لما كان يعانيه الجزائريون عموما في ظل هذا الاحتلال الغاشم.

خاتمة

- تناولُ الرحالة الفرنسيين الجانب الاقتصادي في رحلاتهم ليس إلا تعرية للأطماع الفرنسية وكشفا لها على أرض الواقع، فكثير منهم قام برصد ما تمتلكه الجزائر من ثروات كل ذلك لأجل توفير مادة احصائية يتم الاستعانة بها من قبل سلطات الاحتلال في تحقيق مآربها.
- الصور السلبية التي نقلها الرحالة عن الأسواق الشعبية وما يصحبها من أحداث تجعل الآخر ينظر إلى هذه الأنا الجزائرية نظرة دونية ونظرة احتقار.
- تتفق جميع الرحلات الفرنسية هنا على تقديم صورة سلبية عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي حتى الثقافي منه، وهذا ما يفتح الباب لمبرراتهم الواهية في نشر التحضر والرقي في المجتمع الجزائري. ورغم توغل فرنسا وإفسادها إلا أن المجتمع الجزائري ظل في مجمله محافظا على ذاته فلم ينصهر في بوتقة الآخر الفرنسي ولم يساير عاداته ومعتقداته.
- شكلت مدينة الجزائر والبليدة وقسنطينة عند تيوفيل غوتييه قوة عمرانية واقتصادية تسعى فرنسا إلى استثمارها بما يخدم أجندتها المستقبلية. فالواجهة البحرية للجزائر تفتح أمامها سيطرة بحرية من خلال التحكم في الملاحة، كما تعمل الأراضي الخصبة في البليدة على توفير حاجياتها الأساسية، أما قسنطينة فكانت فاتحة دخول الشرق الجزائري والتوغل فيه.
- مدينة باتنة حسب جوزيف زاكون ذات موقع متميز، تعرف تنوعا ديموغرافيا فهي تجمع العرب واليهود والزنوج، موقعها أهلها لأن ترى فيها فرنسا دعامة اقتصادية لها من خلال أراضيها الخصبة، بالإضافة إلى استغلالها كدرع عسكري لما تتميز به المدينة من مظاهر طبيعية.
- كان جنوبنا الكبير شوكة في حلق فرنسا لذلك اعتبرت مدينة تقرت فاتحة الوصول إليه، ومدينة تقرت من خلال نظرة فيكتور لارقو هي مدينة ذات طابع خاص تعرف تكوينا مجتمعيا

يجمع بين العرب المسلمين واليهود كما الأفارقة، واقعها الاجتماعي يختلف قليلا عن أهل الشمال لكنّه لا يرقى إلى المستوى المطلوب، مع معاناتها صحيا فقد كانت بؤرة لعديد الأمراض.

- حملت مدينة غليزان من خلال رحلة فليكس لاباتو صورتين متناقضتين في آن واحد صورة إيجابية نظير موقعها المتميز إذ تم اعتبارها حامية عسكرية هدفها رعاية مصالح فرنسا وصورة سلبية بالنظر لما رصده الرحالة فقد كانت تفتقر إلى أدنى شروط الحياة لا تسكنها إلا مجموعة قبائل.
- كشفت رحلة جورج روبرت إلى مدينة وهران مدى الحرص والعناية التي أحاط بها الرحالة هذه المقاطعة لما تتمتع بها من أهمية حيث رصد خلال هذه الرحلة جل المظاهر الطبيعية بل لاحظنا أنه ركز كثيرا على تفصيل السلاسل الجبلية لأنها كانت تعتبر ملاذا للثوار، فكان الهدف من رصدها مساعدة فرنسا على تحقيق انتصارات ضد المجاهدين، كما أن رصده لبعض أطياف المجتمع يعكس تلك النظرة المتعالية، كما نجده قد توغل داخل البيت والأسرة الجزائرية حتى يلم بكل العادات والمعتقدات.
- سعت الرحلات إلى تسويق صورة ايجابية عن بعض الخونة والعملاء الذين تعاونوا مع فرنسا هذا الثناء ليس إلا طعما يدفعونهم من خلاله لمواصلة اعمالهم العدائية الوطن
- نقلت الرحلات الفرنسية صورة سوداوية عن واقع التعليم الجزائري خلال القرن 19م اذ حسبها هو محصور في تعليم بسيط لا يرقى إلى تلقين العلوم وفروعها فهو ليس بذلك المستوى الموجود في بلادهم.

خاتمة

- ان المعارك التي ذكرها بعض الرحالة عكست صورة روح الانتماء للوطن وكشفت عن مدى التشبث به والسعي إلى تحريره.

إن الرحلات إلى الجزائر على مرّ عصورها، وخصوصا الرحلات الأجنبية والفرنسية منها خلال الفترة الاستعمارية على كثرتها، تجعل من الاطلاع عليها بالدراسة والتحليل موردا نستقي منه أهم معالم تلك المرحلة وما صاحبها من أحداث، ونستشف من خلالها نظرة الآخر الغربي إلى الذات الجزائرية أولا ثم الأنا العربية المسلمة ثانيا، وصورة الأنا الجزائرية من خلال الرحلات الأجنبية مجال بحث واسع وعسى أن يكون هذا العمل موردا يجد فيه طلبة الليسانس والماستر ضالتهم، وأن يشكل مرجعا بحثيا لقادم الدراسات المشابهة، وأن يكون انطلاقة لأعمال أخرى في مجال علم الصورة وأدب الرحلة سواء من خلال التأليف أو تنظيم مختلف التظاهرات العلمية، فالمجال يظل مفتوحا دائما لأجل إثراء هذا النوع من الأبحاث وترقيتها من خلال الوقوف على أسباب هذه الرحلات ودوافعها ومضامينها وفق رؤى مبنية على مبدأ الحيادية و عدم التعصب.

في نهاية هذا العمل المتواضع أرجو أن أكون قد وفقت في استجلاء صورة الجزائر من النماذج التي وظفتها، وما أصبنا فيه من قول ورأي فبتوفيق من الله، وما أخطأنا فيه فمن أنفسنا ومن الشيطان، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

المصحف الشريف، رواية حفص عن عاصم، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1، 1425هـ

المصادر العربية:

1- أ. ليسور ووبلد، رحلة طريفة إلى إيالة الجزائر، تر الأستاذ محمد جيجلي، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2002.

2- أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوربا، تق: عصمت نصار، دار الكتاب المصري، القاهرة مصر، د.ط، 2012.

3- إدوارد نولده، الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر، تر عوض البادي، دار بلاد العرب للنشر، السعودية، ط1، 1997م.

4- ألكسي دو طوكفيل، نصوص في فلسفة الاحتلال، تر: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2008.

5- ابن بطوطة محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج1.

6- بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، تر مي عبد الكريم وعلي بدر، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1، 2000م.

7- تيوفيل غوتييه، رحلة إلى الجزائر، تر محمد بنعبود، دائرة الثقافة والسياحة مشروع كلمة، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2019، ص17.

8- ج، أو، هابنسترايت، رحلة العالم الألماني: ج، أو، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/ 1732م)، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، د.ط، د.ت.

9- الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، كتاب الحيوان ج3، تح عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط2، 1358هـ/1965م.

10- جان دي تيفينو، رحلات جان دي تيفينو في الأناضول والعراق والخليج العربي (1664-1665)، تر: أنيس عبد الخالق محمود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2013

11- ابن جبير أحمد أبو الحسن، رحلة ابن جبير، دار صادر بيروت لبنان، د.ط، د.ت.

12- جورج أوغيست فالين، صور من شمالي شبه جزيرة العرب منتصف القرن 19، تر سمير سليم شلبي، منشورات أوراق لبنانية، بيروت لبنان، ط2، 1981م.

13- جوناثان سويفت، رحلات جلفر، تر: محمد رجا عبد الرحمن الديربني، مكتبة لبنان، لبنان، ط1، 1990م.

14- حسين فوزي، سندباد إلى الغرب، دار المعارف، القاهرة مصر، ط3، د.ت.

15- ابن حوقل النّصيبي أبو القاسم، صورة الأرض لابن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د.ط، 1992م

16- الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تح نور الدين عتر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1975م.

17- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومدرسة بيروت، لبنان، دط، دت.

18- رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة مصر، د.ط، د.ت.

19- ريتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ج1، تر عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1994.

20- سفيان مقنين، جزائري في الأندلس رحلة إلى الفردوس الموجود، الجزائر تقرأ، الجزائر، 2018.

21- طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة مصر، ط3، د.ت.

22- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: هـ ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول تركيا، د.ط، 1954.

23- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط2، 1989.

24- غي دي موبسان، رحلة إلى بلاد الشمس، تر نادية عمر صبري، دار ورد للنشر، دمشق سوريا، ط1، 2007.

25- ابن كثير اسماعيل بن عمر أبو الفداء القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع لبنان، ط1، 1420هـ/ 2000م.

26- ابن مسايب، ديوان ابن مسايب، تح: الحفناوي أمقران وأسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1989م.

27- المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس، ج5، اللجنة المشتركة لنشر التراث بين حكومة المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، د.ط، 1400هـ/ 1980م

28- المكناسي محمد بن عثمان، الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس، الرباط المغرب، د.ط،1965م.

29- نوال السعداوي، رحلاتي في العالم، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، د.ط، 2017.

30- يوليوس قيصر، فتح بلاد الغال، تر: علي زيتون، دار علاء الدين للنشر، دمشق سوريا، ط2، 2007.

المصادر الأجنبية:

31- A. Berbrugger, Un Voyage de Paris à Alger en 1731, par Le Sieur Tollot, Revue Africaine, 11eme Année, n66, Alger, novembre 1867.

32- Alphonse Daudet, lettres de mon moulin, Dar Sader, Bierut, 2000.

33- Claude Bontemps, manuel des institutions algériennes de la domination turque à l'indépendance, paris France, 1976.

34- Félix Labatut, Notes sur l'Algérie Relizane, Adolphe Jourdan, Place de gouvernement Alger, 1881.

35- Georges Robert, Voyage à travers l'Algérie notes et croquis, imprimerie de G. Rougier, Paris France, 1891.

36- J. Zaccone, De Batna a Tuggurt et au Souf, librairie militaire, paris France, 1865.

37- Julien Charles André, histoire de l'Algérie contemporaine, presse universitaire de France, paris France, 1964.

38- L'Abbé Edmond Lambert, A travers l'Algérie histoire, mœurs et légendes des arabes, René Haton libraire éditeur, paris France, 1884.

39- Marco Polo, Voyage and travels, London, Cassell, 1886.

40- V. Largeau, Le Sahara algérien Les déserts de l'erg, librairie Hachette et cle, Paris, 2eme edition, 1881.

المراجع العربية:

41- إبراهيم أحمد العدوي، ابن بطوطة في العالم الإسلامي، دار المعارف، مصر، د.ط،1954.

42- إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرواية السورية، دار فضاءات، سوريا، ط1، 2019.

43- أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي دراسة ومختارات، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت لبنان، ط1، ديسمبر 1961.

44- إدوارد سعيد، الاستشراق المعرفة. السلطة. الانشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان، ط2، 1984م.

45- أسماء أبوبكر، ابن بطوطة الرجل والرحلة، در الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1992.

46- بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 1994.

47- جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط3، 1992.

48- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، د.ط، 1411ه/1991م.

49- حسين فوزي، سندباد إلى الغرب، دار المعارف، القاهرة مصر، ط3، د.ت.

50- حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية ودار نوبار للطباعة، القاهرة مصر، ط1، 1991م.

51- خالد علي نبهان، النبي إبراهيم كان عربيا !!، مكتبة النافذة، مصر، ط1، 2008.

52- دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر غسان السيّد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، د.ط، 1977.

53- داود سلوم، الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م.

54- زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي بيروت، د.ط،1981.

55- سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1995.

56- سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات في الوطن العربي، دراسة مقارنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1986.

57- سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة مصر، د.ط، د.ت.

58- شهرة بلغول، صورة اليهودي في الرواية المغاربية المعاصرة، دار الخيال للنشر والترجمة، الجزائر، د.ط، 2021.

59- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت.

60- صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، مصر، ط2، 1999م.

61- صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ط، 1989.

62- طه عبد الله شعبان، التبشير والاستشراق في الميزان، مكتبة طنطاوي، القاهرة مصر، ط1، 2004.

63- عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط1، 1416هـ/ 1996م.

64- عبد الرحيم مودّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مستويات السرد، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006.

65- عبد الفتاح محمد وهيبة، مكانة الجغرافيا في الثقافة الإسلامية، دار الأحد، بيروت لبنان، د.ط، 1979.

66- عبد القادر بومعزة، بسكرة في عيون الرحالة الغربيين ج1، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة الجزائر، ط1، 2016.

67- عبد القادر عميش، الخطاب من فعل التثبيت وآليات القراءة مركزية البنية وإمبريالية الدلالة، دار الأمل، الجزائر، د.ط، 2012.

68- عبد الله ابراهيم، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1 ،2001.

69- عدنان محمد وزان، الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، مطبعة رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة السعودية، د.ط، 1974.

70- علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط1، 1980.

71- علي صبح، الصورة الأدبية تاريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة مصر، د.ط، د.ت.

72- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1997.

73- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض السعودية، د.ط، 1996.

74- فاضل حسن فاضل، الاستعمار الغربي والخلفية الثقافية، مكتبة العلي، لبنان، ط1، 2005.

75- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط2، جمادى الأولى 1423هـ/ يوليو2002م.

76- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830) ج2، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 1998م.

77- كراتشوفسكي اغناطيوس يوليانوفيتش، تاريخ الأدب الجغرافي، تر: صلاح الدين عثمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2 ،1987.

78- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2010.

79- ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، د.ط، 2000.

80- مجموعة مؤلفين، الإسلام والعلم (مناظرة رينان والأفغاني)، تر: مجدي عبد الحافظ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة مصر، ط1، 2005، ص 66.

81- محمد أنقار، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية صورة المغرب في الرواية الاسبانية، مكتبة الإدريسي للنشر والتوزيع، تطوان المغرب، ط1، 1994.

82- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط9، أكتوبر 2008.

83- أبو المعاطي أبو النجا وآخرون، الغرب بعيون عربية ج1، دار الكتاب العربي، الكويت، د.ط، 2005.

84- ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الألماني: ج، أو، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/ 1732م)، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008.

85- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية القاهرة مصر، ط1، 1995.

86- نبيل راغب، فنون الأدب العالمي، دار نوبار للطباعة، القاهرة مصر، ط1، 1996.

87- نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل، بيروت لبنان، د.ط، 1987م.

88- نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، ط1،2008.

89- نور الدين السد، الشعرية العربية دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط،2017.

90- النووي محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي ج17، المطبعة المصرية بالأزهر مصر، ط1 ،1349 هـ/1930م.

91- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، حلب سوريا، د.ط، د.ت.

92- ياسمين فيدوح، إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، صفحات للدراسات والنشر، سورية، ط1، 2009.

93- يوسف بكار وخليل الشيخ، الأدب المقارن، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان الأردن، ط1، 1996م.

المراجع الأجنبية:

94- Alain Montandon, Les caractères Nationaux dans la littérature Française, problème de méthode université Blaise pascal,2001.

95- Bernard Franco, La littérature comparée. Histoire, domaine, méthode, Armand Colin, 2016.

96- Yves Chevrel, La Littérature comparée, Presses Universitaires de France.

الأطروحات:

97- أحمد العارف، الأنا الكولونيالي وصورة الجزائر في أعمال جي دي موباسون، أطروحة دكتوراه، تخصص الدراسات النقدية والثقافية المقارنة، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة الجلفة الجزائر، 2019-2020.

98- جميلة روباشن، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري القديم، كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة الجزائر، 2015/2014.

99- حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات والبحوث المتقدمة المتكاملة، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد باكستان، 2013.

100- لبنى لونانسة، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين 7 و8هـ، مذكرة ماجستير، تخصص الأدب المغربي القديم، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة 2014/2013.

101- محمد أغامير، صورة الجزائر في مخيال الآخر لدى الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران 1 الجزائر، 2013-2014.

102- ميلود بليفة، صورة الغرب في المخيال الثقافي والاجتماعي للشباب الجزائري، طلبة جامعة تلمسان نموذجا، أطروحة دكتوراه، تخصص أنثروبولوجيا، شعبة الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان الجزائر، 2013-2014.

المعاجم والقواميس:

103- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط2، 1960.

104- أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، 1399هـ/ 1979م.

105- أديبة فرح وآخرون، القاموس إنكليزي – عربي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م.

106- إميل بديع يعقوب، ميشال عاصمي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، م1، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1987م.

107- بطرس البستاني، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، د.ط، 1987.

108- الجوهري إسماعيل بن عماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ج2، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط4، 1990.

109- الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس ج12، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة، الكويت، د.ط، 1973.

110- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1، 1405ه/1985م.

111- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة مصر، د.ط، 1429ه/2008م.

112- مايكل باين وآخرون، قاموس النظرية الثقافية والنقدية ج1، تر هيثم غالب الناهي وآخرون، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2020.

113- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، ط2، 1984.

114- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425ه/ 2004م.

115- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل، لسان العرب، المجلد 1، 3، 4، دار صادر، د.ط، د.ت.

المجلات:

116- إدريس بولكعيبات، نادية بولكعيبات، الصورة النمطية السلبية عن المسلمين لدى الغرب، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، م1، ع1، جامعة باتنة 1 الجزائر، ديسمبر 2016.

117- انجيل بطرس، الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، ع7، دار الهلال مصر، يوليو1975.

118- حواء حنكة وعبد القادر كركار، وصف الرحالة الأوربيين للوضع السياسي في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة دراسات وأبحاث، م15، ع1، جامعة الجلفة، جانفي 2023.

119- سيد أحمد النساج، أدب الرحلات في حياتنا الثقافية، مجلة العربي، ع 338، وزارة الإعلام بدولة الكويت، يناير 1987.

120- الطيب بودربالة، صورة الجزائر في الرواية الفرنسية الحديثة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م2، ع2، جامعة الوادي الجزائر، مارس 2010.

121- عباس فضل حسين المسعودي وعلي منفي شراد الحساني، وصف بلاد العرب في القرن الخامس الهجري من خلال رحلة سفرنامة لناصر خسرو(ت481هـ/ 1088م)، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية،م8،ع1، جامعة بشار، جوان 2022.

122- عبد الرحمان نواصر، دور رحلات "جون لويس بوركهارت" (1784- 1818م) في الكتابات التاريخية، مجلة دراسات تاريخية، م10، ع1، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، أفريل 2022.

123- عبد الرحمن بوعلي، الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، مجلة دراسات وأبحاث، المجلد 12، ع2، جامعة الجلفة الجزائر، أفريل2020.

124- عبد النبي ذاكر، الصورة، الأنا، الآخر، سلسلة شرفات ع43، منشورات الزمن، الرباط المغرب، 2014.

125- محمد حسين فهيم، الرحلات اكتشاف للعالم والإنسان، عالم المعرفة " أدب الرحلات"، ع 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو1989م.

126- محمد سالم سعد الله، نظرية الاستغراب في الفكر العربي المعاصر، مجلة فتوحات، م1، ع1، جامعة خنشلة الجزائر، جانفي 2015.

127- مسعود شكري، صورة الآخر الإسرائيلي في رواية المتشائل لإميل حبيبي، مجلة إضاءات نقدية بين الأدبين العربي والفارسي، م7، ع26، جامعة آزاد الإسلامية إيران، حزيران 2017.

128- منى حسين السيسي، البناء الفني من خلال روايتي "تركي في باريس" (Paris'te Bir Türk) للكاتب التركي "أحمد مدحت أفندي" و"الحي اللاتيني" للأديب اللبناني "سهيل إدريس" (دراسة مقارنة)، مجلة المعهد العالي للدراسات النوعية، م4، ع 10، مصر، يوليو 2024.

129- نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، ع88، مركز الملف فيصل للبحوث، الرياض المملكة العربية السعودية، تموز" يوليو" 1984.

المواقع الإلكترونية:

130- تيسير خلف، علي باي العباسي ... جاسوس إسباني في فلسطين عام 1807، 2022/08/06، https://www.alaraby.co.uk/.

131- حسن بن جابر المدري الفيفي، نبذة عن تاريخ أدب الرحلة العربي القديم، https://faculty.ksu.edu.sa.

132- زيد خلدون جميل، رحلات «ماركو بولو» وأثرها على الثقافة العالمية، 2019/10/14، https://www.alquds.co.uk

133- الشيخ شبر الزهيري، الصورة الأدبية في صراع الأنا والآخر الخصم في فكر علي بن أبي طالب، https://almohsinlibrary.com

134- المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ليون روش، https://www.iicss.iq.

135- Abe Books, Algeria To-Day Gordon Casserly, https://www.abebooks.com/

136- Open Library, The Real Algeria par M. D. Stott, https://openlibrary.org/

137- Spahic Omer,Joseph Pitts a Christian Slave on Hajj, July19, 2021, https://www.islamicity.org.

الفهرس

فهرس الموضوعات

البسملة.....ص 01

إهداء ..... ص 02

شكر وتقدير.....ص 03

مقدمة.....ص 04- 13

مدخل الصورائية مفاهيم وأساسيات.....ص 14- 46

1. تعريف الصورة.....ص 15
   1.1 لغة.....ص 15
   2.1 اصطلاحا.....ص 18
2. ظهور الصورائية في الأدب المقارن وتطورها.....ص 26
3. أنواع الصورة في الأدب المقارن.....ص 28
   1.3 الصورة السلبية.....ص 29
   2.3 الصورة الإيجابية.....ص 34
4. وسائط تشكل الصورة في الأدب المقارن.....ص 39
   1.4 أدب الرحلة.....ص 39
   2.4 الاستشراق والاستغراب.....ص 40
   3.4 الترجمة .....ص 43
   4.4 وسائط أخرى.....ص 45

الفصل الأول أدب الرحلة مفاهيم وأبجديات.....ص 47- 103

I. **أدب الرحلة المفهوم والتاريخ**.....ص 48- 78

1. تعريف أدب الرحلة.....ص 48
   1.1 لغة.....ص 48

2.1 اصطلاحا.....ص 54
2. تاريخ أدب الرحلة الغربي والعربي.....ص 63
1.2 تاريخ الرحلة في الأدب الغربي.....ص 64
2.2 تاريخ الرحلة في الأدب العربي..... ص 74

II. **أدب الرحلة المرتكزات وجدلية الذات والغير**..... ص 79 – 103
3. دوافع الرحلة.....ص 79
1.3 الدافع الديني.....ص 79
2.3 الدافع العلمي.....ص 81
3.3 الدافع السياسي.....ص 84
4.3 الدافع الاقتصادي.....ص 86
5.3 الدافع الصحي.....ص 88
6.3 دوافع أخرى.....ص 89
4. أقسام أدب الرحلة.....ص 91
1.4 الرحلات النثرية والشعرية.....ص 91
2.4 الرحلات الواقعية والخيالية.....ص 93
5. قيمة وأهمية أدب الرحلة.....ص 94
6. ثنائية الأنا والآخر بين العرب والغرب في أدب الرحلة.....ص 96

الفصل الثاني تيوفيل غوتييه بين أحضان الجزائر.....ص 104 – 158

I. **بين تداعيات احتلال الجزائر والرؤية الفرنسية للعاصمة الجزائرية** ص 105 – 133
1. احتلال الجزائر دوافعه وظروفه من منظور فرنسي.....ص 105
2. مدينة الجزائر العاصمة من خلال رحلة تيوفيل غوتييه.....ص 109
1.2 الطبيعة والعمران.....ص 110
2.2 الواقع الاجتماعي.....ص 120
3.2 الواقع الاقتصادي.....ص 125

4.2 الواقع الثقافي والديني.....ص 131

II. البليدة وقسنطينة في مرآة تيوفيل غوتييه.....ص 134 – 158

3. مدينة البليدة من خلال رحلة تيوفيل غوتييه.....ص 134

1.3 الطبيعة والاقتصاد.....ص 134

2.3 الواقع الاجتماعي.....ص 139

3.3 الواقع الثقافي والديني.....ص 143

4. تمثلات مدينة قسنطينة في رحلة تيوفيل غووتييه.....ص 147

1.4 الطبيعة والعمران.....ص 147

2.4 الواقع الاجتماعي.....ص 152

3.4 الواقع الثقافي.....ص 155

الفصل الثالث صورة الجزائر في أدب رحالة فرنسيين.....ص 159- 220

I. ثنائية باتنة وتقرت عند زاكون ولارقو.....ص 160 – 190

1. مدينة باتنة في رحلة جوزيف زاكون.....ص 160

1.1 الطبيعة والعمران.....ص 160

2.1 الواقع الاجتماعي والاقتصادي.....ص 166

3.1 الواقع الثقافي.....ص 175

2. مدينة تقرت في رحلة فيكتور لارقو.....ص 177

1.2 الطبيعة والعمران.....ص 178

2.2 الواقع الاجتماعي.....ص 182

3.2 الواقع الاقتصادي.....ص 189

II. تمثلات غليزان ووهران عند الآخر الرحالة الفرنسي.....ص 191- 220

3. مدينة غليزان في عيون فليكس لاباتو.....ص 191

1.3 الموقع والتاريخ.....ص 191

2.3 الواقع الاجتماعي والديني.....ص 198

3.3 الواقع الاقتصادي.....ص 206

4. مقاطعة وهران في عيون جورج روبرت.....ص 210
1.4 الطبيعة والعمران.....ص 210
2.4 الواقع الاجتماعي.....ص 213
3.4 الواقع الديني.....ص 219

خاتمة.....ص 221- 226

قائمة المصادر والمراجع.....ص 227- 244

الفهرس.....ص 245- 249

الملخص:

جُبل الإنسان على الحركة والتنقل، و بمرور الأيام اهتدى هذا الإنسان إلى تدوين ما يلاحظه خلال رحلاته، فصارت هناك كتب سميت كتب أدب الرحلة، من جهة أخرى شكلت الجزائر وجهة لعديد الرحالة الغربيين والفرنسيين خصوصا لما تتمتع به من مقومات وتضاعفت الرحلات خلال القرن التاسع عشر مع ما عرفته الجزائر من استعمار على يد الفرنسيين حيث سعى الرحالة الفرنسيون من خلال مجمل مؤلفاتهم الرحلية التي دونوها في فترة تواجدهم بالجزائر إلى رسم عدة صور لها، وقد تعددت أسباب رحلاتهم إليها، كما تعددت الصور التي رسمت من قبلهم حولها فتراوحت بين السلب و الايجاب الاعجاب و الدهشة و غيرها، غير أن الطابع الغالب كان السلب وذلك للنظرة الاستعلائية التي صوروا بها الجزائر.

الكلمات المفتاحية: الصورائية، أدب الرحلة، الجزائر، الرحالة الفرنسيون، الأنا والآخر

The Summary:

Humans are naturally inclined towards movement and travel. Over time, they began to record their observations during these journeys, leading to the emergence of books known as 'travel literature.' On the other hand, Algeria became a destination for many Western travelers—particularly the French—due to its distinctive features. These journeys multiplied during the nineteenth century, coinciding with the French colonization of Algeria. Through the travelogues recorded during their stay, French travelers sought to construct various images of the country. The reasons for their visits were as varied as the depictions they created, ranging from negative to positive, and from admiration to astonishment. However, the prevailing tone was negative, driven by the condescending perspective through which they portrayed Algeria.

Keywords: The Imaginary, Travel Literature, Algeria, French Travelers, The Self and the Other.